حيدر بن زرع النيل

صفحات سوداء في التراجم والأخبار

طاهر، أيمن رجب.
حيدر بن زرع النيل : رواية / أيمن رجب طاهر .
القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2023.
256 صفحة، 20 سم.
تدمك : 978-977-820-137-6
ا– القصص العربية.
أ– العنوان : 813
رقم الإيداع : 27084 / 2022
الطبعة الأولي : يناير 2023.
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©.

كيان للنشر والتوزيع
إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

KAYAN PUBLISHING

٤ ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم
هاتف أرضي: **0235918808**
هاتف محمول: **01000405450 – 01001872290**
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

• إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأى **الناشرين**.
©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورة كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كُتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

حيدر بن زرع النيل

صفحات سوداء في التراجم والأخبار

أيمن رجب طاهر

رواية

إهداء

قد تكون شخصية حيدر بن زرع النيل القادم من أرض الفور خيالية، لكني أُكن له كل احترام لما غرسه في نفوس أحفاده من خُلق الكبرياء وعزة النفس، ففي زمان ما وأماكن عدة عاشت هذه العائلة السودانية بالقاهرة، فإليها أهدي هذه الرواية.

-١-

إنه الليل..

مع ولوجه المديد تنبعث في روحه سكينةٌ تهدّئ ما يشعر به من قلق نهار قديم متجذّر في دواخل نفسه الموتورة، يتناول آخر اللقيمات وينهي عشاءه فتأتيه حفيدته زينة الوادي بماعون الماء ليغسل يديه، ترمقه بنظراتها السمحاء وهو يتأمل كيس حربته الطويل فتترجرج بين تلافيف ذاكرته وقعات قديمة تذروها أحيانا رياح النسيان، بأنامله يجرّب اشتداد وتر القوس المعلق بالجدار، ولما أحسّه مرتخيًا بعض الشيء لفّه بالطرف المدبب وأحكم ربطته، وأعاد تثبيته بالجدار جوار الحربة، يلتفت إلى الفتاة ويسأل:

- أبوك رجع؟
- لا يا جدي.
- أخبرني أنه ذاهب مع الناجي لمقابلة كبير حرس القلعة.
- خيرًا إن شاء الله.

قرعٌ على الباب فخطت الفتاة في خفة نحوه فانفتح ليدلف كافي خالعًا من على كتفيه شالا ثقيلا فتعلقه ابنته على مشجبٍ خشبي مدقوق بالجدار، يتهالك على حافة الدكة فتئز سيقانها الهرمة، يهز رأسه مرات وهو يشبّك أصابعه ويمط شفتيه، كعادته لا يتعجّل

أبوه معرفة الأخبار فأطبق شفتيه الغليظتين متيحًا الوقت ليفصح ابنه عما أخّره وسبب تأففه، أشار كافي لزينة بأن تأتيه بالقلة، شرب كل ما فيها دفعة واحدة كأنه قادمٌ من وهج الصيف وهم لا يزالون في أمشير برياحه الهوجاء، ظلّ على سكوته فاستطال العجوز صمت ابنه متحليًا بصبر متقطع ولم يلبث أن دارت به نوبة من ضجر فرفع سبابته سائلًا في ضيق:

- خيرًا يا كافي، فيمَ طلبك حارس جقمق؟

فاه بها العجوز حيدر متلهفًا أن يعرف ما كان يريده أحد حراس المملوك جقمق الكبير هو وجاره الناجي، نهض كافي ولف الحِرام الصوفي الثقيل حول كتفي أبيه المتربع على سريره الجريدي، قعد قبالته وابتلع ريقه، انفرجت شفتاه عن ابتسامة هزيلة يطيّب بها نفس أبيه.

- ليس حارس الأمير جقمق لكنه واحدٌ من مماليك إسماعيل بك الضربخانة.

اتسعت عينا حيدر وبدت على قسمات وجهه السبعيني آيات الاندهاش من استدعاء ابنه من قِبَل واحد من خاصة الباشا الكبير محمد علي، فلحظ كافي ارتعاش شفتي أبيه فربّت على كفه المعروقة وهو يطمئنه.

- اصطحبنا الحارس إلى إسماعيل بك وكلفني أنا والناجي بفحص باب العزب بالقلعة وعمل إصلاحات فيه و...

- وطلعتم القلعة؟

– وحدّد الناجي الألواح المعطوبة وطلبوا عمل يد حديدية كبيرة وحلقة وحاملين كبيرين، من الليلة أجهز الحاجة وباكر يتم تركيبها.

– ربنا ييسر أموركما، والأجر، اتفقتما على الأجر؟

– هذا ما أغضب الناجي، مشينا دون أن يحدّد لنا إسماعيل بك أجرنا.

– له حق يغضب.

– وقرّر في طريق العودة لا ينفذ الأمر وحكّم رأيه أنه يرفض طلوع القلعة.

– ما له حق.

– أنا دعيته يتناول معنا الشراب وأحضرت لك من عند العربي الحلو خلطة جهزها بنفسه لأجل إدرار البول ومعالجة احتباسه.

دقٌّ خفيف على الباب ولم يلبث أن أطلّ وجه الناجي بعمامته المعصوبة بها رأسه، تلفّت ولما اطمأنّ لعدم وجود حريم الدار دخل مغلقًا خلفه الباب.

– سلام عليكم، كيف حالك يا عم حيدر؟

– بخيرٍ يا ولدي، تتردد في الدخول والبيت ما فيه غير زينة الوادي!

– خفت تكون قاعدة على راحتها، والأدب واجب يا أطيب إنسان.

– أكرمك الله، اعذرني، ما قمت لأسلم عليك، ولكن الصحة...

– أنت شديد يا زول، ويمكن نزوّجك شابة مليحة ترجع لك صحتك.

– الله يسترك يا ناجي، فيه امرأة ممكن تعوضني عن دار النعيم، أم كافي؟

– المرحومة دار النعيم ما رأينا منها غير كل خير وما طالنا منها غير النعيم.

– ولا أطمع من دنيتي غير أني ألقاها في الجنة.

– ربنا يجمعنا كلنا في دار النعيم إن شاء الله، اليوم كلنا في دار الشقاء، يرضيك يا عم حيدر نعمل دون أجر؟

– لا، وكان لازم تشترط الأجر.

– ولدك كافي، طول عمره كافي خيره شره، يهز رأسه من غير كلام.

– من أول ما خطت رجلي مع أبي رحمه الله هنا وأنا آليت على نفسي ألا أكون أنا أو واحد من ذريتي عبيدًا يستخدمني المماليك أو جند العثمانيين في عمل دون أجر، حتى أيام الفرنسيين رفضت التعامل معهم رغم الأجر الكبير الذي كان يعرضه أتباعهم وأدفع الكلفة[1] ولا أذل لأحد.

– لكن الضرائب زادت عن الحد يا أبي، زادت حتى عن أيام خورشيد.

(1) الكلفة: ضريبة مفروضة.

- نعم يا كافي، من زمان المماليك والأتراك وكل الأغراب اعتبروا البلد مزرعتهم، يفرضون الضرائب بلا رادع ويظلمون الخلق بلا شافع.

- واليوم يحكمها الباشا محمد علي وضرائب الباشا تنفق على الإصلاحات، لكن يأكل عرقنا أحد! لا أسمح بذلك أبدًا، تعرف يا ناجي في يوم واحد من البكوات معروف عنه أنه يأكل مال النبي، طلب مني عمل باب من الحديد فزدتُ على ثمن الحديد ولما طلبت منه أجري رفض وقال أنه مقابل حمايته لي.

- يحميك ممن؟

- سألته فرد بصلف، حمايتي من سيفه، لكني نلت حقي منه.

يبتسم الناجي وهو يهز رأسه متأثرًا، لكنه في نفس الوقت لا يُخفي إعجابه بالعجوز الجنوبي ودهائه الذي تعلّمه منه، فحتى لو لم يعطه المعروف عنهم أكل العرق والتعب فإنه يضيف أجر صنعته على ثمن الحديد الذي يشتريه من كبار التجار فيضمن أجره، اتسعت ابتسامته، لكنه ابتسرها في سرعة حين تذكر أخاه حريص، فالتفت إلى العجوز حيدر وقد نزع الطاقية الصوف وطفق يحك صلعته.

- أخي حريص يا عم حيدر.

- ربنا يصلح حاله يا ناجي، ويبعده عن طريق الشر.

- لا يزال يسير وراء الأمير جقمق الكبير وقايد بك ويعمل في تجارتهما ونصحته يبعد عنهما وعن مماليكهما.

- أخوك فاكر أنه لما يقرّب من كبار المماليك يبقى أصبح منهم.

- لا يشرفنا يكون منهم، نحن أحرار أولاد أحرار وهم جلبان، الله أعلم بأصلهم الوضيع.

- سواء كان أصلُهم وضيعًا أو غيره، ما إن يصلب الواحد منهم عوده حتى يصبغه الطمع وتدور الأيام ويصبح صاحب بساتين وتجارة ويتحكّم في مخاليق ربنا وأرزاقهم ولا يفلت الكرباج من يده.

- صدقت يا عم حيدر، اقنعه يمكن يرجع عن طريقه.

- أكلمه في أقرب وقت، أنا مخنوق من جو الغرفة المكتوم وغرضي أطلع.

- نقعد قدّام البيت.

- الولد سر النهر مختفٍ من فترة.

- أكيد عند واحد من أصحابه بالأزهر وزمانه راجع، تعال يا أبي.

في رفق تدلّت ساقا العجوز وقرّب كافي الخف الجلدي من قدمي أبيه، نهض ومدّ إليه الناجي عصا الخيزران، سار منتصب القامة، خطا في تؤدة وما إن خرج من الغرفة حتى ملأ صدره بالهواء البارد فأنعش نفسه، وهيأ له كافي مكان قعدته وأحضر له الحشايا فوضع إحداها خلف ظهره والأخرى اتكأ عليها بكوعه، أقبلت زينة تحمل بين يديها الماجور، ركنته أمام جدها وأحضرت أقراصًا من الجلة وأعواد البوص الجافة فأشعل كافي النار وطلب منها تنكة مملوءة بالماء، جلس الناجي وظهره إلى الجدار، مدّ بصره إلى الأمام وهو يرفع ذراعه ردًا على تحية العربي الحلو المقبل ممتطيًا حمارته فنهض كافي من فوره مرحبًا

بالتاجر المغربي، ربط لجام ركوبته في جذع شجرة السنط المائلة على بيت حيدر وألقى تحية السلام فأفسح له الناجي مكانًا جواره.

أراح كافي التنكة فوق النيران الهادئة والتقطت أذناه خطوات سريعة فالتفت نحو باب السور، قرن حاجبيه غضبًا على ابنه سر النهر وصوّب نحوه نظرات اللوم لغيابه من أذان العصر لقرب المغرب، لكن الشاب العشريني ألقى على ضيوف أبيه وجده السلام، برغم برودة الجو مسح العرق المنزلق على رقبته وحمد ربه أنه جاء في الوقت المناسب، فهو يحب جلسات جده حيدر وسمره وحكاياته عن حياته الأولى وسط الأشجار والأكواخ التي كانوا يعيشون فيها، تمنّى لو يعود به جده إلى بعيد، بعيد، إلى شسوع أرض نيالا[1]، لا شوارع ولا ميادين ولا مماليك يتحكّمون في رقاب الناس، يعيش كما كان يروي جده دائمًا وما يتوقع سماعه الليلة عن حياته في ذلك الزمن الغابر، حيث صيد الغزلان ونصب الفخاخ للطيور والركض وراء الأرانب وقطف الثمار الناضجة من أغصان الأشجار والتبرُّد بالسباحة في مياه روافد الأنهار الجارية، إنها الجنة التي يستفيض المشايخ في وصفها أثناء حلقات الدرس بالأزهر ويود لو يذهب إليها، وتكون معه كنانة بنت حريص أخي صديق أسرتهم الناجي التي لا يفارق وجهها الصافي ذاكرته.

تحرّر من العباءة الفضفاضة، رفع الطربوش الأحمر الملفوف بعناية بقماش أبيض، أمال رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه فتماوجت وقعات نهاره وتاقت نفسه لاستعادتها، فما إن أنهى شيخ العمود

(1) نيالا: بلد بجنوب دار فور غرب السودان.

درسه حتى نهض منتعلًا مركوبه الجلدي، توالت خطواته منحدرًا ناحية سور بيت حريص محاذرًا أن تضبطه عينا المملوك الواقف أمام باب الحديقة، اقترب من شجرة كافور مورقة، جذعها يخفي نقبًا في السور، تلفت يمنة ويسرة وأقحم رأسه، كأفعوان تلوّت قامته مخترقًا الفتحة التي اجتهد أيامًا في نقبها وإخفائها عن العيون بوضع أغصان جافة عليها.

ابتلع ريقه وخطا في خفة قط وبصّاته متعلقة بالمشربية الصغيرة لغرفة كنانة فبرقت عيناها اللوزيتان، أنزلت الدرفة الخشبية وانتظر لحيظات إلى أن انفتح باب البيت الخلفي، في خطوات غزلانية اقتربت الفتاة فتأمّل وجهها المستدير كفلق القمر ليلة التم، غاب في بحر عينيها الواسعتين وابتسامتها الحلوة دفعت الدماء فتراكضت بشرايينه، لا يدري سببًا لما يشعر به كلما ألقت عيناه بشباكها على قوامها الممتلئ وعنقها المرسوم ورباط رأسها الأخضر، مدّت يدها فقبضت أصابعه السمراء على كفها الطري، ابتسم فانكشفت أسنانه اللؤلؤية وهمّ أن يستأنف معها حديث الأمس لكن صوت مناداة من جوف البيت الكبير دفعه لأن ينتتر للخلف.

اختبأ وراء جدار لغرفة واطئة ملاصقة للسور ورآها تصعد سلم الباب حتى لا تعطي القادم فرصة للخروج، أطلّت الجارية من الباب ولم تلبث أن أغلقته فتلفّت مستريبًا وبحذرٍ متناهٍ عاد إلى نقب السور فغادر وقلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه، أسفت نفسه على مغامرته التي لم يستأنس بالكلام معها قبل عودته إلى البيت وقعوده وسط ضيوف

جده، أغمض عينيه وفتحهما على يد أبيه تهزه في عنف فاستفاق من نوبة سرحانه لتجربة اليوم المبتورة.

- أحضرْ الأكواب من الداخل.

من فوره نهض سر النهر، حمل عن أخته الطاولة الخشبية والأكواب الفخارية تهتز، خطا في هدوء إلى أن ركن الطاولة أمام الماجور وبخرقة قديمة قبضت أصابعه على ذراع التنكة وطفق يسكب مشروب الحلفاء المغلي في الأكواب ويأتي دور تحلية السائل بملعقة من عسل النحل، امتدت الأيدي لاحتساء المشروب ذي الرائحة النفاذة.

- يا سلام، الحلفاء في نيالا لها مذاق ورائحة أحسن من المخزّن منها.

- أكيد يا شيخ حيدر.

بلثغته المغربية علق العربي الحلو على مقولة العجوز، والتفت إلى كافي المنهمك في غسل التمر ووضعه في طبق كبير استعدادًا لإكرام ضيوفه.

- لم أرك من أيام يا كافي.

- الشغل يا عم العربي، انشغلت في تجهيز مهاميز ما لها عدد، غير سن السيوف.

- صحيح أن الباشا يسيّر جنده إلى الحجاز؟

- وبقيادة ابنه طوسون، غير إصلاحات الأبواب في القلعة واليوم أعدنا تركيب قفول بالباب الوسطاني وفحصنا أنا وكافي باب العزب.

- الباشا وقواده الأرناؤود حريصون على أمانهم.

- جنده الأرناؤود لا يفترقون عن المماليك، جشعون ويستولون على أملاك غيرهم دون استئذان وكأنه حقٌ مكتسب.

- صدقت يا عم حيدر والله لولا عشرتكم الطيبة يا أهل النيل لكنت عدت إلى نفزة.

- نفزة؟

- نفزة في المغرب يا سر النهر، سمعت من التجار القادمين من هناك أنه يحكمها الحين مولاي سليمان بن محمد، هجرتها مع أبي رحمه الله، كان شريكًا لـ محمد كتن بن محمود العطار والد الشيخ حسن، تعرف الشيخ حسن العطار يا سرّي؟

- سرّي لم ير الشيخ حسن العطار يا عربي، لأنه هاجر من زمان، بعد خروج الفرنسيين بسنة أي من تسع سنوات تقريبًا، أنا نفسي ركّبت لبيته مزلاجًا من الحديد قبل رحيله، وسمعت أنه الحين في دمشق.

- كلامك صحيح يا عم حيدر، الشخ حسن يحب الترحال والهجرة من بلد لبلد.

- كما هجر أبي زرع النيل نيالا وأتى بي إلى هنا.

- أبوك اسمه زرع النيل يا شيخ حيدر؟!

- نعم، من أشهر بقارة أرض الفور.

حانت من العجوز التفاتة إلى ابنه كافي لم تلبث أن انتقلت نظرته إلى حفيده سر النهر، بلسانه بلل شفته وواصل:

– وابني كافي وابنه سر النهر وأخته زينة الوادي هم كل من بقي لي هنا.

– يعجبني يا عمنا أنك أطلقت على عيالك أسماء من بلدك البعيدة.

– أسماؤهم تجعلني أشعر بجذوري.

– وما لك إخوة في دياركم يا عم حيدر؟

– كان لي أخ واحد، حمزة.

– يعيش في نيالا؟

لأن كافي يحفظ عن ظهر قلب حكايات أبيه عن سيرة جده زرع النيل وما واجهه من أحداث جسام ووقعات مهولة لزم الصمت مفسحًا المجال لأبيه لأن يروي تلك السيرة التي لا يسأم اجترارها، لم يستسغ سر النهر مشروب الحلفاء فترك كوبه وتناول إحدى التمرات ليلوكها في فمه ويستحلب حلاوتها، أنصت لرواية جده المحبوبة إلى قلبه والتي لا يمل سماعها.

– بعد موت أمي بأسابيع، انقطع المطر؛ فاعتمد رجال القبيلة على البئر الموجودة وسط الأكواخ، الشمس كادت تغيب يوم أن تجاهلت أنا وأخي حمزة تحذير أبي من الابتعاد داخل الغابة، فطارد حمزة غزالة ممنيًا أسرتنا بعشاء وفير فتقافزت مبتعدة ونحن خلفها وسهم حمزة يخطئ إصابتها وحربتي الرفيعة تطيش وتنغرز قربها، لم أشعر أنا أو حمزة بمدى ابتعادنا إلا بعد أن غطست الشمس وأضاءت مشاعل كثيرة أرض الوادي، رجال أحاطونا وصرخات المناداة على أبي والغوث لم تصل، خبطٌ على رأسي دفعني لأن أرتمي على العشب.

- غرباء قبضوا عليكم؟

- حين أفقت وجدتُ نفسي مكممًا وأيدينا مربوطة بالحبال في مكان غريب بعيد وواحد يرطن بكلمات لا أفهمها يأمر وينهي، هجرت القافلة أشجار الغابة إلى جبل كانوا يرددون أن اسمه أم كردوس واقتربت من رمال أول مرة نراها في حياتنا.

- صحراء؟

- هي الصحراء، سارت القافلة في منعرجات بين الجبال، نركب ساعة ونمشي ساعات، وأيدينا أنا وحمزة وغيرنا من غلمان لا أعرف أكثرهم مربوطة بحبال خلف الجمال الكبيرة ومن حين لآخر يباعد الفحل فخذيه ويزخ بوله فيشرشر على وجوهنا ويعمي عيوننا بحرقته.

- لا حول الله، وبعد يا عم حيدر.

- أخي حمزة كان أكبر مني وأقوى لكن من طول سيرنا في الصحراء والماء والأكل قليل سقط وجرّه الجمل، حتى أني صرخت وأنا أشير إليه والرمال غطت جسمه فتنبه حادي الجمال وأركبنا بغلًا.

- شفق عليكم.

- لا وأنت الصادق، خاف نموت ويخسر بضاعته، سرنا أيامًا وأسابيع وحمزة لا يكف عن سبهم ولعنهم حتى وصلنا للنيل والخضرة بقرب أسيوط.

- وهناك باعوكم لتاجر سافر بكم للفسطاط أو القاهرة.

– اصبر وما صبرك إلا بالله، هناك حدث ما لم يكن في حسبان الثلاثين صبيًا الغرباء والولد الوحيد الذي أعرفه وهو زيد من الزغاوة، وقفنا جوار بعضنا وكان صاحب الحوش يشير إلى كل واحد منا ولا ينطق بغير كلمتين: مجبوب، مسلول، مسلول، مجبوب، ورجل رفيع لا زلت أتذكر وجهه كانوا ينادونه باسم جريس، قام تابعوه على الفور بتقييد واحد منا بعمود وكمموا فمه، والصبي يعافر ليمنعهم فتح ساقيه لكنهم تغلبوا عليه وقيدوه، وقتها سقط قلبي بين ضلوعي وجريس بالمبضع يجبُّ عضو الصبي وصراخه المكتوم يدوي إلى أن ظفر به مرتخيًا بكفه، ألقاه ثم صبّ القليل من الزيت المغلي مكان الجرح، كبسه بمسحوق الحنّاء ويقحم أنبوبًا بموضع القطع ويلفه في سرعة بالقماش، فكوا قيود الصبي وبرفق وضعوه بجوف حفرة فغاب نصفه الأسفل بها، ردموا حوله التراب وأفهموه أنه لو تحرّك أو نبش التراب محاولًا الخروج سيموت، رضخ الولد لأمرهم الصارم، أما زيد لم يستسلم، لوى مساعد جريس ذراعيه خلف ظهره وبدوره طبق جريس بقطعتين من الخشب على خصيتيه وسلهما في مهارة وربط مكان الجرح بعد أن سكب سائلًا ذا رائحة نفاذة، وفي الغرفة المجاورة سمعت صراخ حمزة ولعناته عليهم وبكيت وأنا أناديه متمنيًا ألا يفعلوا به ما رأيته بعيني في زيد، فتحت الباب ورأيت أحدهم يسكب بين فخذي أخي حمزة الزيت المغلي.

ارتعشت شفتا حيدر وصمت قليلا، أشار إلى سر النهر فناوله قلة الماء، الجرعات أبردت نفسه المحمومة من فرط حرثه لذكريات الماضي، دارت عيناه بين وجوههم وطيف مموّه يرتسم أمام مقلتيه الذاهلتين.

– لأيام حمزة يتقلّب على المفرش المرقّع، زهد الطعام وأنا جواره أشحذ القليلَ من الماء البارد وأمسح وجهه الحامي إلى أن أصيب بهذيان، ينادي أبي وأمي ويردد اسمي ثم يغيب عن الوعي، نهارًا استيقظتُ وقدمتُ له رغيفًا ناشفًا لكنه لم يتحرّك، ناديته لم يجب، صرخت فيه وهززته فدخل الحوش واحد ممن اختطفونا وحرّكه بدوره وحين رفع ذراعه سقطت فحمله بين يديه وأنا أتعلق بساقه لكنه دفعني بعيدًا ورجل آخر أغلق الباب، بعدها هلك أربعة صبيان فخاف التاجر أن يموت غيرهم فتوقف عن خصاء بقيتنا.

تململ حيدر في قعدته فشعر كافي بإجهاد أبيه ورغبته أن ينهض لقضاء حاجته بعد مشروب الحلفاء المساعد على جريان مائه، نهض متثاقلًا ورافقه سر النهر إلى الكنيف آخر البيت، هزّ كافي رأسه وهو يرى الفضول في عيني العربي الحلو لمعرفة آخر الحكاية.

– أنا أكمل لك يا عم عربي يا حلو بل يا أحلى رجل من مراكش.

– الله يكرمك يا ابن أحلى رجل من أرض الفور.

– بعدها، حدث شيء لم يتوقعه أبي، أيام مرت بعد موت أخيه حمزة، وليلة انفتح باب الحوش ورأى أبي الجد زرع النيل يقف قبالته ويفتح ذراعيه له، فنهض وارتمى في حضنه وهو لا يكف عن البكاء.

- يا الله، هاجر جدك زرع النيل بحثًا عن ولديه!

- نعم.

في بطء يخطو حيدر وهو يقوّس ذراعه على كتفي سر النهر، عاد لجلسته، أراح نفسه، سرح قليلًا كأنه يستمع لهسيس ذكريات متوارية، لكنه وجدها تتقافز في ذهنه فأكمل:

- ظلّ أبي يبحث ويستقصي عن الجلابة وطريق تنقلهم، قطع درب الأربعين إلى أن لحق بالقافلة بأسيوط وسأل عنها ودفع للتاجر صخورًا من الذهب مقابل أن يعتق رقبتي، آه لو تسمعون صرخته في وجوه التجار بعد أن أخبرته بموت حمزة، وهياجه حتى أنه أوقع أحدهم على الأرض وكاد يقتله لولا إحاطة الرجال به وتصويب بندقهم عليه والكثرة تغلب الشجاعة، طردونا خارج البيت والزقاق كله وتوعّد واحد من أوباش المماليك الجراكسة إن تعرّض أبي للتجار الذين يدفعون له ليحميهم فسيقتله، لم يرغب أبي زرع النيل أن يرجع إلى نيالا ويعرف أهلنا بموت حمزة بعد خصائه، انكسرت نفسه وفضّل أن يقتلع جذره من أرض الفور فأكمل هجرته إلى القاهرة، كان يحكمها واحد عثماني اسمه بلطجي مصطفى وكان عمري وقتها إحدى عشرة أو اثنتي عشرة سنة، كبرت وزوّجني أبي بواحدة من بنات جلدتنا، دار النعيم ابنة الحداد الذي عمل عنده ورزقني الله بكافي.

- ربنا يحفظه ويطرح فيه البركة يا شيخ حيدر.

- ويبعد عنه وعن سر النهر وأخته زينة الوادي الشر، والله يا جماعة الخير، رباني أبي زرع النيل على القوة وألا أكون عبدًا لأحد،

طول عمري أنصح كافي ألا يذل نفسه أو يقع هو أو ابنه في ورطة مثلي ومثل عمه حمزة رحمه الله.

- وصاياك غالية يا عم حيدر، أستأذنكم.

غادرهم العربي الحلو وبقي الناجي ساهمًا يهز رأسه من حين لآخر، لم يستغرب حكايا جاره الجنوبي، فلطول مجالسته في الأسمار الفائتة كان يستمع لرواياته ووقعاته مع عسكر العثمانيين واشتراكه في قتال الفرنسيين بالحسينية ولا يزال من حين لآخر يزور زيد العجوز ويعوده في مرضه، بنظرات يملؤها الرجاء يطلب:

- انصحْ أخي حريص يا عم حيدر أن يبتعد عن المماليك.

- أقابله في الغد إن شاء المولى.

- وإن شاء المولى نجهز ما طلبه منا إسماعيل بك الضربخانة وإلا نستعد للضربخانة على أقفيتنا.

فاه بها الناجي وهو يفرد قامته ويتمطّع بملء ذراعيه، تهيأ للمغادرة وهو يحدّق في وجه سر النهر الساكت طوال الوقت ويناوشه:

- كيف حالك يا سرّي وحال الأزهر؟

- نحمده يا عم الناجي، السيد بن حريص من شهور لا يحضر.

- السيد بك ابن أخي البك حريص ترك حلقات الأزهر وانشغل بالتجارة مع أبيه ومرافقة أولاد الجراكسة، ربنا يصلح حالهم ولا أحسبه ينصلح بعد أن مرّغ أخي أصله في وحل المماليك، وابنه السيد انجرف مع عصبة من الأوباش والزعر واستقوى بهم.

صمت الناجي، هز رأسه وعيناه ترسلان نظرات الرجاء؛ حتى لا يمتنع حيدر من مرافقته ونصحه لأخيه، سار نحو باب سور البيت فأغلقه سر النهر ووقف يرقب جده حيدر وهو يخطو نحو غرفته، وأبوه يلملم المفرش الصوف، ولم تلبث أن خرجت زينة فحملت الأقداح الفارغة لتغسلها بالداخل، تنهد سر النهر في قوة وهو يتمتم:

- ربنا يشغلهم في تجارتهم ويهيئ لي رؤية كنانة، الله عليك يا كنانة وعلى جمالك، أحبك يا كنانة وأحب كل شيء فيك.

- سرّي، يا سرّي، تعال.

أشارت إليه زينة فتسارعت خطواته نحوها، ولأنه يدري أن شقيقته الغالية هي الوحيدة التي تعرف سره مع كنانة فتهيأ بدوره لأن يروي لها مغامرته المنقوصة في عصر اليوم.

-٢-

كعادته التي لم يغيرها منذ حياة طفولته المنصرمة بوديان نيالا يستيقظ مع اهتلال الفجر، ذبالة المسرجة تصارع قرب جفاف الزيت، من إناء فخاري يموّنها فتتوهج ومع هبوب تيار الهواء البارد من كوة بأعلى الجدار يتراقص ظلها فرحًا بنجاته من الأفول، بطرف عينه يلمح زينة الوادي تقرفص أمام الكانون وتغذيه بأعواد البوص، تركن عليه ماعون الماء، يعود لجلسته مريحًا ظهره إلى الجدار، يراوده عدم الرضا عن كافي لأنه يرفض الزواج بعد موت زوجته منذ سنوات، يحددها بالسنة التي أُصيبت فيها البلد بكرشةٍ عظيمةٍ وهاج الناس أيام خورشيد باشا وأعوانه السفهاء الطائشين، يبتسم لزينة شبيهة أمها ويترحّم على روحها التي فاضت من جسدها المجروح، لا تزال تراوده ذكرى ذلك اليوم في صيفٍ حارٍ كانت ميمونة زوجة كافي تسير وهي تحمل جرة الماء فوق رأسها فصدمها حصانان، غاصت حوافر الفرسين بجسم المسكينة، وصفهما شهود الوقعة بأن أحدهما من الدلاه[1] وتابعه كان أعورَ مشروم الشفة، حكى واحد من الصبية أن فرس الدلاتي أوقعها والآخر من خلفه داسها بحوافر حصانه، ترجل الفارس لحظات وحين تجمّع المارة أطلق من بندقيته

(1) الدلاه: فرق عسكرية أرسلها السلطان سليم الثالث لدعم خورشيد باشا في حكم مصر.

الرصاص ونخس بطن فرسه ومضى وتابعه يشهر سيفه في وجوههم، نقلوها إلى الدار لكنها بكّت الدماء من حلقومها، لا يزال يتصادم بين جنبات ذاكرته صوتها الواهن وهي توصي بزينة وسر النهر.

قالوا أنه من جنود خورشيد وآخرون أكدوا أن تابعه واحدٌ من بقايا مجرمي السفاح برطلمين عاد يمارس جرائمه وسط اهتياج الناس، وكالحرباء تشبّه بالجند الغرباء وراح ينهب ما تطوله يده، أشاح برأسه ونهض من قعدته، دلف الغرفة المعتمة، قدماه تتحسّسان الطريق نحو ركنٍ منزوٍ، مد يده وقبضت كفه على الكيس الطويل، اعتصرت أصابعه العجفاء ساق الحربة، رفعها أمام ضوء المسرجة، قرّبها من أنفه فاشتمّ منها عبق دماء قديمة، تلك الحربة هي أول ما صنعه أبوه زرع النيل عندما استقر بالمحروسة، حين كان في العشرين من عمره، طلب واحد من مماليك مراد بك من أبيه أن يحدَّ سيفًا وحين تناوله لم يعجبه ورفع الكرباج وهوى به عليه لكن زرع النيل تحاشى الصفعة فغضب المملوك وسبّ أهله وعيّره بسواد لونه ومضى، لم ينم ليلتها وظلّ يُدير الحجر ليسن النصل، لبد وسط إحدى الخرائب وحين أقبل المملوك مزهوًا واجهه ورمى الحربة فمرقت كلمح البصر لتنشب في صدر الجركسي المتغطرس ويهوي من على فرسه، خلّصها من بين ضلوعه وعاد إلى البيت.

لا تزال ذكرى تلك الليلة التي سلّم فيها أبوه زرع النيل الحربة إليه وأوصاه ألا يستخدمها في الشر بل يرفعها في وجه من يتجرأ عليه ويظلمه، وحين اشتدت الحمّى بأبيه ومن بين فواصل الإغماء كان يستفيق ويهاتفه في وهن:

- وجودك يا حيدر لم يقلعني من جذوري، لا يهم أعيش في نيالا وأموت بمصر أنت حياتي يا حيدر وحذار أن تذل لأحد.

كالحلقة في الأذن لم تفارقه وصية أبيه وعاش عمره كله لا يخدم أحدًا سوى صنعته التي مهرها، حاك للحربة كيسًا طويلًا من الكتّان ألبسه إياها فلم يخرجها إلا تلك الليلة التي فاضت فيها روح ميمونة زوجة كافي، ولأنه يعرف طوية ابنه الطيبة وبرودة قلبه واستسلامه للقدر، ظل يستقصي بنفسه من شهود عيان حادثة ميمونة ودلّه أحد الموتورين من خورشيد وجنده المتهورين على الدلاتي اللئيم فعرفه ولم يتعجّل الثأر فتذكر نصيحة أبيه زرع النيل: التدبير سبب النصر على خصمك، لا تتهوّر فتخسر.

انتهز فرصة هياج الناس وحصارهم القلعة، أبصره يعتلي صهوة جواده ويرفع أنفه المتغطرس ويدور حول السور وهو يتوسّط فارسين آخرين فتبعهم ومكر مكر الثعالب واقترب إلى أن دفع الحربة ولم يدع أزيزها لهم فرصة لمعرفة المهاجم فانغرزت سنها الرفيعة بقلب الدلاتي قاتل ميمونة ومن حوله حسبا الثوارَ المصريين سيفتكون بهما فتخليا عن رفيقهما وهربا، سار نحوه فجحظت عينا الجندي حين رآه يكز أسنانه البيضاء فسمع صريرها، سحب الحربة ومسح الدماء القانية من نصلها الحديدي المدبب وتركه تفترسه سكراتُ الموت.

- الماء ساخن يا جدي.

أفاقته كلمات زينة الوادي مختلطة بارتجاعات أصوات الأذان البعيدة فنهض في تثاقل وشفتاه تنثران كلمات عبثية مبهمة اعتادت سماعها، أعاد الحربة لجرابها الكتاني وركنها والقوس العتيق أعلاها، شمّر عن ساعديه وشرع يتوضأ، انهمكت زينة في إعداد الإفطار فقلبت البتاو على نيران الكانون الهادئة وصبّت العسل في الطبق الفخاري والآخر احتوى قطع الجبن القديم، على طاولة خشبية مستديرة حملت الطعام إلى جدها المتمتم بعد صلاة الفجر بالفواتح والصمدية والمعوذتين وأنهى ورده الصباحي بآية الكرسي والاستغفار والدعاء بالرحمة على الأموات والحفاظ على الأحياء، ركن السبحة العتيقة الموروثة من إحدى جدات أبيه زرع النيل التي رُوي عنها أنها ركبت البحر وحجّت وأتت بقفة مملوءة بالسبح أهدت كل واحد في القرية سبحة.

في تؤدة مدّ يده يتناول اللقيمات ويلوكها على مهل، رشف من سطل اللبن الساخن وغطّى بقية الطعام، برفق دعك أسنانه بسواك الأراك ونهض خارجًا من البيت يستنشق هواء الصباح الرائق، ظل ماثلًا أمام البراح الفسيح إلى أن انفتق النور من بين طيَّات العتمة فخطا نحو الدكان الملحق بالبيت، فتحه فتسلل ضوءٌ شحيح اهتدى عليه إلى كيس يربض جوار الكير، فتح رباطه وهزّ رأسه راضيًا عن امتلائه، أشعل بيت النار وظلّ يرفعه ويخفضه الهوينى حتى استعرت وطفق يكبش من الكيس ويغذيها بالفصى[1] الجاف فلم يشعر بدخول الناجي.

- أنت هنا بنفسك يا عم حيدر؟

(1) الفصى: نوى البلح.

- تستغرب يا ناجي؟ إنه عملي من ستين سنة.
- أخاف على عينيك وصدرك من وهج النار ورائحة الكير.
- ربنا لا يجعلني ممن وصفهم نبينا الكريم بنافخ الكير.
- بل أنت وكافي كحاملي المسك يا عم حيدر، والله أعتبرك كأبي رحمه الله ولم أر منكما إلا الخير وحُسن النصيحة والاعتداد بالنفس.
- الأخيرة هي ما لا تفرّط فيه يا ناجي؛ فلا بقاء لإنسان أهينت كرامته.
- وللأسف نعيش طول عمرنا تحكمنا زمرة من أوباش المماليك وأتراك لا عمل لهم غير ذلنا.
- فرجه قريب يا ناجي.

قالها العجوز وهو يقبض بكلابة كبيرة على طرف قطعة حديد احمرّت من شدة النيران، يثبتها على السندان وبالمطرقة الثقيلة يساوي حتى استوت قليلًا لتأخذ شكل خنجر فدفعها في جوف نصف زير مملوء بالماء، تصاعدت الأبخرة فأبعد حيدر وجهه وركن الحديد الساخن بعيدًا، بخرقة قماش مسح العرق عن وجهه، ناوله الناجي قلة الماء فمضمض فمه وبصق، على المصطبة المفروش عليها حِرام من الصوف جلس يجاوره الناجي، دبدبة آتية من البيت فلوى عنقه ليطالعه سر النهر يحمل بين يديه طاولة الإفطار خلفه أبوه فيلقي تحية الصباح.

- جهزت اليد الكبيرة والمسامير، باقي الحلقة، أطرقها بعد الإفطار ونذهب.
- أكمل سَن خنجر العربي الحلو.

- حاضر، بعد عودتنا إن شاء الله من باب العزب أجهّزه على أكمل وجه وأركّب له مقبضًا من الخشب.

- لا، من الحديد، طلب مقبضًا من الحديد وغمدًا من الحديد.

- تمام أفندم.

قالها وهو يقلّد الأتراك في طريقة حديثهم فحدّجه حيدر بنظرة أودع فيها كل معاني العتاب المخلوط بإنكار رد ابنه الباسم، ظلوا صامتين إلى أن أنهوا طعامهم فدخل كافي وسر النهر الدكان وبقي الناجي مع حيدر المتدثر بعباءة ثقيلة، رفع رأسه فجأة والتمعت عيناه.

- سر النهر، ولد يا سرّي.

لم يلبث أن وقف الفتى أمام جده فأشار إليه أن يحمل الأطباق شبه الفارغة ويعود بها إلى البيت ويطلب منه كوبًا من الحليب للناجي، قبل مغادرته طلب منه إحضار الحربة، ابتلع حيدر ريقه وهو ساكت فاحترم الناجي صمته إلى أن أقبل حفيده يحمل بين يديه الكيس الطويل ومدّه إلى جده، فتحه حيدر وسحب عودها الخشبي المتين، وتعمّد أن يعلو صوته:

- أدرْ الحجر يا كافي وسِنّ الحربة.

صمّ آذانهم صوتُ الحجر وهو يدور واحتكاك نصل الحربة به والشرر يتطاير من أسفل الباب، خرج بها سر النهر وناولها لجده.

- أشعر أني سأحتاجها قريبًا.

- فيه حرب يزمع الباشا أنه يجهز لها ولكنها بعيدة في نجد، السلطان محمود بن عبد الحميد طلب منه تسيير تجريدة إلى هناك لمحاربة الوهابيين.

- تجريدة، قلبك أبيض يا ناجي، التجريدة حارب بها شاهين بك وأشياعه والمماليك الألفية العام الماضي، الباشا جهز جيشًا لا حصر له على رأسه ابنه طوسون ليسافر الحجاز.

- طوسون أميرًا للجيش، تبقى حربًا كبيرة.

- السلام عليكم يا شيخ حيدر.

بدّد حوارهما وصولُ كهلٍ يمتطي جحشًا أعجفَ فدار به أمامهما قبل أن يشد لجامه ويوقفه.

- الشيخ عبـ...

- انزلْ من على مطيتك وكلمني يا زول.

باغته حيدر بالأمر فارتبك الكهل وابتلع ريقه، نزل من على فرو خروف يتخذه برذعة فكادت تقع من على ظهر الحمار الضئيل، يقبض على اللجام وارتعشت شفتاه وهو يعرفهم بنفسه:

- أنا حكيم الصغير أعمل عند الشيخ عبد الرحمن بن حسن.

- كاذب في نصف اسمك وصادق في نصفه الثاني.

ابتسم الناجي لتعليق الشيخ حيدر فمدّ الرجل رقبته وفغر فاه وهو يحملق مديرًا عينيه في بلاهة غير مدرك مغزى رد الحدّاد العجوز، بينما سر النهر يرقص قلبه فرحًا ويشتد إعجابه بحُسن كلام جده الذي يتحدّث كأنه واحد من أشياخ الأزهر، من الدكان خرج كافي والعرق يتفصّد على رقبته، بكم جلبابه يمسح وجهه فابتسم أبوه وهو يقدم الكهل له:

- أحمق السفيه يريدك.

- أبو خليل يريد المزلاج الذي طلبه منكم.

- فعلًا، طلب الشيخ عبد الرحمن الجبرتي مزلاجًا وأنا صنعته له من يومين.

- وحلقة ويد.

- كل شيء موجود، ننتهي من مهمتنا وبعد الظهر أركّب له ما يريد.

- ينتظرك في بيت الصنادقية بالأزهر.

قالها حكيم الصغير وهو يتصنّع عدم مبالاته بهم، يرفع وجهه ويديره عنهم، همّ أن يعتلي ركوبته لكن الجحش الملهوف نهق حين مرّت أمامه أتان ترفع ذيلها فخطى نحوها في مباغتة لم يتوقعها صاحبه فاعتلت ساقه الهواء ووقع مغبرًا المطرح، نهض ينفض ثوبه من التراب وهو يلعن ويسب واختلطت ضحكات حيدر وسر النهر وتعليقات الناجي وكافي، بجريدة غليظة طفق خادم الجبرتي يضرب مؤخرة حماره ويؤدبه على إحراجه إياه، عدل من وضع البرذعة المغبرة وركبه، نهق الحمار أسفًا على فراق خليلته وضربات الجريدة على رقبته قوّمت سيره فابتعد تودعه قهقهة الناجي التي استمرت حتى بعد أن توقف كافي وأبوه وسر النهر المبتسم وهو يحيط وجه جده بنظرات الإعجاب.

- كل حاجة جاهزة.

- ضعها بالصندوق ولا تنس المسامير وأحضر معهم لوازم باب الشيخ عبد الرحمن حتى لا نغضب خادمه الأحمق الصغير.

تارة أخرى يضحك الناجي ملء فمه وهو يهز رأسه ويتحسّس كيس عدة النجارة، وقف متهيئًا لمرافقتهم.

- يا ولد يا سرّي، أحضر البغلة.

غاب قليلًا وأقبل يجر البغلة المطواعة من لجامها، على ظهرها ثبتوا عُددهم، ضمّ كافي ضلفتي باب الدكان وأشار إلى زينة أن تغلق باب البيت، تناول من ابنه اللجام وسر النهر يدعو ربه ألا تطول مهمتهم حتى يتمكّن من خوض غمار مغامرة أخرى لمقابلة كنانة، وانطلقوا جميعًا نحو باب العزب.

-٣-

في المهام التي يراها كبيرة يتجشّم حيدر عناء مرافقة كافي، حيث يوجهه إلى مداواة ثغرات في صنعته قد لا ينتبه إليها، ظلوا سائرين إلى أن ودّعهم مسجد السلطان حسن، قطعوا الرميلة مقتربين من سور القلعة، وقفوا أمام الباب الموارب وسر النهر يحملق في الألواح المستقيمة، وقفوا صامتين وإسماعيل بك الضربخانة يواجههم وهو يرفع أنفه بعنجهية ولم يلبث أن فارقهم فالتفتوا لصهيل خيولٍ دكّت حوافرها صخور الممر الحجري الطويل، ضيّق حيدر عينيه ومال برأسه نحو الناجي.

– أعتقدُ أنه طاهر باشا قائد الألبان.

– ومن يجاوره الكتخدا محمد بك لاظ أوغلي، ومن خلفهم جند من الأرناؤود.

لم يمكث إسماعيل بك سوى دقائق بعدها أدار الفرسان ألجمة خيولهم وفارقوا الممر، أشار إسماعيل أن يبدأوا في العمل ففرد كل منهم عُدده وانتظر كافي لحين انتهاء الناجي من تثبيت بعض الألواح، رفع المطرقة وشرع يدق المسامير وسر النهر يتأمل الباب الكبير وشبهه ببابي زويلة والفتوح.

– بناه الأمير رضوان كتخدا الجلفي قائد الجنود العزب منذ أكثر من ستين سنة، حكى لي أبي أنه عمل مع غيره في نجارته.

تحاور الناجي وهو منهمك في تجهيز ألواح قصيرة لوضعها بالأسفل ورصّ المسامير الحديدية الكبيرة، رفع المطرقة وثبت أحد المسامير، شرع يدق ويدق وسر النهر يرفع عينيه ليتأمل واجهته المستديرة وبرجيه المستطيلين أعلى كل منهما غرفة بينهما سقاطة فَهِم أنها كانت تستخدم لإلقاء الزيوت المغلية على الأعداء إن حاول أي منهم اقتحامه، التفت حيدر فرأى الدهشة مرتسمة على قسمات حفيده الغضّة فأحبّ أن يعرّفه أكثر بصاحب الباب:

– الأمير رضوان كتخدا كان متزوجًا من بدوية شاهين أم رقية دودو صاحبة السبيل المشهور باسمها ومات مقتولًا على يد خصومه من المماليك الجركس.

ندّت عن سر النهر آهة مألومة لمصير الأمير الذي يقف أمام بابه، ظلّ ساكتًا يرقب الناجي وهو ينزع لوحًا قديمًا ويستبدل به آخر فيقوّي جانب الباب حتى أنهى عمله وجاء الدور على أبيه فرفع الذراع الحديدية الكبيرة، في سرعة أشار إسماعيل بك الذي كان يقعد على كرسي من الخيزران قريبًا منهم وخادمه من حين لآخر يصب له القهوة، نحّى خرطوم النارجيلة بعيدًا ونفث الدخان من منخريه، خطا نحوهم، رفع إصبعه الغليظ إلى الواجهة الخارجية للباب.

– الذراع الحديدية تركب هنا.

– لكن المعهود يا بك أن الحلقة والذراع يتم تركيبهما من الداخل.

برقت عينا إسماعيل بك الضربخانة وصوّب إلى حيدر نظرات الاعتراض المسيّجة بتكبره الأناضولي العتيد.

– اعتراض يوك، قلت يُركّب هنا حضرة حدّاد.

- يركب هنا حضرة إسماعيل بك.

قالها كافي وهو يومئ أنه ينفذ الأمر دون مهاترة؛ أطبق حيدر شفتيه وأشار إلى ابنه أن يبدأ، فمن طول ممارسته لعمله يدري بخبرته أن الأمر بذلك ليس من رأي إسماعيل بك، وإنما هو بدوره مأمورٌ به ولن يسمح بغير ترضية رؤسائه ممن تحاور معهم منذ قليل وهم على جيادهم، تعاون الناجي مع صديقه في تثبيت اليد الضخمة وسر النهر يناول أباه مسمارًا طويلًا، لكن حيدر يشير إليه أن يرفع اليد إلى قُرب منتصف الباب أي أعلى رءوسهم بقليل فنفذ كافي أمر أبيه ومن خلفهم يهمهم إسماعيل بك بكلمات الاستحسان لرأي العجوز، أنهى كافي دق ستة مسامير فثبتت الذراع الحديدية في الباب وجاء الدور على الحلقة في الدرفة المقابلة، رفع الناجي الذراع وحدّد كافي مكان الحلقة وتارة أخرى يتدخل حيدر فيؤخر مكان الحلقة قيد عقلة إصبع؛ حتى لا تتراخى الذراع بعد أن تدخل فيها، يغمغم إسماعيل بك ويسمعهم كلمات: عفارم، عجوز بارع، إهمال يوك، ففهم سر النهر أن البك يستحسن صنعتهم فازداد إعجابًا برأي جده وخبرته، أنهى كافي عمله وجرّب وضع الذراع المعقوفة بالحلقة، يتناهى لمسامعهم تراكض فرس ولم يلبث أن وقف الكتخدا لاظ أوغلي بمفرده هذه المرة أطال التحديق في الباب، هزّ رأسه للبك المشرف على عملية الإصلاح ورفع سبابته أمامهم وهو يطبق فمه.

- لا أحد منكم يخبر إنسانًا أيًا كان بأنكم أصلحتم هذا الباب.

نطق إسماعيل بك الضربخانة بما لم يكلف الكتخدا نفسه بالتفوّه به، أدار مقود فرسه الهماليج[1] وصعد المدق الحجري حتى توارى بالقلعة، من زناره يسحب إسماعيل بك كيسًا ويلقيه في وجه حيدر الذي رفض أن يتلقاه بهذه الطريقة، فوقع الكيس وانفلت رباطه الرفيع، انتثرت البارات[2] على الأرض فلم يبال إسماعيل بك وعاد إلى كرسيه ومنضدته، وضع ساقًا على ساق ورفع خرطوم النارجيلة، ليتسأنف الالتذاذ بتدخين التنباك وهو ينتظر مغادرتهم، لم يضيّع كافي الوقت وانحنى يلملم البارات، قبض كافي على ذراع حيدر، قاده بعيدًا والعجوز يصوّب نظرات التحدّي للبك المتشاغل في سحبِ نفسٍ عميقٍ، عينا سر النهر تطقان غيظًا من فعلة البك المتعجرف ذي الكرش النافرة، ومن حين لآخر تنفلت رياحه الغليظة دون أدنى ذوق أو خجل ممن حوله، فيود لو بيده حربة جده فيغرزها فيطفئ بها بريق عينيه.

تشاغل في لملمة العدة وحملها على ظهر البغلة المستكينة، تراجعوا مبتعدين عن الباب حتى ميدان الرميلة فقطع طريقهم وصول الشيخ المهيب ووقوفه أمامهم بهندامه المميز فهتف سر النهر:

- الشيخ عبد الرحمن.
- اليوم سنقضي لك مصلحتك يا شيخنا.

قالها كافي وهو يتأمّل الجبرتي بلحيته السارحة وعباءته تضفي عليه وقارًا فهزّ الشيخ رأسه وهو يؤكد في صوت رقيق:

---

(1) الهماليج: خيول تركية وأعجمية وتسمى أيضًا الأكاديش.

(2) البارة: عملة عثمانية وكل 40 بارة تساوي قرشًا وأبطل التعامل بها عام 1832م.

- اسبقوني إلى البيت بناحية الأزهر، ستجدون من ينتظركم، سأصلي الظهر في مسجد السلطان حسن وأتبعكم.

في أدبٍ أومأ حيدر وأفسح كافي والناجي الطريق فتجاوزهم الشيخ عبد الرحمن في خطوات هادئة رزينة، تباعًا استدار أربعتهم يتقدّمهم حيدر متجاوزين الرميلة، التفت سر النهر مودعًا الباب الكبير ثم اعتدل في سيره وتحيّن فرصة سكوتهم ليستفسر عن شيء ظل يراوده:

- الشيخ عبد الرحمن حسن وشهرته الجبرتي، هل لأنه متواضع ويجبر خاطر كل من يتعامل معهم؟

- آه يا أبله، يا جاهل يا ابن الجاهل، يجيب عن سؤالك عمك الناجي.

- لا يُفتى وحيدر في المدينة، والله ما قابلت إنسانًا يدري أصول الناس وحياتهم مثل جدك حيدر.

- رغم أني غريب عنكم يا ناجي.

- ما غريب إلا الشيطان يا عم حيدر، أنت كأبي وجيرتك أتشرّف بها وأقسم أني ما سمعتك تكذب في حياتك.

ضيّق حيدر عينيه وانفرجت شفتاه عن ابتسامة خفيفة، رغم انتصاف النهار وشروق الشمس الذي أضفى على الدنيا الدفء لحظ قلة المارة، وقف هنيهة فترجل تابعوه ثم استأنف السير وهو يقرّب حفيده منه.

– هو عبد الرحمن بن حسن برهان الدين، سمعته مرة في الأزهر وأنا أصلح حديد النوافذ بعد ذهاب الفرنسيس يتكلم مع تلاميذه فقال لهم أنه وُلد هنا بالقاهرة لكن أصوله من جبرت بالجنوب.

– جنوب نيالا؟

– نعم، جبرت بأرض الحبشة، هاجر واحد من أجداد أبيه إلى مصر واستقر بالقاهرة وأعرف أن أباه من علماء الأزهر ودرّس في المدرسة السنانية بجامع سنان باشا وعمل بالتجارة وله بيوت غير بيت الصنادقية بالأزهر.

– صح يا عم حيدر، زمان ركبت له مشربية في بيت له ببولاق.

– وبرغم أن والده الشيخ حسن مزواج لم يعش له غير عبد الرحمن، فزوّجه وهو صغير لم يكمل الخامسة عشرة من عمره.

– يا سلام على الناس وحبها لأولادها، شد حيلك معي يا أبي.

ضحك الناجي لتعليق سر النهر الذي مال بكتفه اتقاء ضربة كف أبيه، في حين ابتسم حيدر وربّت على كتف حفيده.

– أزوجك يا سرّي، الشيخ عبد الرحمن تزوّج أصغر منك.

برقت عيناه وتخيل نفسه متزوجًا من كنانة، يستمع لحلقات الأزهر ويعمل مع أبيه وينجب أولادًا يعمرون البيت، أطلّ وجه أبيها حريص بك فبدّد سُحُب أحلامه، لا يدري لِمَ تمنّى ألا يوجد حريص المتكبر والمتشبه بالمماليك، اتسعت حلقة أمنيته أن يموت أو يهاجر ولا يعود، عمها الناجي يحبهم ولن يبخل ببنت أخيه عليه.

– ورث عبد الرحمن من أبيه مالًا وبساتينَ كفلت له حياة ما بعدها حياة.

التفت سر النهر لجده الذي بدا عليه إجهاد السير وتارة أخرى سرح بخياله في كنانة، مقارنًا بين قصرها العالي بحديقته وأشجاره وأثاثه الوثير وبين بيتهم المتواضع بمناضده وأسرّته وأشيائه الشحيحة، غير الدكان والعدد وأسياخ الحديد وخزانة الأخشاب وزكائب الفصى التي تموّن الكير، خفق قلبه حين تذكر أنها لامست بأصابعها البيضاء الناعمة حرقًا خفيفًا بظهر يده وأيقن أن فتاته تتقبّله كما هو، فهي بتواضعها تجري في عروقها دماء عمها الناجي، بينما تشبه بقوامها الممشوق أباها حريص بك المنسلخ عن أصله.

لا يزال يتذكر وجهه اللحيم ولغده النازل عصر اليوم الذي رآه فيه لأول مرة العام الفائت في مولد إسماعيل الإمبابي يتربّع بين أقرانه تحت سقيفة يدخن النارجيلة وكنانة تتجوّل بأرض المولد، تحيّن انشغال مربيتها عنها وأهداها ساقية خشبية صغيرة فرحت بها أيما فرح وحين عبرت نحو خادمتها بين الجموع الرائحة والغادية اختطف واحد من الزُعار عقدها وجرح رقبتها، فواجهه وانتزع منه العقد لكن اللص اللعين أصاب يده بسكين كي يتخلص منه وهرب، في سرعة رجعت إليها الجارية واستغاثت بأبيها فأقبل مهرولًا وسلاحه مشهرًا أطلق رصاصة فتفرقت اللمة الصغيرة وبدلًا من جزل الشكر له رماه بنظرات فظة حاقدة وكارهة للونه الأسود، اصطحبها بعيدًا وهي تغمره بنظرات الامتنان وعيناها مغرورقتان بدموع الوفاء، حقد على أبيها المتغطرس بينما شكره عمها الناجي الحنون وطيّب خاطره، أمعن التفكير في القدر الذي جعل كنانة ابنة حريص الجشع الناكر لأهله، وأخاها السيد ولدًا فاسدًا لا يعرف من دنياه غير مصاحبة أبناء المماليك ولمة أسافل الناس ومشهور عنه عشقه لتدخين حشائش

تغيّب تفكيره وتسلية وقته في مشاهدة مناقرة الديوك وخسارة ماله في قعدات المياسر، بينما الناجي لم ينجب بعد، فلو كنانة ابنة الناجي لكانت الآن من نصيبه أو على الأقل خطبها له أبوه وجده والناجي المتواضع ذو الروح الوادعة لن يبخل بها عليه.

- وصلنا.

كسيف قاطع بترت كلمة الجد حيدر ذهاب تفكيره بعيدًا عنهم فوقف جوارهم أمام الباب الكبير لبيت الشيخ عبد الرحمن، انبسطت نفسه لقرب إنهاء عملهم وعودة أبيه وجده والناجي للدكان وانفصاله عنهم إلى الأزهر وبعدها تأتي نوبة مغامرته التي لا يتوانى عن خوضها لرؤية كنانة.

استقبلهم واحد من عاملي الدار، أشار إلى باب البيت ففهم كافي مقصده، في سرعة أخرج الأجنة والقدوم الصغير وأصلح مكان المزلاج وثبته، دقّ المسامير وجرّبه أمام الخادم، أنهوا تركيب المزلاج فقادهم الرجل القصير عبر مجاز طويل على جانبيه غرفتان، وسر النهر يبحث عن حكيم الصغير أو السفيه كما أسماه جده.

- يعمل هنا حكيم الصغير؟

أدهشهم سؤال الناجي ودون أن يلتفت الخادم أجابه وهو يقودهم إلى نهاية المجاز وبعدها ردهة مربعة:

- حكيم ذهب إلى بيت الشيخ ببولاق.

- سلامي له، قل له عمك حيدر يقرئك السلام أنت وجحشك النبيه.

عجز الناجي عن كتمان ضحكته وبادله كافي، بينما تمنّى سر النهر أن ينهوا عملهم سريعًا، فتح الخادم بابًا كبيرًا فاتسعت عيناه

ودارت نظراته تمسح أركان المكتبة الضخمة ورفوف الكتب المتراصة واللفائف فوق بعضها ودهش للمنضدة الكبيرة خلفها كرسي وتلك الأوراق الكثيرة المكوّمة وحُق يحوي ريشًا وأعوادًا مدببة تجاورهم عيون ملأى بالحبر فأيقن أنه يقف وسط عرين الجبرتي الذي طالما أخبره أقرانه من نجباء الأزهر أن الشيخ عبد الرحمن منذ سنوات بعيدة وهو مشغولٌ بتدوين سير القدماء بكراريسَ كثيرة.

تارة أخرى أشار الخادم إلى باب المكتبة فشرع أبوه في تركيب المزلاج به في سرعة ومهارة مشهور بهما ووقفوا جميعًا فأقبلت عليهم جارية بأقداح من منقوع البلح الحلو وسر النهر يستطيب وجوده وسط أكداس القراطيس المطوية بعناية وينتشي برائحة المداد التي تعبق المطرح.

- السلام عليكم.

وكأن الصوت نابع من بئر عميقة ألقى عليهم الشيخ عبد الرحمن تحيته فرد عليه الجد حيدر، استحسن الشيخ مزلاج خزانة الكتب الحديدي ونقدهم أجرهم وزاد عليه مجزلًا لهم العطاء كعادته مع كل من يقدّم له خدمة، ركن عصاته، ربّت على كتف سر النهر وهو يميل بوجهه نحو جده.

- حفيدك يا حيدر؟

- سر النهر بن كافي يا شيخنا.

- سر النهر؟! يا له من اسم أعجبني، النيل يحمل لنا طول السنة أسراره وأنت واحد منها، ربنا يكرمك إن شاء الله، حداد؟

- ويتردد على الأزهر.

- جميل، تتقن القراءة؟

- والكتابة يا مولانا.

هذه المرة تجرأ الفتى فأجاب معتدًا بخطه المتناسق الذي يفاخر به بين رفقائه بحلقات الدروس، لحظ لفّة من قماش حول رسغ الشيخ وهو يحركها ببطء وحذر، التفت الجبرتي إلى حيدر.

- محتاج الولد أمليه بعض الأخبار ليكتبها؛ فيدي مصابة كما ترى وعجزت عن الكتابة.

- خادمك يا شيخنا الجليل.

في حدة التفت حيدر إلى كافي ورماه بنظرة أودع فيها ما أودع من عتاب على الرد الذي لم تقبله نفسه، عالج الموقف بإيماءة من رأسه وهو يربّت بدوره على كتف حفيده.

- كافي يقصد أنه لشرف لنا أن يلازمك سر النهر وينهل من علمك.

انفرجت أساريرُ الجبرتي ورفع حاجبه، تأرجحت عينا كافي بين الشيخ عبد الرحمن وأبيه ونظراته لا تزال تقطر الأسى فأطرق رأسه وكأنه ندم على عبارته الأخيرة، تنحنح الناجي منهيًا وجودهم بعد إتمام تركيب القفول والمزاليج فاستأذن حيدر واستدار نحو مجاز الخروج من البيت يتبعه الناجي يجاور كافي، أما سر النهر ففرح بوجوده لأول مرة في مكتبة الشيخ الجبرتي التي سمع عنها الأساطير وتملّكه شعور جارف بأنه مقبلٌ على عمل كبير سيحسده عليه رفاقه من مجاوري الأزهر، أما لقاؤه بكنانة فعزَّى نفسه عن تأجيله بأن ما فيه الآن الفرصة التي لن تعوض.

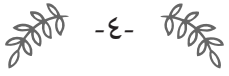

- اقرأ المكتوب أول الورقة يا سر النهر.
- ممكن تناديني بسرّي.
- سر النهر أجمل، اقرأ.

«واستهلت سنة ست وعشرون ومائتان وألف، فكان أول المحرم السبت، فيه أظهر الباشا الاهتمام بأمر الحجاز والتجهيز للسفر وركب في ليلة الجمعة سابعه إلى السويس و...»*.

- كفى، فقد أصيبت يدي بعد أن دوّنت هذا الخبر، اكتبْ...

قاطع خلوتهم دخول صبية مليحة الوجه على سمارها الفخاري الصافي، تحمل بين يديها طاولة شراب الشعير المخلوط بالعسل، ثبتت عينيها الواسعتين نحو ضيف سيدها ندت عنها ابتسامة خاطفة فاضطرب القلم بين أصابعه، أشار الشيخ عبد الرحمن بيده إليها وهو يتعجّل.

- ضعيها هنا وانصرفي لإعداد القهوة.

أومأت الفتاة واستدارت في هدوء وحين همّت بمغادرة الغرفة التفتت في حدة مختلسة نظرة سريعة لسر النهر الجالس أمام الأوراق فخفق قلبه في شدة للجارية التي تتعمّد لفت نظره إليها، كشمس ساطعة بزغ وجه كنانة فعاد إلى ثباته وانتظر فما كان من الشيخ إلا

أن صمت مليًا وبإصبعه طفق يحك ذقنه، تنثر شفتاه كلمات وعبارات ففهم سر النهر أن الشيخ يراجع ما دوّنه من قبل.

– لا، لا، هذه كتبتها بنفسي، خبر النار الكامنة في جوف الأتربة بالتلول القريبة من باب الوزير، كتبتها في الأوراق السابقة وأيضًا دوّنت من مات في هذه السنة ممن لهم ذكر، وأيضًا اهتمام الباشا بأمر الحجاز والتجهيز له، اكتب يا سر النهر في المنتصف:

واستهلّ شهر صفر الخير بيوم الأحد سنة 1226..

«في ثانيه يوم الاثنين حضر الباشا من السويس إلى مصر في سادس ساعة من الليل، فضربوا في صبحها عدة مدافع لحضوره...»*.

– إنه الأمس يا شيخ.

– نعم، اشربْ فشراب الشعير ابترد قليلًا ثم نكمل.

– دقيق أنت يا مولانا.

– دأبي وديدني منذ شرعت في الكتابة، فلا أكتب خبرًا أو حادثة حتى أتحقّق من صحتها بالتواتر والاشتهار، وربما أخّرت قيد حادثة حتى أثبتها، وقد أكتب الكثير من الحوادث والوقعات والتي تلزمني أيامًا أنقطع خلالها لتهذيب تلك الكراريس وقد يحدث مثل اليوم أدوّن خبرًا واحدًا فلا أستطيع لألم يدي وأستعين بواحد من النجباء.

برقت عينا سر النهر وشعر بأهمية نفسه وامتلاء ذاته بالقوة لوصف الشيخ عبد الرحمن له فرغب بصدق في ملازمته والكتابة؛ يكفيه ابتعاده عن الحديد وإراحة أذنه من طرق السندان ليل نهار ويرحم وجهه من شرر الأكيار المتطاير كلما نفخ النار، أتاه وجه جده

حيدر الطيب فشعر بحنين جارف إليه وتبدّل وده من المكوث ببيت الشيخ عبد الرحمن إلى رغبة جامحة في العودة إلى جده وأبيه وأخته زينة الوادي، رغم أنه لم يمض على وجوده في بيت الشيخ سوى ساعة تمنّى حقيقة أن ينهي الشيخ الإملاء وقبل عودته ينعطف نحو بيت كنانة مكتفيًا بإلقاء نظرة على مشربية غرفتها لا مقابلتها.

همّ أن يقول شيئًا لكنه التفت إلى الدبيب المنتظم لخطوات الجارية والطاولة الصغيرة بين أصابعها تفوح من أكوابها رائحة القهوة، هذه المرة قدّمت له الكوب وامتدت أصابعها فلامست ظهر يده، استعرت داخله نيران الفضول لمعرفة اسمها وهمّ أن يسألها فكفاه أبو خليل الحرج.

- ناوليني الكوب يا مقبلة.

نحو سيدها خطت فأشار لها أن تركن الكوب على منضدة ملاصقة لرفوف الكتب واستدار ليطالع الطومار[1] ولم يلبث أن لف الورقة العريضة وربطها بخيط كتاني رفيع وركنها ليسحب الأخرى، فعادت مقبلة إلى حيث يجلس سر النهر متصنعة لملمة أقداح الشعير الفارغة وانتهزت فرصة انشغال الشيخ بالمطالعة وهو يوليهما ظهره ولاعبت أصابعها وقبّلت اثنين معًا دون أن يفهم منها ما تريد، ابتلع ريقه، تنحنح الشيخ في وقفته فلم ترتبك وانتصبت قامتها في هدوء، ابتعدت قيد خطوات ولا تزال نظراتها تتشابك بعيني سر النهر، أكمل الشيخ التفاته بعد أن ركن اللفافة فغادرتهما ومن حين لآخر

(1) الطومار: الأوراق الكبيرة.

تلتفت غير مبالية بسيدها، بصوت مسموع رشف الجبرتي من كوب قهوته فقلده الفتى وهو يضمر في نفسه إخباره بدلال جاريته عليه، ركن الشيخ كوبه وهزّ رأسه وهو يتباسط في الحوار:

- رغم أنها خرساء هي ذكية وبارعة في الكثير من الأعمال.

بُهت لسماعه موطن عجز الفتاة وأيقن في قرارة نفسه أنها تفعل ما تفعل لحرمانها، وتريد جذبه إليها فأسف على عاهتها وزاد ميله لها، لكنه تراجع عما جاش في نفسه من عطف لئلا تفهم حنانه عليها خطأ وتبدر منها سقطات تغير نظرة الشيخ الجليل له وتضر نفسها فقد يتخلص منها أو يأمر أحد أتباعه ببيعها، تطوّح تفكيره أن الفتاة قد تكون ميّالة إلى أي غريب عن بيت الشيخ، وتأكد في نفسه ذلك الهاجس لكونه أول مرة تراه فأقبلت عليه دون خجل.

- ما رأيك في القهوة؟

- مقبولة، أقصد جميلة.

- استولى الباشا على البن الذي وجده ببندر السويس فغلا سعره وزاد حتى وصل إلى خمسين ريالًا فرنسة بعد أن كان بستة وثلاثين.

- أبي يحب القهوة لكن جدي يمقتها، يقول إنها تغيّر من عادته فتجعله لا ينام في موعده و...

بتر عبارته دخول الخادم القصير وأخبر الشيخ أن اثنين من مجاوري الأزهر يريدان مقابلته، هنيهة ودخل شابان الغرفة.

- السلام والرحمة على شيخنا الجليل، جئنا في موعدنا.

- نعم جئتما في موعد الغداء، أعرفكما بسر النهر بن كافي الحداد وكتب لي تلك الورقة وسيكمل إلى أن تشفى يدي.

دون سبب ضحكا وجلسا القرفصاء على الأرض، بعد أن سلما على سر النهر الذي رأى نفسه أصغر منهما.

- حمّاد والريفي يا سر النهر.
- مرحبًا.
- اسمي مسرور، مسرور بن أحمد الريفي، عائلتنا اسمها عائلة الريفي ولكن لا يوجد بها مالك أرض ولا حتى مزارع والحمد لله، جميعهم من الفخارين صناع القلل والبلاليص والأباريق ومواجير الخبيز.

تارة أخرى تبادلا الضحكات والمداعبات والشيخ الجبرتي يهز رأسه متعجبًا من طريقة تلميذه المهذار في الرد الساخر.

- بدلًا من إضاعة الوقت في الترحيب نتناول الغداء.
- الغداء؟ يجب أن أعود يا شيخنا.
- لن تخرج قبل أن تجبر الزاد يا ولد.
- ولو أردتَ أن تستأذن فذلك هو الخير، فنصيبك من اللحم مآله لي، وأكون اسمًا على مسمى، مسرور باللحم الزائد، هذا سر بيننا يا سر النهر.

تبادلوا الابتسام لدعابة مسرور الريفي، من فوره نهض سر النهر نحو الباب متجهًا إلى الكنيف في أقصى يمين الطرقة؛ يريح نفسه من بوله المحصور منذ بقائه بمكتبة الشيخ، ما إن خرج حتى وجدها توليه

ظهرها بالمطبخ المقابل وتغرف الملوخية في الأطباق، شعرت بخطواته فالتفتت، رفعت حاجبها وزيّنت الابتسامة وجهها الطفولي، كهديل الحمام غمغمت وكأنها تستغرب مجيئه.

- أحمل معك الطعام.

هزّت رأسها موافقة ونظراتها تأكله من شعره إلى أخمص قدميه، أشارت له أن يحمل طبقًا كبيرًا مضفورًا من زعف النخيل، مناداة الشيخ تعلو باستعجال الطعام، رصت الأرغفة الساخنة وأطباق اللحم والملوخية، تقدمها وهي خلفه بقلة الماء الكبيرة، دلف المكتبة وركن الطاولة على الطبلية المستديرة.

- عذرًا يا سر النهر، قديمًا قالوا: ليس من المروءة أن يستخدم الرجل ضيفه.

أفاقته كلمات الشيخ وهو ساهمٌ ساكتٌ محجمٌ عن تناول الطعام، بينما حمّاد ومسرور لم ينتظرا حتى قعود الشيخ بينهما فتناولت أصابعهما هبر اللحم وطفقا يأكلان في شراهة، تناول الشيخ قطعة كبيرة ووضعها وسط رغيف طري، قدمه لسر النهر وهو يؤكد:

- إن لم تدرك نفسك حرمت جوفك من اللحم.

- وإن لم تدرك نفسك يا عم النهر أشبعت جوفنا بنصيبك الزاهد فيه.

- اسمي سر النهر.

- لا تغضب فتغرقنا بين أمواجك، على كلٍ من ضفتيك نحمل فصوص الطين لزوم صنعتنا.

لم يبادلهما سر النهر الهذار وفي جسارة قضم هبر اللحم، ظل يأكل في صمت وضيفا الشيخ يتمازحان إلى أن فرغت الصحون فأشار إلى شيخه أنه سيلملمها ويحملها إلى المطبخ بنفسه، سار محاذرًا أن ينزلق أحد الأطباق فينكسر، ركن الطاولة وتلفت فلم يجد مقبلة، همّ أن يناديها لكن صوت الشيخ الآمر بالقهوة دفعه لأن يعود إلى مجلسهم بالمكتبة ويترقّب بين الفينة والأخرى أن تدخل عليهم، لم ينتظر الشابان واستأذنا من شيخهما على وعد باللقاء في الجامع الأزهر.

- حالًا تحضر القهوة.

تمنّى أن تعكس الجارية اسمها فتكون مدبرة لا مقبلة ولا تأتي ويستأذن بدوره ويعود إلى البيت، لكن خيّب الخادم القصير رجاءه فدخل يحمل بين يديه إبريقًا وأكوابًا فارغة، صبّ السائل الغامق فانتشى لرائحته النفاذة التي محت رغبته في مغادرة مكتبة الشيخ، استغرب عدم مجيء مقبلة وهمّ أن يسأل عنها لكنه أراد ألا يضيع الوقت في غير محادثة الجبرتي.

- كما سمعت عنك يا شيخنا، كريم ومضياف.

- تقصد إطعام الريفي وحمّاد، أنت لم تر كم يحضر للغداء معي يوم الجمعة، وعلى كلٍ فإنهم يتناولونه معي ويعود كل منهم إلى رواقه بالأزهر.

- زادك الله يا شيخنا.

- وي، وي، ما أفعل هو القليل من كثير كان أبي رحمه الله يفعله، قديمًا إذا أتاه طالبُ علمٍ أكرمه ودعاه للإقامة عنده وصار من جملة

عياله، ومنهم من بقي عشرين سنة قيامًا ونيامًا لا يتكلف من أمر معاشه حتى غسيل ثيابه دون ضجر.

- رحمه الله، عملُ الخير باقٍ فيك وفي ذريتك يا شيخ.

- الحمد لله، الآن عدْ إلى البيت حتى لا يقلق أبوك وجدك عليك.

- وكتابة بقية الأخبار؟ فلم تملِ سوى سطرين.

- فيما بعد، وربما تشفى يدي فأكتب بنفسي، قرّرت أن أستريح الأيام القادمة في البيت فلا أبرحه وأوصيك كما أوصيتُ بعضًا من شباب المجاورين، إذا عرفت خبرًا أو تحققت من واقعةٍ أقبلْ ولا تتلبثْ وأخبرنيه.

- أمرك يا شيخنا.

- ضع هذه الأوراق في الرف العلوي.

ما إن ركن سر النهر الأوراق أعلى الرف حتى قرن حاجبيه للمزولة الخشبية المركونة والتراب يخفي لونها، مدّ يده فمسحت أصابعه لوح الخشب وتحركت فخشي أن تنفلت من بين أصابعه وتسقط فتتكسر، ثبتها وهمّ أن يتراجع.

- تعجبك يا سر النهر؟ لولا أنها هدية من إنسانٍ عزيز عليّ لأعطيتها لك، ربنا يرجعه بالسلامة.

- صاحبك هو من صنعها؟

- آه، الشيخ حسن العطار، رغم أنه أصغر مني بأكثر من اثنتي عشرة سنة لكنه صديقي وواحد من تلاميذ أبي النجباء.

– سمعت عنه من عمي العربي الحلو وهو تاجر مغربي من معارف جدي.

– الشيخ حسن العطار أصوله مغربية وعمل مع أبيه في تجارة العطارة وحين رأى أبوه حبه للعلم ألحقه بالأزهر وتتلمذ على أيدي الكثيرين من الأشياخ منهم: الشيخ محمد مرتضى الزبيدي.

– الشيخ الزبيدي صاحب تاج العروس في شرح القاموس؟

– هو يا سر النهر، كما أخذ العلم من الشيخ محمد الأمير ومحمد الصبان وأحمد السجاعي والشيخ البيلي وغيرهم.

– الله، وأين هو يا شيخنا؟

– آخر ما عرفت عنه أنه هجر شكودرة ببلاد الأرناؤود بعد أن تزوج منها ورحل إلى الشام.

سكت الشيخ الجبرتي وكأنه أراد أن ينهي حواره الطويل مما أصاب سر النهر ببتر نزوة الفضول التي استولت على نفسه التواقة لمعرفة المزيد عن الشيخ حسن العطار، لكنه احترم صمت شيخه وأقنع نفسه بأنه سيعرف المزيد عنه في الزيارات القادمة، بروية فتح الجبرتي طاقة بالجدار، أصابعه تقبض على كيس صغير، قدّمه لسر النهر وهو يومئ برأسه فتناوله منه وأنفه يلتقط رائحة البُن الفجّة، خرج من المكتبة، دارت عيناه تستطلع المطبخ وأطلّ برأسه فضاق من خوائه الكابي، تجرأ وأزاح باب غرفة مواربًا فكانت خزانة غلال تجاور المطبخ، مضى في طريقه نحو المجاز إلى باب البيت الكبير ولم تكف عيناه عن استراق النظر بحثًا عن مقبلة التي أدبرت ولم تعد.

-٥-

- أمرت ابنك أن يصنع لي ترباسًا لباب إسطبلي وقصّر.
- بل فعل وعندما يعود كافي يركبه لك في الحال.

في حزم ردّ حيدر وهو يجلس على طرف المصطبة أمام الدكان فدار الفارس بحصانه أمام عينيه مغبرًا المطرح ومن حين لآخر يمسح بيده الفراء الذي يلفه حول رقبته، في تعالٍ فرد ذراعه أمام العجوز وهو يأمر:

- يقولون أنك أمهر من ابنك، هيا يا رجل، احملْ عددك وامش خلفي.
- أنا؟
- نعم أنت ولا تتأخرْ فأجلدك.
- تجلدني؟ تهين شيخًا كوالدك ومن أبناء بلدك وأنت مصري لا واحد من المماليك الجركس الغرباء؟!
- أنا...
- نعمان بك، أعرفك.

قالها الناجي وخطواته تسرع نحو حيدر في محاولة للحيلولة بينه وبين الفارس الخمسيني الذي اعتصرت أصابعه مقبض السوط الأسود الطويل وشهره أمامهما ويُصر على أن ينفذ حيدر أمره ولو اضطر لجلده أو قتله؛ حتى لا يجرح رفض الجنوبي العجوز كبرياءه المصطنعة.

- أنت نعمان بن يحيي، رحم الله أباك، كان أكبر تاجر للخشب ببولاق.

- أنا نعمان بك كما وصفني جارك، هيا ولا تضيّع الوقت.

- يا نعمان بك، العدة مع كافي وعمك حيدر كما ترى لا يقدر على العمل.

شزرًا رمق نعمان بن يحيى الناجي فكاد الشرر يتطاير من عينيه، ابتلع ريقه وتشابكت تقاسيم وجهه، كالسباب قذفت شفتاه كلماته الصخرية:

- العبد العجوز الأسود هذا تقول عنه أنه عمي.

- قد أكون أسودَ ولكني لم أكن عبدًا لأحد ولا كان أبي، لِمَ تتشبّه بالعبيد وأنت المصري وأبوك يحيى سيرته أطول من عمره.

- أنا البك يا رجل.

زعق بها نعمان ونخس فرسه مقتربًا أكثر من حيدر الواقف أمام دكانه فحال الناجي تمامًا دون أن يصل نعمان إلى جاره الثابت كوتدٍ، لكن الكرباج الطويل كان أسرع فأطاح بالعصا الخيزران وألقى بها بعيدًا، ارتمى حيدر فاستقبلت المصطبة جسده الواهن، أحاط الناجي

برقبة الحصان وشد لجامه ليوجهه بعيدًا، غمغم نعمان ببذاءات عبثية وأدار اللجام وعينا سر النهر المقبل في آخر لحظة تراه يضرب مؤخرة فرسه، تسارعت خطواته نحو جده الجالس والناجي يقرّب من فمه القلة، شرب القليل وأزبد الماء بين شدقيه وصدره يعلو ويهبط وأنفاسه تتلاحق.

- والله لولا أعرف أباه وأمه وعائلته طيبة الأصل للعنتهم، ولما نجا هذا السفيه محدث النعمة من حربتي.

- هوّن عليك يا جدي، أنا أكفيك إياه.

انمحى الغبار فأظلتهم سحابة من صمت هدأ على أثرها حيدر ومن حين لآخر تزبد شفتاه بغمغمة وتبرق عيناه فلزم الناجي الصمت حتى مالت الشمس نحو المغيب، مشى سر النهر نحو العكاز الملقى على قيد أقدام، انحنى وأمسك طرفه، عاد به ومده لجده فمسح التراب بخرقة قماش وركنه جواره مستأنفًا إطباق شفتيه الغليظتين، جرح الناجي سياج السكوت المطبق:

- أخي حريص في طريقه لأن يكون ألعن من نعمان بن يحيى.

- ربنا يجملها بالستر يا ولدي، شكرًا لك ناجي.

- لا شكر على واجب يا عم حيدر.

من خلف قعدتهم أقبل كافي يحمل مخلاة عدته، ألقى بها جوار المصطبة وتهالك قاعدًا وقد بدا عليه الإجهاد، أمال رأسه إلى الوراء فرفع سر النهر أمامه القلة، شرب وبكم جلبابه الرث مسح شفتيه، ولأنه يعرف قسمات أبيه الهادئة فراعه تقارب حاجبيه والغضب البادي على تجاعيده.

- ماذا حدث؟

- سأل عنك نعمان بن يحيى، وحين لم يجدك أراد أن يركّب له عم حيدر مزاليج لأبواب إسطبله.

- نعمان بن يحيى، أمسى يملك خيلًا وله إسطبل؟ كفانا الله شره.

- نعم، جعل الله الناجي سببًا لكف شره ولولاه لـ...

- أتطاول ذلك الدعي عليك يا أبي؟

- لا، لا يا كافي، فقط أراد أن يصحب عم حيدر إلى بيته.

- وأنا رفضت.

- وجدي...

حدّج الناجي سر النهر بنظرات صارمة حتى لا يتمادى في الكلام أمام أبيه فتثير أحداث الدقائق الماضية غضبه فألجم لسانه وابتلع كلماته قبل أن يفوه بها، ولطول عشرة الناجي لجيرانه الجنوبيين المحبوبين يدرك طوية كافي الطيبة ونفسه السمحة التي تلقي بالتفاهات على حد قوله دبر نفسه المهمومة بتوفير القوت لأبيه وأسرته الصغيرة، نهض كافي إلى داخل البيت فتباسطت قسمات وجه الناجي وألقى نظرات مريحة على الفتى الغاضب، وجّه إليه الحديث مديرًا دفته كلية:

- أكيد أكلت في بيت الشيخ الجبرتي.

- نعم، لحمًا وخبزًا وملوخية وشربت القهوة مرتين.

- آه يا ابن المحظوظ، وكيف أمضيت الوقت ببيته؟

- أمرني أن أكتب له، لأن يده مجروحة كما رأيتم.

- منذ سنوات طويلة والشيخ عبد الرحمن يعكف على الكتابة في كراريسَ كثيرة.

- نعم يا جدي، وما عنده من كتب ومخطوطات هو الأكثر وعرفت أنه صاحب الشيخ حسن العطار.

- الزمه يا سرّي فهو رجل حكيم.

- وعالم كبير يا عم حيدر، وكلام في سركم لا تعجبه بعض تصرفات الباشا.

- لا تعجبه؟

- نعم، منذ أن أبعد الباشا السيد عمر النقيب إلى دمياط واحتكر العديد من التجارة، وفرض الكثير من الضرائب حتى أنه فرض ضرائب على الأحباسية التي كان ينفق من ريعها على الكثير من المساجد.

- عرفنا خبرها من قبل.

- الشيخ عبد الرحمن يجهر بمخالفته لهذه الأمور.

- والباشا يسكت عليه؟

- تحميه مكانته ويعصمه علمه، المهم أستأذنكم فالوقت تأخر.

- بل تتعشّى معنا يا ولد، يا زينة.

دخل سر النهر البيت فوجد أخته ترص أطباق الفول والجبن والبيض المسلوق، من إحدى الجرار الصغيرة سكبت العسل الأسود وركنت الطبق بجانب إخوته يجاورهم البتاو، حمل الطاولة بين يديه فانشغلت زينة بتجهيز العشاء لها، عاد في سرعة فردّ على عينيها المتسائلتين:

- أتعشى معكِ وأحكي.
- تحكي؟
- عن بيت الشيخ عبد الحمن الجبرتي ومكتبته وخدمه و... رأيت هناك جارية اسمها مقبلة و...
- أعرفها.

كماء بارد نزلت الكلمة التي فاهت بها زينة ببساطة وتلقائية وهي تقلب البتاو على نيران الكانون الهادئة، تسكب القليل من العسل ومن بلاص آخر تنتشل فتات الجبن القديم، تغسل يدها وتقشر بيضة وتمدها لأخيها المبهوت من كلمة أخته.

- تعرفين مقبلة؟
- مقبلة الخرساء ليست جارية الشيخ عبد الرحمن.
- جارية من إذن؟
- ليست جارية لأحد، إنما تعمل عند كل الناس ولا أحد يعرف لها بيتًا، رأيتها مرة تنظف حظيرة بيت الشيخ كريم في درب المدابغ، ورأيتها مرة في بيت السيدة نفيسة.
- نفيسة البيضا نفسها؟

تلوك زينة الطعام وهي تهز رأسها وقد ملّت أسئلة أخيها المكرورة، تجاهلت عينيه المتسعتين عن آخرهما، استأنفت إخباره بسابق معرفتها بالفتاة البكماء:

- مقبلة تخدم في كل البيوت وسمعت أنها عملت عند سليم بك الدمرجي والأمير عثمان أغا الورداني وغيرهما ولكن معروف عنها...

صمتت زينة لحين ابتلاع الطعام فناولها أخوها القلة وهو يخمّن ما ستخبره به عما هو معروف عن مقبلة من تخلّع مع شباب من تعمل عندهم أو على الأقل إقبالها عليهم وأنها.. وأنها...

- مقبلة تبغض الرجال، تنفر منهم ولا ينال من يشاكسها غير الضرب والسب.

- السب وهي لا تتكلم؟!

- تتلسّن بأصوات لا يفهمها غيرها.

اللقيمة الأخيرة وقفت في زوره وهو مدهوش بما يسمع من كلمات أخته الناعتة لمقبلة بما لم يمر به من تجربة اقترابها منه وهو بمكتبة الجبرتي.

- في صدرها تحتفظ بخنجر صغير له غمد من الجلد، رأيتها مرة وهي خارجة من بيت حريص بك خلفها ابنه السيد يحاول لمس كتفها فنهرته بصوتها الزاعق، ولما أمسك يدها دفعته وفي سرعة سحبت من صدرها الخنجر.

- حاربت السيد بن حريص بك؟

- وجرحته في يده.

أطبق شفتيه وشُلّ تفكيره لما روته أخته من سيرة مقبلة بوقعاتها التي يجدر أن يكتبها الشيخ الجبرتي في مسوداته وكراريسه الكثيرة ونسجت خيوط الخجل شباكها حول نفسه المندفعة فأحجم عن حكي ضحكها معه، وفي نفس الوقت فاضت سيول التعجب والاندهاش حتى أغرقته مما سمع من كرهها للشباب، ظلّ تفكيره

يتأرجح بين سيرة الخادمة البكماء المُدبِرة عن مشاكسة الصبيان لها والمُقبِلة كاسمها عليه وأرجع ذلك أن ذوي الإصابات ممن يقاسون انعدام قدرة وانتقاص نعمةٍ كالكلام لهم تفكير غريب من الجنوح لرغبة أو لشيء والابتعاد عن نفس الرغبة إن توفرت في إنسان آخر.

أغمض عينيه وفتحهما، فبرق وجه كنانة الهادئ الجميل الذي دفعه دفعًا ألا يرجع إلى البيت دون اكتحال عينيه برؤيتها، فأعان نفسه المشتاقة إليها بالذهاب إلى بيت حريص بك، وحين رأته من خلف نافذة المشربية غابت قليلًا ولم تلبث أن وجدها تخطو على أرض حديقتهم المعشّبة، أمام النقب أقعت خلف السور وقبالتها فعل مثلها، دون أن تتكلم تبسّمت له وعاتبته على تغيبه طيلة النهار فأخبرها أنه كان يكتب أوراقًا للشيخ عبد الرحمن، يدها البيضاء قبضت على أديمه الأسود فأحسّ بنعومتها، استراحت نفسه لتعانق أصابعهما وحين علا صوتٌ من داخل البيت فضّت تشابكهما ونهضت من فورها للداخل.

عاد إلى البيت وهو يشعر بقيمة يومه الحافل بكل صنوف التجربة التي رضي عنها تمام الرضا لولا ختام النهار باصطدام ذلك السفيه نعمان بن يحيى بجده واستهانته بهم، قطب حاجبيه وحادث نفسه:

- والله إن أحياني الله يا ابن يحيى لن تحيا والعبرة بالخواتيم.

-٦-

من أمام باب الجنينة قادهما الخادم، في خطواتٍ رتيبة يسير حيدر تسبقه عصاته الغليظة، بتريث يتبعه الناجي إلى أن مدّ الخادم الصامت لهما يده نحو دكة قديمة تربض في سكون أسفل عريشة عنب، تقهقر عائدًا إلى باب البيت البعيد في آخر البستان، هزّ الناجي رأسه ومسح بيده التراب عن خشب الدكة فبادره حيدر برفع منديل قماشي أمامه فتناوله الناجي ونفض مكان جلستهما، قعد حيدر مستمتعًا بدفء شمس الصباح الأليفة، دارت عيناه تمسحان الأشجار المجاورة للسور بانتظام، في صمت أشار إلى شجرة عظيمة الجذع وارفة الظلال تسمق وواحد من أفرعها يميل بحنو دافق نحو إحدى نوافذ غرف البيت، ذكرته إمالة أغصانها نحو المشربية بكوخه المحاط بأشجار الدوم في نيالا، ندت عن الناجي زفرة حارة ممطوطة أثارت انتباه حيدر فرفع رأسه في هدوء مثبتًا عينيه في حريص القادم نحوهما في بطء وظله السمين يتبعه، يقترب وهو يشيح بعصا رفيعة من الخيزران والخادم خلفه يحمل كرسيًا كبيرًا، برفق ينزله على الأرض الخضراء فيملأه حريص بجسمه الرجراج.

– حيدر، لا زلت تعيش يا عجوز، يحسن بك أن تقف حين رأيتني.

ضغط حيدر على رمانة عصاته الحديدية، هبّ وهو يحدّجه بنظرات الازدراء، رفع رأسه في شموخ وهمّ أن يغادر فبادر الناجي بالوقوف أمامه ليحول دون تركه يفارقهم قبل أن يبدأ جداله:

- أخطأتُ لما قبلت أحضر معك يا ناجي.

- لا والله يا عم حيدر ما أخطأت ولكن أستسمحك تبقى.

مال الناجي على كتف حيدر فقبله وهو يدفعه برفق نحو الدكة فجلس على مضضٍ، لاصقه وهو يشعر بالحرج من سلوك أخيه المتوقع، لكن الغاية من الزيارة أبعد من إنهائها قبل بدء الكلام مع حريص، فمنذ البارحة والناجي يرجو حيدر أن يرافقه للمرة الأخيرة للحديث مع أخيه ليعاونه على نصحه فصُدم بتلك المقابلة الصلفة من شقيقه المغرور بماله وبيته الكبير وإسطبل الخيل المجاور للبيت، أتاه الخادم بالنارجيلة وقدّم له خرطومها الطويل، سحب نفسًا عميقًا وهو يهز رأسه تجاه حيدر.

- لا عليك يا عريف الحدادين، على كلٍ كنت على وشك إرسال الخادم ليحضرك أنت أو ولدك كافي.

- المهم يا أبا السيد، أرجوك تسمع لي أنا وعمك حيدر يمكن الوجوه لا تتقابل.

- قلتها لي قبل سابق، وأقولها لك يا ابن أمي، لا أتراجع عن تجارتي، لو عملت معك في النجارة من مطلع شبابي كنت أعيش على الكفاف ولو مرضت أموت من الجوع، العمل مع الأمراء هو ما جعلني أشتري البيت الكبير بحديقته ومخازن غلاله وإسطبل خيله،

من سنين طويلة وأنا أتاجر في الخشب، الجلود، الخيول ومع بكوات البلد: الأمير جقمق وقايد بك وغيرهما.

- ومن منعك التجارة يا ولدي؟

- حريص بك يا حيدر.

- ليس عليّ يا ابن رحيم البولاقي، مهما طلعت أو نزلت أنا عمك حيدر والمرحوم أبوك كان الأخ الذي لم تلده أمي وسيرته الطيبة تلزمني أنصحك، لعلنا لا نتقابل كما قال الناجي.

في تأففٍ ألقى حريص الخرطوم جانبًا فمالت النارجيلة لكن الخادم بادر بحملها فأشار له أن يبتعد، همّ أن يلقي كلمة فاحتبست داخله لقدوم ابنته كنانة خلفها جارية تحمل طاولة خشبية مستديرة عليها قلة ماء وأكواب يتصاعد البخار من مشروبها الساخن وطبق فاكهة، تقدّمت أمام الخادمة وقرّبت منضدة خشبية من عمها وهي ترحب بوجه منشرح:

- مرحبًا عمي الناجي، مرحبًا بالجد حيدر.

تأرجحت نظرات حيدر بين الفتاة الكريمة المضيافة كإحدى الحمائم البيضاء الساكنة أعلى شجرة، وأبيها الذي لم يكلف نفسه بتقديم الماء لهما وطوال الوقت يدخن أو يحك بإصبعه لغده النازل وهو يتعمّد بسط أصابعه المرصعة بالخواتم، مد يده مسلمًا فقبضت الفتاة عليها في قوة أغاظت أباها فضيّق عينيه وأشار لها وللخادمة أن تعودا إلى البيت، استدارت كنانة بقوامها الممشوق وشعرها المرسل

على ظهرها تحركه رياح الشتاء الباردة، رفع حيدر عينيه لرفيف حمامة تغادر الغصن القريب.

- المهم.

- المهم يا حريص بك، لا أحد منعك التجارة ولكنك لا تفارق أمراء المماليك وتتشبّه بهم في كل شيء وهو الشيء غير المشرّف لك.

- إنهم أصحاب البلد.

- كذبت.

- لو آخر قالها لقطعت لسانه ولولا ما قلته عن أبي لـ...

- عيب يا حريص، افهمْ ما يقول عمك حيدر فهو يقصد أنهم عبيد، اشتراهم الجلابة من أسواق النخاسة، ولا همّ لهم غير السلب وخدمة أسيادهم العثمانيين اللصوص، أما نحن فأحرار أولاد أحرار فكيف نتشبّه بهم حتى لو عشنا نعمل بأيدينا.

- على افتراض ما تقول أنه صحيح، لكنهم أصحاب كلمة وقوة.

- بل هو الصحيح، والباشا محمد علي هو الأقوى ولا يرضى بأندادٍ له في الحكم وحاربهم وحاربوه وانتصر على شاهين بك والألفية العام الماضي في اللاهون وممكن تقع حرب بينهم فيفتك بالمماليك وأتباعهم.

- الباشا عزم على تكوين جيش من غيرهم وابنه طوسون يقوده لأرض الحجاز ولو كان الباشا واثق فيهم لاستعان بهم، لكن دولتهم

انتهت من زمن وصار حالهم محصورا بين استعباد البشر وإرضاء الوالي التركي في جمع المال المنهوب من الناس.

بين وجهي حيدر والناجي جرشت نفس حريص المتعالية والمستهينة بكل كلمة يقولها العجوز أو أخوه، نهض حيدر متوكئًا على عصاته فقد عرف بفراسته أن لا فائدة من الحوار مع حريص ولن يقبل أن يستغني عن علاقاته ببكوات المماليك فبهم يحتمي ومنهم يستمد قوته، ثبت عينيه في عيني حريص وحرّك شفتيه بكلماته المنضودة:

- اسمعني يا ولدي، أنت أكرم منهم، انج بنفسك واحفظها لبنتك وابنك قبل الفوت.

- اسمع الكلام يا حريص.

- ارفع أنت نفسك وتعال ساعدني في التجارة وتحصل على لقب بك وأزوجك بدل وحدتك ونسلك المقطوع.

- والله لا يلزمني البك أو أي لقب، يكفي أني المعلم الناجي بن رحيم البولاقي، والسيرة أطول من العمر.

هذه المرة وقف الناجي جوار حيدر، ومع أنه كان متأكدًا من رفض أخيه الرجوع عن طريقه أراد أن يبذل محاولة أخرى حتى يُعذر أمام ضميره ولا يلوم نفسه على تقصير، دون أن يلقي السلام سار خلف حيدر مغادرين حديقة البيت الكبير، ما إن خرجا حتى صهل فرس ابنه السيد وهو يقتحم به ممر الأشجار غير مبالٍ بمن يخرج أو يلتفت لعمه، سمعا رفيفا صاخبا فالتفت حيدر نحو تعريشة العنب فأبصر غرابًا يفرد جناحيه السوداوين ويمد منقاره القبيح وينعق.

***

- قلْ لي يا عم حيدر، لِمَ لا تنصح كافي أن يتزوج؟

بسؤاله بدّد الناجي غيمة صمت ظللتهما منذ مغادرتهما حديقة بيت حريص، مطّ حيدر شفتيه الغليظتين وهو يجيب:

- أمرته لكنه يسوّف متعللًا بانشغاله في الحدادة وقبلها تعللت أنا بانشغالي.

- ورث انشغالك.

- لا أدري ما الحكمة في إعراض عائلتنا عن الاقتران بامرأة بعد الأولى؛ فقد رفض أبي زرع النيل الزواج بأخرى بعد موت أمي، حتى حين قدم بي إلى مصر، عرض عليه أحد أبناء الجنوب أن يزوجه ورفض، وزهدت أنا في الزواج بأخرى بعد موت دار النعيم أم كافي وصاحبُك كما تعلم.

- حظي أصاحب عائلة من الزهاد.

- وأنت يا ناجي، تعقل في جن غيرك، انصحْ نفسك أنت بالزواج.

ابتسم الناجي لمثل حيدر، مال بالعجوز جانبًا متحاشيًا عدة نقر تطفح بمياه سوداء عكرة، اشتم منها رائحة مضمخة بالعفونة، ربت على ذراع حيدر وهو يزفر في أسى:

- تعلم يا عمنا أني رغبت في الزواج من زهرة ابنة عمي لكن حريص لعنه الله طول عمره يطمع في حاجة غيره، عرف برغبتي وتقدّم هو ودفع لعمي مهرًا أعمى عينه، تزوجها نكاية فيّ، وبعدها تزوج أخت قايد بك وقيّده بالمال.

- ورُزق منها بالمتعوس السيد.

- عاشت زهرة سنواتها مكبوتة حتى أنعم الله عليها وحملت والحقيقة فرح حريص وعاود الاهتمام بزهرة، لكن سروره انقلب لغم وحزن حين ولدت كنانة فأهملها حتى هاجمها المرض وماتت مخنوقة من ذل الجارية بنت الجواري أم السيد.

- وتزوجت حميدة بنت سالم وطلقتها.

- خمس سنوات ولم تحمل وصبرت عليّ ثم طلبت هي الطلاق، تزوجت وعندها أولاد وبنات.

- النصيب يا ولدي، ربنا قال في كتابه العزيز «ويجعل من يشاء عقيمًا» فمنحُ اللهِ عطاء ومنعُ اللهِ في ظاهره حرمان وفي باطنه منحٌ ورحمةٌ.

- صحيح يا عمنا.

- زمان ورث رجلٌ من أبيه ثروة، عاش ثلاثين سنة لا يشكو من قلة لكن دون أبناء وظلّ يتمنّى ويتمنّى إلى أن ماتت زوجته وتزوج بأخرى ولدت له الولد فكبر واشتد عوده ومن فرط تدليله ضيّع المال واستهان بضعف أبيه في أيامه الأخيرة حتى أنه كان يضربه ليعطيه الدراهم والرجل يرفع يديه إلى السماء ويقول: يا ليت.

- الله عليك يا عم حيدر وعلى رواياتك وأنا أسأل نفسي عن سبب حبي لك وللكافي والله يا عم حيدر، أنت أبي الذي لم تلده جدتي.

كجواد هرِم تجفل ساقا حيدر وهو لا يستطيع مغالبة ضحكته فترك لنفسه الزمام ليقهقه على المثل المهجّن، بقبضته وكز العجوز كتف الناجي الذي حمد ربه أن مقابلة أخيه انتهت دون شططه

المعروف عنه وها هما يتمشيان ويتحادثان في أريحية ويتمازج سرورهما الصافي، هدأ صدر حيدر، كعادته تمالك نفسه وانحسرت ضحكته الرجراجة ومسح شدقيه.

- أخوك ألِفَ حياة المماليك واعتاد مصاحبتهم والمرءُ على ما ألِف.

قالها حيدر وهو يسير في تمهل متأبطًا ذراع الناجي ويده الأخرى تتوكأ على العصا. المارةُ بالشارع المؤدي إلى بركة الأزبكية قلائلُ، على باله طفر وجه صاحبه زيد فعزم على زيارة الأخير من معارفه القدامى بدرب عبد الحق، وقف أمام باب قصير، مدّ عكازه وتوالى قرعه ولا مجيب فأطلّت امرأة من مشربية بيتها المقابل.

- من يريد زيد الأعمش؟

- فاعل خير.

- الله يرحمه، مات من أسبوع ولا واحد من أهل الدرب شعر به إلا لما فاحت رائحته.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، لله ما أخذ وله ما أعطى.

في جزع حقيقي تقطعت كلمات حيدر المخنوقة حتى أن الناجي أحاط بمنكبيه المضطربين وهو يهدئ من وقع المفاجأة، تعرّجت الدموع بين أخاديد وجهه فطفق يمسحها بكم جلبابه وهو يهز رأسه وحين استدار استأنفت المرأة الخبر بصوتها الأجش:

- جهزه الرجال وتمت دفنته في مقابر الإمام الشافعي.

- كنت أنوي زيارته لولا انشغالي.

- أحسن الله عزاءك يا عم حيدر، الأفضل أن نرجع، نشكرك يا ست.

بلا مبالاة أغلقت المرأة شراعة مشربيتها الصغيرة، وقف حيدر ولوى عنقه تجاه الباب المغلق، دون أن يلتفت انسابت كلماته في صوت خفيض:

- زيد.. واحد من الذين طالهم مبضع الخصاء، لكنه نجا من الموت وعاش طوال عمره يخدم في بساتين محمد بك أبو الدهب إلى أن عمشت عيناه ومد يده ليشحذ قوته وفي أيامه الأخيرة أصابه الفالج فلزم بيته ويحسن عليه أصحاب المروءة.

اعتدلت قامته وواصل السير، راودته ذكرى أخيه حمزة فشعر بالغصّة تكاد تخنق روحه، هذه المرة راح يحادث نفسه: ماذا كان يمكن أن يحدث لو عشت يا حمزة، هل كنت تألف حياة الخصيان والمجبوبين وتعيش طوال عمرك تخدم داخل قصور المماليك وتدخل وتخرج على حريمهم وتحرقك نار الرغبة في إحداهن ولا تجرؤ على الاقتراب منها وتُذاب فورة شبابك في العمل المضني حتى تمسي جلدًا على عظم ويكون مصيرك...؟

تارة أخرى يلتفت إلى الباب المغلق ثم يعتدل وهو يغمغم: رحمك الله يا حمزة، وكأنك قررت ألا تحيا مقهورًا فامتنعت عن الطعام والشراب وأصابتك الحمّى ومت وأنت راضٍ عن موتك، آه لو أن أبي زرع النيل حضر قبل خصائك لأنقذك وعدنا إلى بلدنا نيالا ولما كانت حياتي هكذا لكنه القدر يرسم حياة البني آدم، رحمك الله يا زيد،

عشت عمرك كله تقاسي نقصًا ومت فقيرًا معدومًا حتى أعلنت نتانة بدنك عن رحيلك.

- زيد كان أسرع واحد بين فتيان القبيلة، إذا جرينا يسابق الريح ويقطع غصنًا من أقرب شجرة سيال ويعود به قبلنا.

عاد حيدر إلى السير الوئيد ثم التفت فجأة إلى الناجي وقال في حسرة:

- آه لو تنتهي جريمة خصاء الأولاد من بلادنا، فيك من يكتم السر يا ناجي!

- أكيد يا عمنا.

- حادثة لم أحكها حتى لولدي كافي، كان فيه واحدة تأتي من قصبة قليوب اعتدنا شراء الجبن والزبد منها، وفي نهار السوق جوار مشهد السيدة زينب ولولت لغياب ابنها، بحثنا عن الولد ولم نجده لكني استقصيت وعرفت من تاجر أن واحدًا من الزعر كان يجر ولدًا نحو مسجد صرغتمش فسألت عنه، وهناك حرمة من أهل المطرح نصحتني أن أسرع إلى العشّة هناك وإلا...

- آه، الوسخ يريد فعلها مع الولد!

- هذا ما حسبته، اقتربت من باب العشة المغلق فسمعت نهنهة الصغير، بقدمي دفعت الباب ووقفت شاهرًا عصاتي الغليظة ففرّ المجرم ورجل آخر معه، وزاغت بصاتي بين الولد المربوط بالحبال والمشرط الحاد على الأرض.

- أراد أن...

- ووصلت في الوقت المناسب ولولاي لخصي الولد وتم بيعه لواحد من المماليك أو العثمانية يخدم في أرضهم وبيوتهم، الحمد لله رجع الولد لأمه ومن يومها لم تحضر لنا لا جبنا ولا سمنا.

التقط حيدر أنفاسه، لوهلة شعر أنه تائه فدار رأسه وقبضت أصابعه على ذراع الناجي، أشار وهو يصوّب نظراته نحو باب البيت المفتوح والسقاء يفرغ قربة الماء في الزير المركون بمنتصف المجاز والسيدة تمد يدها له بعدة بارات.

- السيدة نفيسة، يؤسفني أراها على هذا الحال.

فاجأتهم بذراعها الممدودة فظن الناجي أنها تشير لأحد غيرهما، يدها المشيرة لهما أن يأتيا أكدت أنهما المقصودان فخطا حيدر نحو بيتها.

- السلام عليك.

- وعليك السلام يا شيخ حيدر يا طيب، غرضي أركب ترابيس لباب البيت.

- أمرك يا ستنا، اليوم إن شاء الله أرسل لك كافي وتأمرينه بما تريدين.

- أشكرك.

- الشكر لله، نرد لكِ بعضًا من جميلك.

لم تعلق السيدة العجوز وأومأت برأسها وهي تتراجع وتغلق الباب، استدار الناجي الصامت طوال الوقت جوار حيدر متجهين نحو الرميلة.

- الوحيدة من جواري المماليك وزوجاتهم نالت احترام الجميع.

- أعلم يا عم حيدر لكن...

- كغيرها من زوجات المماليك الهالكين استولى الباشا على أملاكها وتعيش على ريع القليل من الأحباس وهبات الكثيرين ممن أحسنت لهم في خوالي الأيام.

- رحمتك يا رب، تعز من تشاء وتذل من تشاء.

- لم تذل يا ولدي، فقيرة لكنها لم تذل نفسها أبدًا أنا أعلم بذلك.

عادا إلى البيت ودار في خاطر الناجي كل ما رواه حيدر وحادث نفسه، ماذا لو أنه وهو صغير وقع في أيدي عصبة من الأوباش أو اليسرجية وخصوه، ماذا سيكون مصيره وحياته، وكيف ستكون نفسه وهو يرى الرجال كل منهم يفاخر بمواقعة نسائه وهو بلا...؟ ردّد تمني حيدر بأن تمحى هذه الفعلة الحقيرة من الوجود.

-٧-

- ركبنا المزاليج في أماكنها.

قالها كافي وهو يقف جوار ابنه سر النهر، فحين أمره أبوه بقضاء ما تريده السيدة نفيسة لم يتوان وجهز عدة مزاليج قوية وذهبا فورًا إلى درب عبد الحق وكافي يضمر ألا يتقاضى أجرًا.

- أيوجد ترباسٌ آخر؟
- واحد لكنه صغير.
- يفي بالغرض، ركبه هنا في خزانة العليق.
- أمرك سيدتي.

قبضت أصابع سر النهر على الترباس الحديدي والمسامير ومشى خلف أبيه نحو باب الخزانة القصير، بأجنة معقوفة انتزع الترباس القديم وثبّت الآخر وطفق يدق المسامير حتى ثبته وجرّبه أكثر من مرّة والفتى نظراته تمسح جدران الحجرة الضيقة والأكياس وبلاليص العسل والجبن وجرار الزيتون الفارغة ملقاة بإهمال بين جنباتها.

- هاتي القهوة يا مقبلة.

رنّ الاسم فانتصبت أذناه دون أن يجرؤ ويغامر بالالتفات، انسحبت الدماء من عروقه وتجمّعت بوجهه فابتلع ريقه وهو يستدير ويجلس جوار أبيه على المصطبة الملاصقة للخزانة، برغم برودة المطرح

تَرَعَ الماء مرة واحدة قبل أن تقبض أصابعه على كوب القهوة، برفق يرشف كافي وهو يتأمل وجه السيدة الصبوح والسنون كشّرت عن أنيابها فنهشت نضارته وأبقت أطلالَ أخاديدَ واحتفرت تجاعيدَ سخية تشي بجمالٍ آفل، اقتنصت مقبلة لحظات انشغال كافي بتأمل سيدتها وأهدت سر النهر ابتسامة دفعت قلبه لأن يخفق في شدة خشية تهور الفتاة في تصرف لا يليق، لكن مقبلة اكتفت بانشراح وجهها وهو لا يدري سببًا لفعل الخرساء رغم إخبار زينة الوادي بأنها تمقت الرجال، استحصن بالصبر حتى أنهى أبوه احتساء القهوة ونهضا.

- لحظة يا كافي.

- لا والله، أجرنا وصل، نحن نرد بعضًا من خيرك علينا.

- رزق عيالك يا رجل.

- لولاكِ يا ستنا ما كنت أبقى حيًا لأربي عيالي، أراكِ على أتم خير وإن أردتِ شيئًا في الليل قبل النهار نحن رهن إشارتك.

ما إن ألقى كافي السلام حتى ترك البيت وسر النهر يرنو من طرف خفي لمقبلة الواقفة خلف سيدتها وتشير له بيدها، لوهلة استنكر تنازل أبيه عن أجره من المحبوب[1] أو البارات التي تعينهم على نفقتهم اليومية، عاد يتدبر ردّ أبيه الأخير وصبر حتى خرجا من درب عبد الحق.

- حتى لا تسأل، قديمًا، نصب ساري عسكر الفرنسيس كلهبر مدافع البمبات الكبيرة وضرب بها البلد فشحّت الأقوات وكدنا

(1) المحبوب: عملة ذهبية عيار 0.698 من الذهب.

نهلك من الجوع لولا السيدة نفيسة؛ فتحت مخازن الغلال والدقيق ووزّعته على الناس أيام الحصار.

- سمعت من شيخنا بالأزهر أن كلهبر قتله سليمان الحلبي.

- جزاء لما فعل جنوده بالقاهرة وأهلها، آه يا سرّي، يؤسفني حال السيدة الجليلة، في شبابها عاشت في ثراء لا حد له، الآن تقتات من هبات الغير بعد أن...

استدرك كافي نفسه وتلفت وراءه وعن يمينه ويساره يتفحّص وجوه المارة من حوله، قاد ابنه بعيدًا عن البيوت ومال على أذنه:

- بعد أن سلبها الباشا كل ما تملك ومن قبله حبسها خورشيد القذر بسجن بيت السحيمي بتهمة إثارة الناس عليه.

- حدثني أكثر عنها يا أبي.

- وصلنا، يحكي لك جدك حيدر سيرتها

***

- رأيتها يا زينة، الخرساء مقبلة، رأيتها ببيت السيدة نفسية.

- وبعد؟

- لا شيء، ابتسمت لي.

- احمد الله أنها لم تزعق في وجهك فإنها...

- تكره الرجال، عرفت.

ضحكة خفية ساخرة ارتسمت على قسماته الندية وهو يعاون أخته في رصّ البوص الناشف وعظام الذرة اليابسة وسط الماجور، بين يديه حمله بحذر وركنه بين البيت وباب الدكان المغلق حيث

يجلس جده فأقبل رفيقا سمر الليلة: العربي الحلو والناجي، وتحلّقوا، مدوا أكفهم، ليستدفئوا بأوار النار الهادئة.

- أنهيت ما أرادته نفيسة يا كافي؟
- رجعنا من ساعة، سرّي غرضه يعرف حكايتها.
- حكاية من؟
- نفيسة المرادية.

أطرق حيدر رأسه وهو يبتسم ملء شفتيه، بأظافره حكّ شعر صلعته الخفيف المتناثر، همّ أن يتكلم لولا كافي الذي صبّ أكواب القهوة وقدمها للناجي والعربي الحلو الذي لا يكف عن المزاح والمفاكهة.

- هات يا كافي، قهوتنا رُدّت إلينا.
- ليس من بُنّك الغامق يا عم العربي، إنه هدية من الشيخ الجبرتي.
- إذن قهوتنا لم ترد بعد إلينا.

في تنكة أخرى غلى كافي قرون القَرَض اليابسة وجهز سطلًا به القليل من العسل وصبّ السائل الغامق، بملعقة يقلب المشروب الساخن ويقدمه لأبيه فيرشف على مضض والتزم الصمت فأحبّ العربي الحلو يستثير حميته للحكي.

- لما كنتُ صغيرًا عرفتُ من أبي حين قدمنا من نفزة أن نفيسة كانت زوجة علي بك الكبير.

- وعرفت من أبي رحمه الله أن محمد بك أبو الدهب أهداها لمراد بك مكافأة له على موالسته وتخليه عن علي بك.

- صحيح يا عربي، صحيح يا ناجي.

عقّب حيدر على جملتي العربي الحلو والناجي وهو يدقق النظر نحو حفيده سر النهر كأن لسان حاله يقول: أنصت لهما قبلي واستعد لما أرويه، في تمهلٍ يحتسي ترياقه الشافي وواصل السكون متهيئًا لترتيب ما ستفصح به ذاكرته.

- نفيسة قادن بنت عبد الله، من الجركس، وكما قلتما تزوجها علي بك الكبير وبعد مقتله نالها مراد بك وعاشت معه زهرة شبابها حتى مات ودفن بالصعيد وبعد رحيل الفرنساوية أحضرته ودفنته هنا بالمحروسة.

- وبعده تأيّمت يا جدي؟

- تأيمت؟

- نعم يا عم الناجي أي عاشت حياة التأيُّم.

- اشرحها يا سر النهر فكأنك عرّفت الماء -بعد الجهد- بالماء.

- تأيمت أي زهدت في الزواج.

- لم تزهد نفيسة الجميلة في الزواج وقد طلبها إسماعيل بك أمين احتساب المحروسة.

- وتزوجته يا جدي؟

- ووهبها مالًا على ما ورثته من أراضٍ من علي بك الكبير ومراد بك لكنه قدرها الذي رسمه لها الله، مات إسماعيل بك مقتولًا

وبعده تزوجت من الأمير ذو الفقار أمير الجيش ومات الآخر مقتولًا في صراع مع المماليك البحرية، وأيام ساري عسكر بونابرتة وجنوده كانت ترطن معهم بلسانهم وسمعنا أنه أهداها ساعة مرصعة بكرائم الأحجار والجوهر الثمين ووزعت من مخازن غلتها الكثير من الدقيق المطحون أيام حرب ساري عسكرهم كلهبر الملعون.

أنهى حيدر شراب منقوع القرض وركن القعب الكبير جانبه، خسعت نيران الماجور قليلًا فحرّكها كافي بقطعة من الحطب وزاد عليها الجريد اليابس والليف فتوهجت النيران أكثر من ذي قبل، أراد الناجي إدارة دفة الحوار بعيدًا عن نفيسة البيضا وسيرتها التي تزيد غمّه وحزنه على حال السيدة العطوف ذات القلب الشفوق على أهل المحروسة وهي غير المصرية، ران في خياله أنه ركّب لها بنفسه أبواب السبيل والكُتّاب خلف باب زويلة وعرف بعدها أن الوكالة والحمّام العام كان ريعهما ينفق على الفقراء وتعليم الصبيان من أهل الحي فهوّم برأسه كأنه يطرد فكرة طرأت على ذهنه فلحظ كافي تغير قسمات وجه صديقه.

- ما لك يا ناجي؟

- أتعجب من زماننا يا أخي، الست عاشت حياتها عزيزة، معطاءة ولا أحد من الرجال يفاضلها كرمًا وفي أيامنا الجَحود تقاسي العوز والحاجة.

- «وتلك الأيام نداولها بين الناس».

تمتموا بالتصديق على الآية الكريمة التي تلاها حيدر في هدوء وهو ينصب حربته أمامه وسر النهر متضايق من توقف جده عن حكاياته التي يحبها، هاتفَ نفسه: لا بأس من توقف جدي عن تناول سيرة السيدة نفيسة لكني أريد أن أعرف منه من المجرم فرط الرمان الذي كرهه الجميع ونفروا من سيرته، وكأن فراسة جده اخترقت خواطره فرفع الحربة عاليًا وهو يقول:

– الشيء الوحيد الذي تمنيته هو أن أشهد نهاية فرط الرمان، ولنا ثأر في واحد أعور من رجاله.

– انتهت سيرته بعد اندحار الفرنسيس وخروجهم من المحروسة.

– هرب يا ناجي، فرّ خشية عقاب الناس.

– وأصله يا جدي؟

– بارثلميو يني من الأروام.

– بار.. بارث.. لا أدري غير برطلمين.

– والناس هنا أطلقت عليه فرط الرمان لاحمرار وجهه اللعين.

– نعم يا جدي، كنت صغيرًا عندما صاح الأولاد في الشارع: ربنا ينصر السلطان ويهلك فرط الرمان، وأنا لا أعرف من فرط الرمان.

– كان يعمل عند محمد بك الألفي وله دكان بالموسكي يبيع فيه المواعين وقوارير الزجاج، لما جاء الفرنسيس تقرّب من ساري عسكرهم نابليون فتقوّى بهم واغتصب بيت يحيى الكاشف الكبير

بما فيه من أمتعة وجوارٍ، تخيلوا مثل هذا الخائن يعيّنه بونابرتة كتخدا مستحفظان القاهرة[1]، وتبعه أخلاط من أوباش الأروام والأغراب المتوحشين ومنهم مغاربة.

- لكني لست منهم يا عمنا.

- أكيد يا عربي وإلا ما كنت الحلو.

تبادل المتحلقون حول نيران الماجور الهادئة الضحكات من تعليق حيدر، وسر النهر يدعك عينيه في محاولة لإبعاد نعاس هاجمه من شدة إرهاق اليوم ويتعجّل رواية جده عن فرط الرمان الذي لم يره سوى مرة واحدة ولا تسعفه ذاكرته من تذكر هيئته، التفت إلى جده وعلا صوته قليلًا:

- وبعد يا جدي؟

- كان فارع القامة، يرتدي عمامة بيضاء وثوبًا كالذي يرتديه تجار اليونان ومعطفًا كبيرًا، ومن دعت عليه أمه يقابل فرط الرمان، فأسهل شيء عنده قطع الرقاب وجمعها في زكيبة؛ يستقوي على الفلاحين الضعفاء فيقطع رءوسهم ليتقرّب إلى أسياده من الغزاة.

- يا ساتر استر يا رب، ويفعل الأفاعيل في المصريين ويعيش بينهم ويأكل من خير أيديهم.

- قليل أصل، وهو من عذّب سليمان الحلبي حتى أنه حرمه من شربة ماء وهو معلّق على الخا... آه لو أراه قبل أن أموت، لأغرزن الحربة في دبره حتى تخرج من حلقومه.

---

(1) كتخدا مستحفظان القاهرة: أي نائب المحافظ أو الحاكم.

لم ير سر النهر الشرر يتطاير من عيني جده مثل الليلة فأيقن مدى كراهيته لفرط الرمان لجرائمه التي اقترفها في حق أهل المحروسة.

- فاكر جاد الكريم يا كافي! كان يحضر لنا البيض والسمن والجبن من الفرعونية[1]، سمعت أن برطلمين قتله وهو عائد من سوق مرجوش ولم يشفع له أنه يصحب زوجته معه بل قطع رقبته أمامها وتركها تهيل التراب على ناصيتها حتى انفقأت مرارتها فبكّت الدم من حلقها وماتت متحسرة.

- والله يا عم حيدر لو أعثر عليه أنشره بكل مناشير الدكان وأقطعه بالقدّوم.

- هرب يا ناجي، مع رحيل الفرنسيين اختفى، سمعنا أنه فرّ إلى الشام وناس قالت أنه رحل مع بقية جنود ساري عسكر مينو إلى الإسكندرية وهاجر في سفنهم إلى بلادهم، وشاع بين الموتورين أن واحدًا ممن لهم عنده ثأر قتله وألقى رمته في النيل.

- يفعل الأفاعيل في أهل بلده، والله يا عم حيدر ما أخون إنسانًا أكلت معه في طبق واحد.

- أصيل يا ناجي وربنا يهدي حريص ويحفظ أهل بيته.

اتسعت عينا سر النهر لدعاء جده الأخير وأمّن عليه وهو يحادث نفسه بأن يحفظ كنانة وييسر له لقاءها، تململ العربي الحلو في جلسته ثم وقف في تثاقل وهو يتهيّأ لمغادرة الجلسة الليلية التي لا تنسى، فتشجّع الناجي ونهض من فوره وهو يلف العباءة الثقيلة حول كتفيه، استأذن

(1) بلدة الفرعونية: قرية قديمة من قرى أشمون بالمنوفية.

العربي فأدخل الناجي قدميه في خُفه الجلدي وسارا متجاورين حتى ابتلعهما الظلام، بدوره توكأ حيدر على حربته واستدار موليًا كافي ظهره وهو يوصي:

- أطفئ النار يا سري، النار خوّانة.

يمد سر النهر كفيه نحو بقية الجمار التي اصطرعها تيار الهواء البارد ليستدفئ فأنهى أبوه حمارها الهادئ بسكب الماء من القلة المجاورة فتصاعد عمود من دخان متراقص أمام عينيه فوقف بدوره يلملم المواعين ويسير خلف أبيه وهو يتدبر وسيلته في رؤية كنانة.

-٨-

يارن ألاي، يارن ألاي

يا أهل المحروسة، جميعكم مدعوون لتوديع ساري عسكر طوسون ابن الباشا محمد علي لتسفير الجيش نحو الحجاز للقضاء على محمد بن عبد الوهاب، يا أيها الأمراء الألفية، لتركبوا جميعًا بزينتكم للحضور باكرًا إلى القلعة للسير أمام موكب جيش الأمير أحمد طوسون باشا.

يارن ألاي، يارن ألاي

التفت سر النهر الواقف أمام حانوت اللحم المعلق على خطاطيف حديدية للصوت الجهوري وتكرار مناداته، عيناه تتابعان ألاي الجاويش[1] الراكب حمارًا عاليًا وأمامه متقدم بعكاز وحوله القابجية[2]، يكرر النداء، ليسترعي انتباه الرائحين والغادين إلى أن ودعتهم عيناه وهم يختفون وتخفت أصواتهم والناس يتجمعون حولهم ليستمعوا ثم ينصرفوا غير آبهين.

- ارجع يا سرّي، الأمر لا يخصنا.
- أمرك يا عم عربي.

---

(1) ألاي الجاويش: قائد.

(2) القابجية: الحرس.

في زنبيل متوسط ركن الورقة الملفوف بها رطل اللحم، يجاوره كيس آخر به توابل وملوخية يابسة، حمل الزنبيل وسار نحو البيت ومن بعيد يعلو صوت ألاي جاويش بالمناداة التي عرف أن معناها: غدًا موكب، وهم يختصون الأمراء الألفية وغيرهم من بكوات المماليك، تاقت نفسه أن ينحدر نحو بيت حريص ويلقي نظرة على كنانة لكنه خشي الاقتراب من سور جنينة بيتها الكبير واللحم في الزنبيل فتهتاج كلاب القصر، فضّل العودة إلى البيت؛ حتى تجهز زينة الوادي الغداء لهم وكي لا يستأخر أبوه غيابه، ما إن اقترب من باب الدكان حتى وجد واحدًا من الجنود الأغراب يقف قبالة أبيه.

- إسماعيل بك الضربخانة يأمرك حضرة حداد أن تصنع حاملين كبيرين يوضع بينهما لوح كبير من الخشب.

- أمرك وأمر إسماعيل بك.

- الآن حضرة حداد وتحضر معي لتركيب ما تصنع.

- استرحْ، فما يريده إسماعيل بك يحتاج إلى وقت، بالإضافة إلى عمل خروم للمسامير الكبيرة.

- لا وقت، الأمر عاجل وهام.

أصابت أوامر الجندي ضيقًا بصدر سر النهر واستقبح لهجته المتعالية على أبيه الذي يجيب بهدوئه المعهود واستوحش غياب جده فهو يعرف كيف يعاملهم ويواجه صلفهم بسخريته المعتادة غير مبالٍ بمناصبهم.

- إذن انزلْ من على فرسك واسترح، يحتاج الحاملان إلى ساعة على الأقل لطرقهما وصب المسامير الكبيرة.

قالها حيدر وهو يخرج من جوف الدكان فلم يجد الجندي بدًا من مفارقة صهوة جواده والوقوف أمام رقبته الطويلة وهو يمسك لجامه، أشار له حيدر أن يجلس على الدكة وأسرع كافي ففرد مفرشًا من الصوف، جذب الجندي اللجام فبدا على قدمه عرجًا خفيفًا لحظه حيدر حين سار وربط مطيته بجذع الشجرة المجاورة للسور، استراح الجندي وحيدر لا يزال واقفًا أمامه وأشار بيده لحفيده كي يحضر مشروبًا للضيف، دخل كافي الدكان وهيّأ الكير الكبير لأن ينفخه وبالمقبض قرّب لوح الحديد استعدادًا لطرقه.

- تفضل بالجلوس، أنا في بيتك حضرة حداد كبير.

لم يتوقع حيدر الواقف أسفل الشجرة أن يدعوه الجندي إلى مجاورته، جلس وطاولة مشروب النعناع الساخن التي أحضرها سر النهر في التو بينهما، استدفأت كف الجندي بالكوب ورفع حاجبه وهو مبسوط من مذاق أول رشفة، تأرجحت نظراته بين حيدر وحفيده الواقف على مقربة منه.

- طعم النعناع أحسن من نعناع سارنده[1].

- سارنده؟

- إنها بلدي وهي بعيدة في الجنوب الألباني على البحر وخدمت في قولة بلد الباشا محمد علي نفسه، أبي كان قائدًا في جيش السلطان

(1) سارنده: بلدة ساحلية في مقاطعة فلوره جنوب ألبانيا.

عثمان الثالث صوفو وأعمامي من ملاك الأرض هناك، أما الباشا فعمل بتجارة الدخان قبل أن يلتحق بالجيش.

- واسمه بالكامل حضرة!

- اسمه محمد علي بن إبراهيم أغا القوللي، أبوه إبراهيم أغا كان رئيس حرس الطريق ويتاجر في التبغ ولم يعش من أبنائه غير محمد علي، والباشا تربى يتيمًا في كنف عمه طوسون.

- لقد سمّى ابنه على اسم عمه!

- نعم، وبعد موت طوسون كفله الشوربجي إسماعيل حاكم قولة وصديق أبيه وجعله في سلك الجندية وله عليه أفضال كثيرات فقد زوّجه أمينة هانم بنت علي باشا من أهل نصرتلي.

فغر حيدر فاه من جُرأة الجندي، بينما أحب سر النهر لغته العربية المتكسّرة والتواء الحروف بين شفتيه وشاربه الكث المتهدل يخفي شفته العليا، تأمل أنفه الغاطس بين وجنتين حمراوين، أكدت عيناه الزرقاوان كعيني هر وجبهته العريضة أنه من البلدة التي ذكرها فكثيرًا ما يسمع زملاءه في حلقات الأزهر يرددون أنهم قدموا من بلاد غريبة.

- اسمك!

- حسب الوكيل بن عمر بكداش حضرة كبير الحدادين، ورفقائي الأرناؤود ينادونني بوكيل أو بكداش على ما تحب.

حتى لا تخرج من البيت أسرع سر النهر نحو الباب الموارب فتناول من زينة الوادي الطاولة عليها أكواب الحليب الساخن

وطبق به كعكات يحب جده تناول الإفطار منها، أمال الطاولة نحو ضيفهم فركن ما تبقّى من النعناع وتناول كوب اللبن، سُرّ لوجود الكعك فالتقط إحداها، قضم وهو يرفع حاجبه لمذاقها الطيب واستحلى العجوة المحشو بها، أفطر حيدر باثنتين وشرب اللبن في تمهُّل، واستغرب اكتفاء الأرناؤودي بكعكتين فقط مع خبرته بسلوك الجند الأغراب من أيام دلاه خورشيد أنهم يستبيحون أي شيء يقدّم لهم عن طيب خاطر أو لا يقدم لهم، ما داموا قادرين على اقتناصه مستحصنين بقوة سيوفهم وبنادقهم المشهرة في وجه المعترض.

طيلة الدقائق الفائتة يدور في خلد سر النهر دعوة ألاي الجاويش وتنبيهه الذي اختص به بكوات المماليك والأمراء الألفية وكشاف نواحي القاهرة، والجد حيدر يفكر في خروج الجيش بعدده إلى الحجاز، ولا يدري سببًا لتلك الفكرة التي نغزته عن أمراء المماليك الأقوياء كشاهين بك وغيره من الذين يرون أنهم حكام مصر المستحقون لها ويشيعون بين الناس عدم طاعة الباشا الغريب وأنهم أحق بالحكم منه رغم إظهار الباشا إرضاءهم في كل مناسبة وخصوصًا بعد معركته معهم في الفيوم.

اصطدمت نظراته بعيني جده وكأنهما اتفقا فيما بينهما على استدراج الجندي الألباني ليفصح عن إجابات لحيرتهما، من باب الأدب انتظر سر النهر من جده الأخذ بزمام المبادأة، لكن حيدر طال صمته وكأن لسان حاله يأمر حفيده أن يتدرّب على المباغتة فلم يضيّع الشاب الفرصة والتفت إلى حسب الوكيل.

- وأنا في السوق سمعت الجاويش يعلن عن...

- تسفير سمو الأمير طوسون بالجيش إلى الحجاز.
- وينبه على بكوات المماليك الحضور في الغد إلى الـ...
- القلعة للاحتفال باحتشاد الجيش بالرميلة وخروجه إلى الحجاز.

للمرة الثانية يقاطع الألباني عبارات سر النهر وهو يوجه نظره إلى جوف الدكان وكأنه يتعجّل إنهاء أصوات المطرقة.

- وبكوات المماليك يصحبون جيش الأمير طوسون!
- لا يا جدنا، دعاهم الباشا للاحتفال دون مشاركتهم.

من إجابة الألباني عن سؤاله شعر حيدر بتواضعه، فلفت نظره كلمة جدنا التي فاه بها حسب الوكيل في تبسُّط بريء غير مصطنع مما أطمعه لسؤاله:

- وأنت؟ ألا تسافر مع الجيش؟
- أنا هنا تحت إمرة القائد حسن باشا وأُمرت البارحة أن أكون في خدمة إبراهيم أغا حارس الباب، الذي أمر بدوره إسماعيل بك الضربخانة بإصلاحه وتهيئة المزاليج والقفول به و...

جحظت عينا حسب الوكيل وألجم لسانه، كأنه تذكر فجأة أنه ما كان يتوجّب عليه الإفصاح عما يعرف لأي إنسان، فقرن حاجبيه في وجوم غريب على قسمات وجهه الرائقة، ضيّق حيدر عينيه وكأنه يخترق ما يفكر فيه الجندي ذو الأصل الفلاحي، قرأ ما طفح على هيئته من وجلٍ فافترّت شفتاه عن ابتسامة مطمئنة وهو يدير دفة الحوار؛ ليمحوَ ما في نفس ضيفه من خشية.

- وأنت يا بكداش، ألك أبناء؟
- نعم يا جد، متزوج ورُزقت بابني إيلير.
- اسمه إيلير؟
- في لغتنا معناه عاشق الحرية، ولي بنت وحيدة هي عائشة، آه على زوجتي الطيبة محفوظة، في مرضها الأخير نصحتني بالزواج بل وخطبت لي واحدة من بنات عمومتنا في سارنده، رحمها الله، انتقلت بجوار خالقها ولولا تكليفي بالسفر مع الفرقة هنا لنفذت وصيتها.
- ربنا يعوضك بالخير.
- لكن ما قلته لكم يا شيخ حيدر...
- يا ولدي، رغم أننا فقراء فإنني وأهل بيتي لا نخون إنسانًا أكل معنا وشرب.
- والصغير!
- سر النهر! اسم على مسمّى، لا يتلفّظ بكلمة قيلت هنا وربيته على...

بكم جلبابه الرث يمسح كافي العرق المتصبب على وجهه وهو يبزغ من الدكان وبيده الحامل الحديدي، أشار إلى الفتى فغاب بالدكان وعاد بالآخر.

- جاهزين للتركيب حضرة القائد.
- تمام، اجمع عدتك.

على البغلة ركن كافي الخُرج الصغير وأدخل سر النهر الحاملين فيه وكيس المسامير وكذلك المطرقة الصغيرة، تأكد حيدر من ارتكاز حسب الوكيل على قدمه اليمنى فسأله قبل أن يركب الفرس:

- قدمك مصابة!
- آه، جرح خفيف ويشفى.
- قدّم المشيئة، ممكن أراه!

ابتلع حسب الوكيل ريقه وبدا عليه الرضا لتحرير قدمه من النعل الجلدي الخانق، القدم رائحتها عفنة من طول لفها بخرقة قماش وكتمان جلد النعل، أحضر سر النهر ماعونًا به ماء فغسل حسب الوكيل قدمه وبرفق خلّل الماء بين أصابعه وهو يتأوّه إن لامس بطن رجله، تفحّصها حيدر ورفع حاجبه.

- حسبي الله ونعم الوكيل يا حسب الوكيل؛ في إنسان يصبر على جرح فينتفخ من القيح!

أشار إلى سر النهر فغاب فترة وعاد يحمل كيسًا من الصوف، فتح حيدر رباطه وأخرج مُدية صغيرة حادة الشفرة، مدها لكافي فدخل الدكان ثم عاد وهو يمسك طرفها بقطعة قماش وقطرات الماء تتساقط منها بعد أن وضعها على النار الهادئة ليطهرها ثم أبردها، أمسكها حيدر ورفع القدم المتورمة، برفق شجّ الجلد وبإبهامه طفق يضغط والقيح يبزق من الجرح الطولي وحسب الوكيل يعض شفته، فعص الجلد جيدًا وسر النهر لا يكف عن مسح السوائل اللزجة المخلوطة بالدم بقماش نظيف إلى أن فرغ الجرح تمامًا، من قنينة صغيرة لحس حيدر بطرف إصبعه قعرها وكبس الجلد المشروط بالقنب المخلوط بالعسل، بمزق من قماش نظيف لفّ القدم وحسب الوكيل يشعر كأن ثقلًا بقدمه

زال، ارتدى المركوب الجلدي ووقف فأحسّ بخفه رجله أكثر من ذي قبل، من زناره العريض سحب كيسًا قدّمه لحيدر ففرد كفه ممتنعًا.

- لا والله ما يحصل أبدًا.

بعين احترام نظر حسب الوكيل إلى حيدر، وفي دواخل نفسه امتنانٌ للعجوز الأسود وشهامته التي لا تُضارع، ركب فرسه وهو يشير إليهم.

- إلى إسماعيل بك.

- وعلى أي باب تريدون تركيب الحاملين؟

- على باب العزب.

تارة أخرى استدرك حسب الوكيل خطأه في الإفصاح عن موضع تركيب الحاملين الكبيرين، ولكنه خفف عن نفسه بأنه سيرافق الحداد الكبير وابنه وأنهما في طريقهما إلى عملهما فلا ضير من معرفتهما الآن، أغلق حيدر مصراعي الدكان وتهيّأ لمرافقتهم، ساروا جميعًا فالتفت إليه كافي وهو يسأله:

- ركبنا من قبل يدًا حديدية بباب العزب من الخارج، ولكن الحاملين...

- لا أعرف ويستحسن ألا تتكلم.

قطع الألباني الكلام وأطبق شفتيه، عض لسانه وهو يؤكد لنفسه ألا يتحاور معهم مرة أخرى، حيدر السائر في تمهل أثاره الاهتمام بباب العزب الذي عرف أن قواد الجيش سيخرجون منه إلى ميدان الرميلة، حيث تصطف الفرق وغيرها من مقدمي الجيش من أدلاء وكشاف

وبلطجية[1]، ظلوا سائرين إلى أن وصلوا قرب لمّة فعرف حيدر هيئة إسماعيل بك الضربخانة وإبراهيم بك الحارس التابع له حسب الوكيل فحدجه إسماعيل بك بنظرة معاتبة، برأسه هوّم إبراهيم بك وهو يفارقهم نحو فرسه البعيد بيد سائسه، فالتفت إسماعيل إليهم وهو يصيح:

- لِمَ التأخيرات حضرة حداد؟
- تجهيز الحديد احتاج إلى وقت و...
- لا تبريرات خرقاوات، المهم، الحديد يركب هنا يا شيخ حيدر لا الداخل.

على قبضته الممسكة بالعكاز أسند حيدر ذقنه وهو يمعن النظر في الباب الكبير، أحضر سر النهر كرسيًا خشبيًا وأبوه منهمك في قياس الطول المناسب للحاملين، يدق المسامير المغلظة وحيدر يتأمّل الممر الطويل المتعرّج من داخل القلعة إلى الباب الكبير وفي نفسه شيء من الشك في مجهول، فلماذا تُركّب كل تلك القفول على هذا الباب دون غيره من أبواب القلعة الكثيرة ومن الخارج لا الداخل كما هو معهود؟ عاد إلى تأمُّل أسوار الممر الصخرية العالية ثم التفت إلى الميدان الفسيح وخيام فرق الجيش منصوبة من ناحية قبة العزب وأصوات تراكض خيول الفرسان لا تهدأ وأوامر القادة تنفذ دون مناقشة.

(1) بلطجية: لفظة تركية تتكون من مقطعين، بلطة جي، أي حامل البلطة ،وعمل البلطجية تنظيف الطريق من الأشجار أمام الجيش.

أفاق على صوت الناجي وواحد من صبيانه يحمل عرقًا خشبيًا حتى إذا ما أنهى كافي تركيب الحاملين، ارتجّ الباب الكبير لإغلاقه، جرّب الناجي الكتلة الخشبية بينهما فوجد أنها أعرض بمقدار قليلٍ، انتزعها وعالج سمكها ووضعها ثانية فانزلقت بين الحاملين مغلقة الباب بإحكام، واحد من الوجهاء يخطو نحوهم فمال الناجي إلى أذن حيدر وهو يعرّفه:

- صالح أغا قوج حاكم أسيوط.

في خطى واثقة يقترب صالح أغا يتبعه إبراهيم أغا الحارس والقائد حسن باشا والكتخدا محمد بك لاظ أوغلي، وإسماعيل بك الضربخانة يسرع نحو الباب الكبير وهو يرفع اليد الحديدية فينزل طرفها المعقوف في الحلقة، يتبادل الحاضرون هزّ رءوسهم أمارة الرضا لكن إبراهيم أغا علا صوته:

- صرير الباب عالٍ.
- لا عليك حضرة البك، أحتاج قليلًا من الزيت.

قالها كافي فاهتزّ بدن إسماعيل بك الضربخانة وهو يأمر فجرى الجندي نحو خيمة كبيرة وانتظروا قليلًا لم يكف خلالها رجال الباشا عن تبادل الآراء في خفوت، عاد الجندي بإحدى جرار الزيت عليها قمع، تارة أخرى انفتح الباب فأصدرت مفصلاته صريرًا لافتًا للنظر، قاد سر النهر البغلة نحو الباب فاعتلاها كافي وثبت بوز القمع وسكب الزيت فأغرق المفصلة وكرّر عمله في بقيتها حتى أنهى تزييت المفصلات الكبيرة وعند إزاحة الباب عادت ضلفتاه في سرعة

وهدوء؛ مما أعجب الكتخدا محمد بك لاظ أوغلي ومرافقيه، استداروا تاركين إسماعيل بك مع حيدر وابنه وسر النهر يجاور الناجي، من زناره الأخضر الملفوف حول وسطه السمين يسحب إسماعيل بك كيسًا ويلقيه نحوهم فيتلقاه الناجي ويشير البك بيده أن يرحلوا.

- انتهى عملكم حضرة حداد أنت والنجار، عودوا الآن.

حمل سر النهر الخُرج على ظهر بغلته، قادها كافي مبتعدين عن باب العزب المغلق، داروا حول المعسكر غير المكتمل إلى قرب مسجد السلطان حسن فاجتهد حيدر في السير وهو ينبه عليهم:

- لنصلِ الظهر قبل الرجوع للبيت.

في مكانٍ منزوٍ يختصه الناس بدوابهم ربط كافي لجام البغلة وساروا جميعًا خلف حيدر نحو السلالم الحجرية، دلفوا الدركاة ومنها إلى المجاز المؤدي إلى صحن المسجد، وصلوا الميضأة وتفرقوا حول أعمدتها الثمانية، بطرف جلبابه نشّف سر النهر يديه وانتظر حتى توضأ جده وأبوه والناجي، ساروا فرادى متخطين دكة المبلّغ نحو إيوان القبلة، فصلّى حيدر النفل وجلس ظهره يسنده الجدار يرقب دخول المصلين من أهل الدروب المحيطة بالقلعة وأجناد غرباء، حتى إذا ما دبّت قدما المبلّغ ليرتقي الدكة العالية ويجهر بقيام الصلاة نهض الجميع مصطفين وأصوات همهماتهم بالأدعية تتناهى لأذنه، في غمار السجدة الأخيرة طرأت لحيدر فكرة قرّر أن ينفذها فور التسليم الذي أعلنه الإمام، فمال بوجهه ناحية اليمين ثم اليسار ونهض في همّة مبتعدًا نحو باب المئذنة الأمامية، لامست قدمه الحافية أولى درجات السلم الحجري الأملس وصعد في تأنٍ وقلبه يخفق، توقف يلتقط

أنفاسه ثم واصل إلى أن أطلّ رأسه من الفتحة الأخيرة، وقف بمقربة من السور المستدير، مسحت عيناه ساحة الرميلة المزدحمة بفرق من الجيش، تعج بالخيول والبغال وجمال السقائين المجهزة لحمل قرب الماء ومؤنة السفر.

التقط نفسًا طويلًا أراح صدره وهو يفرد كفه أمام عينيه الزائغتين حتى اصطدمت نظراته بالقلعة السامقة في شموخ وجعل يتفحصها ونزل بعينيه نحو أسوارها إلى أن توقفت نظراته فجأة نحو باب العزب المغلق وأفراد من الحرس حوله يتحرّكون في كل جهة، تأمّل الممر الطويل المنتهي بالباب وبرجيه العاليين ثم ساحة الرميلة الفسيحة، أطلّ إلى الأسفل فدار رأسه وشعر بثقله فاستدار نازلًا وعكازه يسبقه حتى إذا ما فارق آخر درجات السلم التقط أنفاسه وامتكث قليلًا؛ ليهدأ خفقان قلبه، خرج فأسرع إليه كافي، نظر إليه حيدر وبكفه ربت على كتف ابنه، سار نحو البغلة الواقف جوارها سر النهر والناجي.

- خيرًا يا عم حيدر؟

- لا شيء يا ولدي، لا شيء وربك خلاف الظنون، لنرجع إلى البيت فإني متعب.

-٩-

قرب زوال الشمس يقترب من سور حديقة البيت الكبير، تجذّر الأمل في قلبه أن يلمح بطرف عينه خيال كنانة من خلف مشربية نافذتها المخبأة خلف أفرع شجرة الصفصاف العالية، على حجر جوار السور ثبت قدميه وأطلّ في حذر فرأى الخدم ينشرون على أحبال الغسيل العباءات الغالية، وفي حوض كبير مملوء بالماء والصابون السائل ينقعون أردية محاكة من فراء السنانير الثمينة ثم يستخرجونها ويعصرونها أكثر من مرة ويثبتون القطعة تلو الأخرى بمشاجب خشبية ليسهل تجفيفها، دهش من عملهم قرب نهاية اليوم، فالأوْلى أن يتم غسل الثياب صباحًا أو ليلًا وتأتي شمس النهار فتجففه، التفّ حول السور الكبير ومن الفتحة التي يخفيها جذع الشجرة دلف إلى الحديقة وهو متأكد من خوائها، فالخدم مشغولون في تنظيف ثياب حريص بك والسائس من بعيد يجتهد في حموم الفرس ويدعك ظهره بالليف، رفع رأسه نحو المشربية ففرح لانفراج نافذتها، يدٌ بيضاء تشير إليه أن يتسلّق الشجرة فالتفت يمنة ويسرة وقلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه للطلب المفاجئ، كقرد مما يراه في الموالد تسلّق الأغصان الكبيرة ومن حين لآخر تزيغ بصاته؛ خشية أن يلفت حفيف الأوراق انتباه الخدم، يصل إلى قرب النافذة فثبت قدمه وهو يوقن أنه سيقضي لحظات يهاتف فيها كنانة في خفوت ثم ينزل، هاله انفراج خشب

المشربية وإشارتها له أن يرتقي الغصن الكبير المائل نحوها ويدخل فلم يتردد، وحين وجد نفسه داخل الغرفة اصطكت أسنانه رهبةً فأغلقت النافذة في سرعة ووقفت قبالته تمد يدها بمنديل حريري ليجفف عرقه الناز على رقبته، رفعت قلة صغيرة فتناولها وشرب، أغمض عينيه وفتحهما لواقع وجوده بغرفة كنانة، خشي أن يكون حلمًا، لكنها حقيقة يعيش دقائقها، تلعثم لسانه والكلمات الهامسة تبعثرت بين شفتيه:

- أخاف أن تدخل خادمتك أو...

- لا تخف، جميعهم لا عمل لهم غير تنفيذ أوامر أبي، يستعد ليصعد غدًا مع شريكه قايد بك القلعة، فالباشا دعاهم للمشاركة في الاحتفال بخروج الجيش.

- أعرف يا كنانة، سمعت ألاي الجاويش وحرسه وحجّابه يدعون الناس إلى مشاهدة خروج قواد الجيش إلى الرميلة.

- أبي وأصحابه سيكونون بالقلعة مع الباشا.

- توجد فرصة لأن أزورك في الغد.

أومأت برأسها أمارة الموافقة وابتسامتها العذبة تزيد وجهها براءة، يخفق قلبه وتتراكض الدماء في عروقه، لا يصدّق نفسه أنه الآن يتوسط مخدع كنانة، أميرته الصغيرة ذات المال وهو حدّاد فقير يجاهد كي يجد لنفسه فرصة للدراسة بالأزهر ومعاونة أبيه في شحذ لقمة العيش بعملهم الصعب، تأمّل وجهها القمري، وغمازتا خديها تزيدها ملاحة، خشي أن يكون ميلها له باعثه إنقاذها ليلة

مولد إسماعيل الإمبابي ثم تتغير حين تكبر قليلًا وتتدبّر حاله، عاد ليثبت عينيه بعينيها فرأت فيهما خوفًا أدركت منبعه فافترت شفتاها الرقيقتان عن ابتسامة خجلى وودّت لو تضمه لصدرها لتثبت له أنه الأوحد الذي يحن على نفسها الظمأى للعطف لمجرد أن يطبق عليها بنظراته، أما من تعيش وسطهم فلا عمل لهم غير إلقاء الأوامر، وكل هم أبيها أن يناديه الجميع بحريص بك ومحاكاة رفاقه من المماليك حتى ملّت حياة الزيف وانعزلت عنهم فتستأنس بزيارات سر النهر الخاطفة، وها هي جرأتها تبلغ الذروة فتستضيفه في غرفتها التي تشبه الخباء وسط صحراء قاحلة من تجاهل أبيها وأخيها غير الشقيق الذي لم تسلم من إيذائه، بدا عليه الخوف من إطالة وجوده فخطا للخلف تجاه المشربية، لم تعدم الوسيلة لإبقائه فقرنت حاجبيها مصطنعة جذب انتباهه، أمسكت بكفيه ومالت نحوه قائلة:

– أخاف أن يطلب منهم الباشا أموالًا للإنفاق على الجند ومؤنة الجيش وهذا ما لا يحبه البكوات.

– لكن هذا ما يحبه الباشا، سمعت أنه فرض ضرائب جديدة ولا أحد يجرؤ أن يغضبه.

– ما لأبي وعلاقته بقايد بك أو عفريت بك، أتمنّى يا سرّي لو يتاجر بعيدًا عنهم.

– حريص بك يرى في مصاحبتهم المنعة والنفوذ وتيسير تجارته.

– لا أحب لقب البك فلا تكرره، البكوات يستفيدون من أبي الكثير، خيره قسمة بينهم وإن وقع في مشكلة تخلوا عنه ومع ذلك يصاحبهم.

– لكنهم الآن متصافون مع الباشا وها هو يدعوهم لحفل تقليد ابنه قائدًا للجيش المسافر إلى الحجاز.

– ومن مأمنه يُؤتى الحذر.

قالتها وهي تهز رأسها المعصوب بطرحة حريرية بيضاء، بدا على قسمات وجهها خوف لا يتفق وصفاء ملامحها فلم يعلق لكنه في دواخل نفسه أعجب بحكمتها رغم صغر سنها فلسانها ينطق بالكلام المحكوم كجده حيدر، بسمته الرائقة كشفت بياض أسنانه اللؤلؤية التي يهتم بتنظيفها صباح مساء بالسواك، قرّر ألا يضيّع وقت مكوثه وهو لا يدري متى ينتهي الحوار حول أبيها وشرف صعوده القلعة مرافقًا بكوات المماليك والأعيان، تلاقت نظراتهما ولأول مرة يغوص في بحيرة عينيها اللوزيتين، فردت كفها فشبك أصابعه بها، على أريكتها الوثيرة أجلسته فقعد قبالتها، ابتسمت ملء فكيها وهي تفصح عما بقلبها في دلال:

– أنت يا سرّي أحن إنسان عليّ، أنا هنا أعيش في وحدة لا تؤنسني غير قطتي الجميلة.

– والجارية؟

– تخدمني وتلبي كل ما أحتاجه لإرضاء أبي.

– والسيد بك؟

– أعوذ بالله، شيطان لا يعرف من دنيته غير الميسر مع أصحابه من أبناء البكوات وله رفاق من السفهاء الطائشين يتقوّى بهم على الناس، لا يمكن تصدق أنه في ليلة رجع مخمورًا وحاول أن.. أن.. أنا أخته...

- لا حول الله، لهذا الحد.

- والله لولا صرخت فيه وحجزت مقبلة بيني وبينه وأغرقت وجهه بالماء ليفيق ما نجوت من هجمته هذا السفيه ساقط المروءة.

- لا مانع من أن يزوجه عم حريص.

- طلب حسنة بنت جارنا مسعود تاجر الزيوت ورفضه.

- ربنا يهديه.

- ربنا يهلكه وأستريح من قبحه.

قالتها والامتعاض يطفح على وجهها الممتقع، هنيهة صمت وتذكر كلام عمها الناجي ذات ليلة بأن أخاه حريص تزوّج أخت واحد من بكوات المماليك وأنجبت له ابنه السيد، أما كنانة فطيبة كمنبت أمها، ومن كثرة كلام الناجي عن بنت أخيه مال إليها وأحبها دون أن يراها، وجرّب منذ شهور أن يلمحها ففعل واستوطنت قلبه منذ وقعت عيناه على وجهها البهي، لكنه لم يقترب منها إلا بعد حادثة مولد إسماعيل الإمبابي ومن يومها وهي التي تدعوه لزيارتها خلسة.

- سرحت!

- لا، كنت أفكر.. أنا وأنتِ يتيمان.

- أقاسي فجور أخي السيد، وقلبه المتحجِّر، لكن ربنا وهبك زينة الوادي وكلامك عنها جعلني أحسدك على نعمة أن يحنوَ عليك إنسان ويتفقّد غيبتك ويقلق عليك، أنا هنا لا يعوزني شيء ولكن إذا لم أخرج من غرفتي لأيام لا يسأل عني أحد.

استقبلت وجنتها الناعمة الغضّة خطًا من ماء عينها الصافية ففرد أصابعه ومسحه، استشعر طراوة خدها الأملس، أمالت وجهها

ولامست شفتاها ظهر يده فسحبها، ربّت على كتفها وشجعته إطراقة رأسها بأن يمسح شعرها المنسدل في نعومة على كتفيها، يقرّب وجهه ويطبع على جبينها قبلة أفصحت عن كل شعور العطف والرحمة، ضيّقت عينيها فأفضت عن مدى واسع من قبولها فتسامحت رغبته في الارتباط بها مع كل الأصفاد التي يعرفها وتحول دون اقترانه بكنانة، فأيقن في هذه اللحظة أنه لن يرضى عنها بديلًا.

امتكث معها تتشابك أصابعهما وتتهامس نظراتهما لتكمل أسباب الوصل وحين شعر بخيوط آخر النهار تنساب عبر أوراق شجرة الصفصاف الوارفة نهضا في آنٍ واحد، همّ أن يرفع درفة المشربية بخشبها المتشابك وزجاجها الملون فلم ترض أن ينزل منها، خطت في خفّة وفتحت باب غرفتها، برهة وأشارت له فتسارعت خطواته، أمسكت بذراعه ونزلا معًا، بهو البيت خالٍ من أي حركة فأفلت زمام عينيه لرؤية أثاثه الوثير والبُسط المفروشة والأعمدة المكسوة بالسماقي وعلى جدار جانبي تتراص أنواعٌ شتى من الخناجر والسيوف ذوات الأغمدة المذهبة والمقابض العاجية والبنادق المميزة برقابها القصيرة، أنفاسها الهادئة تدغدغ خده وهي تميل نحوه وتهمس:

- أسلحة غالية، جمعها أبي من بلاد عديدة.

قادته حتى باب صغير، فتحته فعرف أنه المؤدي إلى حديقة البيت الخلفية حيث فتحة السور المخبأة خلف جذع الشجرة، اطمأنّ لتوفيق مغادرته وانقضاء الساعة التي أمضاها لولا جحوظ عينيه وارتجاف قلبه لمقبلة الممسكة بمقشّة من سباطة النخيل تكنس فجمد مكانه واقشعرّ بدنه، انتصبت قامتها واتسعت خطواتها منهما، ندّت

عنها ضحكة خرساء وهي تمد يدها مسلمة عليه وهمهماتها الخافتة تربكه فابتسمت كنانة وربتت على كتفها، توالت خطواته نحو السور وكلتا الفتاتين تشير إليه وأمام الفتحة وقف مستغربًا ولم تقبل كنانة انصرافه والخوف من وجود مقبلة يراوده فذهبت إليه، لا يزال صوتها الخفيض يرن في أذنه:

– مقبلة كقطتي، تعرف من أسراري ما لا يعرفه أحد وهي من دبّرت لقاءك وطوال الوقت كانت تؤمننا.

نباح الكلاب دفعه لأن يجتاز نقب السور ويسرع، ولا شيء يشغل تفكيره سوى الابتعاد، كالتائه عاد إلى البيت ولا يدري من وقعته الأخطر والأجرأ في حياته غير أنه وصل إلى البيت وهو مذهول من نهاية لقائه، وراح يتدبّر ما قالته كنانة عن خادمتها البكماء التي ظن يومًا أنها بلهاء، وها هي تثبت نباهتها فأفقها يخطط ويراقب ونفسها وثابة. وصل البيت فوجد الناجي يجلس على الدكة صامتًا، ألقى السلام ودخل، دون مقدمات وقف أمام زينة الوادي وأشرق وجهه ببشاشة لم تعهدها من قبل، أمامه رفعت طاولة عليها طبق تمر وكوب قهوة فتناولها وهو يضمر أن يروي لأخته وصديقته ما فعل لكن بعد أن يقدم واجب الضيافة لجارهم، خرج جده من غرفته يتدثر بعباءة ثقيلة يسبقه عكازه فتبعه سر النهر إلى خارج البيت، دون أن يسأل عن أبيه أجابه جده وهو يجلس جوار الناجي:

– كافي يركب حديدَ نوافذَ لبيت بقناطر السباع.

ركن الطاولة بين جده والناجي وهمّ أن يسرع بدخول البيت والجلوس مع أخته ليخبرها بكل شيء لكن عبارة الناجي قيدت قدميه فوقف يستمع.

– يرضيك يا عم حيدر، أخي حريص يتجهز ويستعد لمصاحبة الأمير جقمق وقايد بك وغيرهما من بكوات المماليك إلى القلعة؟!

– لا يرضيني، لكن تقدر على منعه؟

– محال، يراها فرصته ليقترب من الباشا محمد علي وكأنه يقول لنا جميعًا: ها أنا ذا أجالس الوالي، أنا ذو حظوة لم ينلها واحد من المصريين، من النجارين.

– بئست الحظوة.

– حريص ينظر لأعلى، لا ضير أن يسعى أي إنسان أن يحسّن مكانته لكن...

– بجده واجتهاده، لا بالمسكنة وذلة المال والتدثر بأردية من نعتبرهم مماليك جلابة يباعون ويشترون.

– عندك حق يا عمنا، زمان لما أبي يطلب منا أن نركب بابًا أو مشربية لأحد كان حريص يحصل على البارات لنفسه ولا يعطيني نصيبي مدعيًا أنه يحفظه لي، ويصاحب أبناء البكوات وكشافي الأرض وينفق عليهم وهو النجار الفقير ليهديه أحدهم فراءَ سنورٍ أو مركوبًا من الجلد، كبر على الطمع وأخذ ما ليس حقه.

– ربنا يصلح حاله.

– المهم يا شيخ حيدر، غرضي أمنعه من الذهاب، لا لشيء غير خوفي عليه من زيادة تكبره واختياله بنفسه.

– «إن الله لا يحب كل مختال كفور».

– صدق الله العظيم، صدقت يا سرّي وصدقت كنانة حين تكلمت مع أبيها مرة وطلبت منه مثلنا أن يوسع تجارته ولكن بعيدًا عن بكوات المماليك.

لم يلحظ الناجي اهتزاز رأس سر النهر وانبساط وجهه وهو يقرن اسمه باسم بنت أخيه التي فارقها منذ ساعة فتركهما يكملان حوارهما ودخل البيت، بصوت حاد أمر حيدر:

– اذهبْ إلى أخيك يا ناجي وأقنعه ألا يحضر مع المماليك احتفال الباشا فكل منهم يتربّص بالآخر.

– لكن الباشا تصالح مع شاهين بك والألفية.

– ليأمن غدرهم وهو يعلم أن لا أمان لمملوك.

– ربما طلب منهم أن يرافقوا جيش الأمير طوسون.

– وربما تكون غايته أبعد والباشا صاحب رأي وبصيرة، حوله دهاة من الدهاقين لا يخطئ تدبيرهم وما لا يُدرك بالقوة يدرك بالحيلة.

– لا أفهمك يا عم حيدر.

– ربك خلاف الظنون وإن بعض الظن إثم.

يقبل كافي ويُدخل البغلة حظيرتها المجاورة للدكان وينزع عن برذعتها الخُرج وبه العدة الثقيلة، يغيب قليلًا ويعود وهو يمسح وجهه من الماء.

- تأخرت؟

- ركبت أقفالًا بوكالة قريبة من قناطر السباع وبعدها لبيت من بيوت رشوان بك الدمرجي تسكنه إحدى زوجاته.

- المهم يا كافي، تذهب معي لأخي حريص؟

- لا، لم يسلّم عليّ آخر مرة قابلته ونظر إلى يديّ المفحومتين بقرف ولوى رأسه عني وأنا الذي لعبت معه في صغرنا وكنا نصطاد الأسماك معًا من النيل، نسيت يا ناجي؟

- لم أنس يا صديقي، وكيف أنسى أنه كان ينام تحت ظل الشجرة ويتركنا نصطاد طوال النهار ثم يشاركنا أكل السمك، عادته ولم يغيرها الطمع فيما يملكه غيره وحسبنا الله ونعم الوكيل.

- اذهبْ إليه يا ناجي ولكن لا تتأخّر عنده، انصحه يمكن تنفع معه النصيحة، ولا أحسبها تنفع.

غمغم حيدر بكلماته الأخيرة وهو يرجو ألا يكون الناجي قد سمعها، قاطع حوارهم خروج سر النهر وبيده طبق كبير عليه أقداح القهوة، ركنه على منضدة خشبية ودخل ليستكمل لأخته رواية وقعات مغامرته فأغلقت الباب بمجرد دخوله وهي تحدِّجه بنظرات معاتبة.

- يا مخبول، لو أبصرك واحد من الخدم أو هبّ فيك كلب من كلابهم وقطعك بأنيابه كيف يكون موقفك؟

– الحمد لله يا زينة، لم يحدث ما خشيتِ منه وكل ما يهمني الآن أن كنانة تشعر بخطر يحوط أباها وأخاها السيد، وإن كانت لا تهتم به لسفاهته وقسوته عليها.

– ربّك الستار يا سرّي، صوت عمك العربي الحلو، يظهر أنه وصل ويحب التمر مع القهوة، اخرجْ لهم بكوبه.

-١٠-

شعر الناجي بتأفف من قعوده وسط قاعة الأعمدة ببيت أخيه حريص ينتظر مقابلته وهو عازم ألا يبرح حتى ينصحه بما أمره به حيدر الذي يثق في كياسته وبُعد نظره المجرّب، بحفاوة بالغة استقبلت كنانة عمها وكأنها تحتفل بقريبٍ تتلهف زيارته فلم تأل جهدًا في تقديم ما تستطيع فبدأت بطبق من الفطير والتمر ثم أتت إحدى الجواري بالقهوة وأمرت الخدم بإشعال المزيد من المسارج الكبيرة فبدا صحن البيت كضوء النهار.

- أرجوكِ يا كنانة، أقنعي أباكِ ألا يصعد القلعة.
- سيقابلك يا عمي الناجي وانصحه؛ فإنه لا يسمع إلا صوته.
- مضى وقت وأنا هنا و...

دبدبة أقدام ثقيلة قادمة فالتفت الناجي، عينا حريص الحمراوان تشي بغضبٍ ما يجتاحه وهو يمسك مقبض السوط الجلدي السميك، أشار لكنانة أن تصعد ولأنها تدري طبع أبيها المتهور وعنفه إن تأخرت لحظة عن تنفيذ أمره فانسحبت مرتقية الدرج نحو غرفتها ووقفت بالأعلى ترقب.

- هؤلاء الخدم لا يحسنون عملهم.
- اهدأ يا أخي، من يعملون عندك مصريون، لا مماليك.

قرن حاجبيه واستدار فاهتزّت كرشه المكوّرة، بأنامله برم شاربه وهو يصوّب نظراته لأخيه فبادأه الناجي:

- ترافق البكوات إلى القلعة!

- لا خبر يخفى في البلد.

- ليس سرًا، ألاي الجاويش أعلن الخبر، في الأسواق، الشوارع، أمام جامع الأزهر، حواري الحسينية والغورية والجمالية وأضيق الأزقة.

- وما في ذلك؟

- لا تذهب يا أخي.

اكفهرّ وجهه من فرط انتفاخ أوداجه وهو يحوط أخاه بنظرات حقودة مخلوطة بالتشفّي، ابتسامته العريضة كشفت قوة شاربه المنتصب، ململ رأسه وهو يعدل من وضع عمامته المذهّبة.

- تحقد عليّ أني أصبحت عالي المقام!

- عالي المقام بعملك وتجارتك الحرة لا مصاحبة المماليك؛ فكل منهم يكره الآخر ويتآمر عليه والواحد منهم مَرَدَ على أن يستعدي الصديق ويستثير العدو فأضحت حياتهم أوحالًا من كراهية.

- ولكن الآن مصاحبة الباشا، أتعرف يا ناجي معنى أن أجالس الباشا محمد علي نفسه؟

- يا ابن أبي وأمي، أنت عندي أحسن من بكوات المماليك والباشا وجنده الأرناؤود الغرباء، أنا الأبقى.

برقت عينا حريص وهو يرى أخاه النجار يتضاءل أمامه بملبسه البسيط عليه آثار نشارة الخشب يعصّب رأسه بعمامة كلح لونها ويلف جسمه بحِلس قديم وينتعل خفًا جلديًا مخيطًا من جلد الحمير، لم يعط أخاه فرصة للمهاترة وزلزلت زعقاته أركان البيت:

- تريدني أعيش كدود الأرض تدهسني النعال، لا.. أنا كبرت ولا أسمح لك ولغيرك أن يجعلني أتصاغر، اخرجْ، اخرجْ ولا تريني وجهك.

رفع الناجي وجهه نحو كنانة الواقفة بأعلى تمسح دموعها المنثالة بغزارة وقلة حيلتها منعتها من مجرد الاعتذار لعمها فاستدارت ودخلت غرفتها، فلم ينتظر الناجي إهانة أخرى فخطا نحو الباب وصوت البك يعلو:

- أيها الخادم، نظّفْ البساط أو أحرقه بالنار وافرشْ غيره.

تسارعت خطوات الناجي حتى خرج من باب الحديقة، أراح نفسه على برذعة بغلة كافي ونخس بطنها فاستدارت، لف العباءة على جسمه اتقاء تيار الهواء المشبّع بالبرودة، لمح نورًا بالأعلى فرأى كنانة تمسك شمعة كبيرة أمام مشربية نافذتها المفتوحة على مصراعيها وتشير إلى عمها كأنه تعتذر له عن فحش أبيها، أعلى فرع شجرة الصفصاف يتجاور زوجان من الغربان رأتهما كنانة ساكنين وحين ابتعدت البغلة بعمها أطلق أحدهما نعيقًا متقطعًا حادًا أخافها فبادرت بإغلاق نافذة مشربيتها.

***

- تخيّل يا عم حيدر، واحد من كبار قواد الأرناؤود طلب خلطة من أجل الـ...

مال كافي بظهره إلى الوراء وهو يضحك وحيدر يهز رأسه ويضرب كفًا بكف ومن حين لآخر يوكز كتف العربي الحلو في ترفّق كي يلجم لسانه، تمالك حيدر نفسه ومن بين شفتيه المبتسمتين همس بتعليقه:

- لكن الأرناؤودي كتوم ولا يحب أحدًا يعرف أنه عاجز عنين.

- وبسبب حرصه أرسل لي واحدًا من خصيانه.

- ربما يستعمل هو الخلطة فتنتصب أذناه ويشعر بفحولته ثم يرتاد بيت سنانة الخبيثة ويخرج منه مفضوحًا.

هذه المرة لم يتمالك حيدر نفسه ومال بظهره والانبساط يفترش تجاعيدَ وجهه، عجز لسانه عن لوم ابنه فعرفت قبضته المضمومة طريقها نحو كافي لعبارته الجريئة، والعربي الحلو انتابته سعلات خشنة أنهاها بعطسة شديدة حمد الله على أثرها وعجز لسان حيدر عن تشميته، رويدًا تلاقت شفتاه وضيّق عينيه للشبح القادم نحوهم يجر دابته في تثاقل حتى إذا ما اقترب نادى:

- ولد يا سرّي، اسحب البغلة من عمك الناجي وأدخلها الحاصل.

في سرعة أطاع الأمر؛ كي يعود ليستمع إلى أحداث مقابلة الناجي مع أخيه فربط البغلة وأفرغ نصف زكيبة من التبن المخلوط بنخالة وزاد على ذلك أن دلق لها الماء في الماعون وتسابقت خطواته لينضم إلى المتحلقين حول ماجور النار.

- رفض!

- نعم يا عم حيدر.

- المغرور، سيعرف نتيجة تهوره لكن بعد الفوت وأجدادنا قالوا: السعيد من يعتبر بغيره والشقي من يتعظ بنفسه.

- السفيه طردني، وحق محبتك يا عم حيدر، لا أخاف عليه وعلى ولده الفاجر لكن خوفي كله على كنانة.

اسمها رنّ في أذن سر النهر وانخلع قلبه خوفًا عليها لما يسمع من بطش بكوات المماليك بغيرهم من أبناء جلدتهم والواحد منهم لا يتورّع عن الاستيلاء على بيت رفيقه بما فيه من حريم، فما بال حريص وهو ليس واحدًا منهم فإن اصطدم بأحد البكوات فستعتوره أطماعه وينكبه ويغتصب بيته بكل ما فيه، أفاق من سرحانه على صوت جده الهادئ:

- لا بأس يا ناجي، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا.

- وابنه السيد، طالح من ظهر طالح، يرافق أبناء بكوات المماليك في الصيد ومناقرة الديوك ويقضي الليل معهم في اللهو، وصغار الذئاب لا يولدون بلا مخالب وسينهشونه بمجرد انتهاء ماله.

- معك حق يا ناجي واحرص على ابنة أخيك فإنها طيبة ومن لحمك ودمك، أنت عمها وخالها ولا ذنب لها فيما يفعله أبوها وأخوها.

– والمصيبة يا جماعة أن أخي حريص مكروه من الكل، تتذكر يا عم حيدر زمان أيام محنة كلهبر[1] شحّت الأقوات وكان الواحد منا وسط البمبات الكبيرة يشحذ الإدام ويتقاسم كسرة الخبز مع جاره وهو...

– يكفي يا ناجي.

– لا يا عم العربي، احتكر حريص الفول والعدس حتى الدريس وحجبها في مخزن له قرب بيته، فاكر يا عم حيدر، أمي كانت مريضة ولها ترياق تشربه بعد العشاء ليخفف ألم جنبها ولم يكن ببيتي لقمة واحدة، ليلتها قصدته متخفيًا وطلبت منه حفنة فول ندمسها أو نعمل منها بصارة ورفض.

– لا حول ولا قوة إلا بالله، الفقر لبعض الناس نعمة.

– رفض بحجة خوفه من انتشار خبر وفرة الطعام عنده فيهجم عليه الجياع.

– ساعتها نجدتني ستنا نفيسة وأعطتني أرغفة مخبوزة وجبنًا وجرة عسل، ولما ماتت أمنا وأرسلت له ليحضر لم يأتِ، تصوّر يا عربي، أخي رفض تشييع أمه؛ لا يرغب أن يعرف أحد من أصحابه البكوات أن له أمًا فقيرة.

– صحيح، البطن قلّابة.

---

(1) محنة كلهبر: ثورة القاهرة الثانية ضد كليبر القائد الثاني للحملة الفرنسية، تولى القيادة بعد عودة نابليون بونابرت إلى فرنسا واستمرت الثورة ضده من 20 مارس إلى 20 إبريل 1800م.

- طلبت تراه قبل موتها ولم يحضر بحجة أنه يتجهز للسفر إلى دمياط، ليلتها أقبلت كنانة مع الخادمة كان عندها ست أو سبع سنوات ورمت نفسها في حضن جدتها، ساعتها رفعت أمي عينيها إلى السماء وسمعتها تدعو «يا رب احفظها ونجها» وسكتت، استخسرت تدعو له كأن قلبها غاضب عليه.

- طب خاطرًا يا ناجي والله ليستجاب دعاء أمك.

أطبق الناجي شفتيه ومسح دموعه المنثالة على خده، زاغت عينا سر النهر بين الناجي وجده وأبيه والعربي الحلو وود لو يجهر أمامهم بأنه سيكون واحدًا من الأسباب التي تحمي كنانة وتحفظها، وإن لزم الأمر يقاتل من أجلها، فتحسّس مقبض خنجر مسنون حاد مثبت بزنارٍ من الجلد يلفه حول وسطه، في حدة التفت إلى العربي الحلو وهو يعلن أمامهم:

- قررت أن أشارك في الاحتفال بخروج جيش الأمير طوسون في نهار الغد.

- وأنا معك.

- وأنا.

- وفي أي مكان تقفون؟

- قرب الرميلة يا عم حيدر أمام باب العزب.

تارة أخرى سرح سر النهر بخياله وبرقت عيناه للفكرة التي تفتقت من بين دهاليز عقله فرآها الأنسب في قضاء ساعات الصباح مع كنانة وربما يستمتعان معًا بالفرجة من مشربيتها على أمراء وكبار قادة الجيش الخارجين من القلعة، انتابه رضاء لا حدود له وعزم على عدم التراجع مقنعًا نفسه بأن الجميع سيكونون منشغلين ولن يلحظه أحد حتى لو دخل من باب بيت حريص، تلفت حواليه خشية أن يسمع أحدهم صرير أفكاره، لم يشعر بالعربي وهو يقف منهيًا سهر الليلة ولا بالناجي الذي نهض هو الآخر بعد أن لف دثاره حول كتفيه اتقاء لفحات الهواء الباردة، دون أن يأمره أبوه لملم أكواب القهوة الفارغة وإبريق الماء الساخن وحملهم على طاولة خشبية كبيرة في حين أطفأ حيدر نيران الماجور وحمله كافي بين يديه ودخل بدوره خلف أبيه وأغلق الباب بإحكام.

قطيعٌ من نعاج وكباش مختالة بأصوافها المصبوغة بألوانٍ زاهية، تنتصب قرونها في تباهٍ، تسير غير محترسة من الذئاب المتربصة والزبد يتقطّر من بين أنيابها المسنونة، حين رفع أحدهم رأسه الأغبر وعوى انقضت تنهش الخراف وتبقر بطونها، تعتصر أنيابها الرقاب وتخمش مخالبها كل ما تطوله حتى الشَّرود منها لاحقته الذئاب وفتكت به، تقهقرت حتى اختفت وعيونها تودع الفرائس الملقاة في كل مكان.

رويدًا ينفض تشابك رموشه فتأرجحت أمام عينيه فلوق سقف غرفته، التقطت أذناه نباح الكلاب البعيد، أبعد الحِرام الثقيل وهمّ بالنهوض فسرت بين أوصاله قشعريرة برد، جحظت عيناه حين تذكر أخلاطًا من أحداث حلمه الذي عاش وقعاته، أغمض عينيه معيدًا ترتيب مشاهد كابوسه وبقيته لا تزال تجثم على صدره، كرر الاستعاذة، نهض فتحسّست قدماه القبقاب الخشبي الخفيف، انتصبت قامته وقبضت أصابعه على عقصة عكازه المتين، نباح الكلاب أعاد إليه بقية من فلول حلمه المشوّش فأشاح بوجهه، زينة الوادي تغذي الكانون بأعواد الحطب؛ لتسخن الماء، أسبغ وضوءه، فرش الحصير، رفع يديه بالتكبير، أدار وجهه ناحية النافذة المغلقة وتنصّت للنباح الممطوط فتواتر صوتٌ غريبٌ كأنه دعاء ميّزه جيدًا: يا رءووووووووف، يا رءووووووووف...

ما إن أنهى صلاته حتى طالع وجه زينة برقته فربّت على كتفها ورفع سبابته أمامها واختلط حذره بحنو دافق.

- لا تفارقي البيت مهما كان.

- خيرًا يا جد!

- اليوم يخرج قادة الجيش من القلعة إلى الرميلة، ممكن تسمعين الطبول والزمور.

- ولو طلعت برج الحمام!

- آه يا لئيمة، شاهدي الموكب من فوق برج الحمام ولكن حذار من الوقوع.

- لا تخف، العجوز وحده يقع.

بأنامله قرص خد حفيدته الضاحكة لدعابتها وهزّ رأسه فأشارت إلى الطبلية وعليها الجبن والبيض المقشّر والخبز وكوب اللبن، مال عليها وقبّل وجنتها وهو يتأمل قسمات وجهها التي طالما شبهها بوجه جدتها دار النعيم، قعد وظهره يسنده الجدار وهو يتمتم: صحيح، المرأة عمار البيت، لوى عنقه وصوته يعلو:

- اصح يا كافي، سرّي، ولد يا سرّي.

لا يدري سببًا لسرحانه إلى تلك الأيام المنقضية التي تومض بين تلافيف ذاكرته كرعشات النجوم، حين كان يتناول إفطاره من حليب النوق الممزوج بالبلح ويقسّم عليهم أبوه زرع النيل العمل من حرث الأرض ورعاية الأبقار، زرع النيل لا يعرف شيئًا اسمه الفراغ فما إن يرجع إلى الكوخ حتى يشغل وقته بفتل الليف ليصنع الحبال الرفيعة

والغليظة، يجز أصواف النعاج، بالمغزل يبرم الخيوط ومنها تصنع أمه المفارش وهو وحمزة قرب أفول الشمس يلعبان أمامها ويتقافزان حتى ترتخي أجفانهما فيناما متجاورين.

فتح عينيه ولا يدري كيف سالت دمعته متعرجة، بكفه مسحها، مدّ رقبته وعاد ينادي على كافي فرآه يطس وجهه بالماء الفاتر وسر النهر يقرفص جنبه تجاورهما زينة الوادي حتى إذا ما أنهوا إفطارهم خرج كافي ليفتح باب الدكان وتهيأ سر النهر لمغادرة البيت فأحاطه حيدر بنظرة محذرة.

- لا تتأخر على أختك.

- حاضر يا جد، أذهبُ إلى الشيخ عبد الرحمن كما وعدته.

- يمكن الشيخ الجبرتي ينشغل اليوم بمشاهدة الأمير طوسون والجيش.

- أنا متأكد أنه سيشاهد بنفسه خروج الجيش إلى الرميلة حتى يكتب كل صغيرة وكبيرة ولكن لم يحن الوقت، وسأعود فور ذهابه.

رافق حيدر حفيده إلى أن خرجا من باب البيت فجلس كعادته على الدكة الواطئة وركن عكازه، ومن حين لآخر تتوالى طرقات كافي على السندان وينفخ الكير فيتطاير الشرر، رويدًا انتشر دفء الشمس الوليدة وبدا النهار رائقًا فأمال حيدر رأسه إلى الوراء وابتسم للكلب النائم أسفل شجرة السنط ورأسه ممدود على ساقيه الأماميتين، أتت زينة بمشروب القرَض وركنته جوار جدها، يحتسي في تمهل ويتأرجح قراره بين الذهاب لمشاهدة موكب الجيش أم يبقى بالبيت.

بحذر مدّ سر النهر يده مسلمًا على مقبلة الواقفة بالردهة، فرد كفه ليخلص أصابعه من قبضتها المضمومة لكنها أصرّت على الإمساك بكفه ولم تتراخ أصابعها إلا بعد أن مالت برأسها وقبّلت ظهر يده، وقفت أمامه والبِشر يطفر من وجهها الغامق، همهماتها المتداخلة وتلاعب أصابعها ثم قبلتها في الهواء وانتصاب سبابتها أفهمه أن كنانة وحدها بالبيت فهوّم برأسه أمارة وعي ما تقصد.

- تعال يا ولد.

في حدة لوى عنقه لصوت الجبرتي الواقف أمام باب المكتبة، خطا ناحية الشيخ ملقيًا عليه السلام في وجل خشية تغيره عليه لوقوفه مع الجارية، ولأنها مرنت على عادات من تعمل عندهم فانسحبت نحو المطبخ لتصنع لهم القهوة، شاب ثلاثيني مهندم يلف رأسه بعمامة من الصوف يجلس على حشية وأمامه عدة أوراق، ألقى سر النهر التحية والشاب يقحم قلم الغاب في قنينة الحبر ويكتب، نغزت الغيرة قلبه من وجود آخر يكتب.

- أخبارك وأخبار جدك الطيب!

- بخير.

- اشتريت بيتًا في الدرب وكان غرضي يركب أبوك الأقفال عليه، كثرت الكتب والكراريس ورغبت في تجهيز بيت خاص بها بعد أن ضاقت الحجرة بما فيها.

- أخبره.

- لكن نقل كل تلك الكتب واللفائف يحتاج إلى وقت، على كلٍ بعد الاحتفال بتقليد الأمير أحمد طوسون قيادة الجيش إلى الحجاز نتدبّر الأمر، آه نسيت أعرفك بعبد القادر، طالب بالأزهر يسكن معي مؤقتًا.

تأمل سر النهر زميله وخمّن أن يكون من حلب أو أهل شمال الشام لعينيه الزرقاوين ووجهه الأبيض المنثور عليه نمش بني، التفت إلى الشيخ وهو يقول بنبرة حرص على أن يضفي عليها الاهتمام:

- يوجد مكان برواق الشوام يمكن لأخينا عبد القادر السكن فيه.

- عبد القادر ليس شاميًا يا سر النهر وسيكتري بيتًا لنفسه.

- أنا من إزمير يا شيخ نهر لكني تربيت في دمشق.

- اسمي سر النهر.

باقتضاب ردّ وزادت أنصال الضيق تجاه ضيف الشيخ الجبرتي لكونه ممن لا يُكن لهم إلا كل كراهية، فالشاب تركي وهو منذ أن كبر يبغض الأتراك المتكبرين ويمقت وجوههم المكسوة بالعنجهية، وحين استمع مرة من أحد شيوخه بعمود الأزهر عن سيرة من أقدمهم إلى المحروسة وما فعل من جرائم بأهلها وباب زويلة يشهد على بطشهم بآخر المماليك الحكام، وسلبهم لنفائس القصور ورُوي عنهم أنهم استولوا على أباريقَ وقناديلَ من مشهد السيدة عائشة، زادت كراهيته لهم وحكى لهما الشيخ أن جده الأكبر في زمن سليم بن عثمان كان يعمل صانعًا للزجاج بل أمهر الزجاجين شحنه هو وغيره

إلى بلده؛ ليستفيد بصنعته ولم يرجع، مطّ سر النهر شفتيه وحسم أمر التعامل مع عبد القادر الإزميري هذا وسأله:

- وأخونا الإزميري ماذا يعمل كي يكتري لنفسه بيتًا يسكن فيه بمفرده؟

تأكد أن الشاب بوجهه الذي تبدو عليه أمارات النعمة سيقول أنه ورث مالًا أو أن أباه يرسل له ما يعينه على طلب العلم وقد يكون واحدًا من أبناء الجند أو الإنكشارية أو الدلاه، انتظر ليفصح التركي عن عمله فنهض من مجلسه وفوجئ بالشاب يمد يده مصافحًا وهو يجيب:

- أعمل صانع مفارش وأبسطة وأبي لديه فابريقة كبيرة في إزمير يعمل عنده العديد من الصبية ويتاجر فيها.

- ويرسل لك المال لتعليمك.

- أعطاني بقدر ما يكفيني لأسابيعَ والآن أعتمد على نفسي فقد اكتريت دكانًا بدرب العقادين.

- وجهزته من فورك؟

- البيت كله كان لطبيب أعرفه اسمه بقطر، مات منذ أيام ولا خليفة له واضطرت زوجته دميانة إلى أن تبيع البيت بالدكان وتعيش عند أهلها بأسيوط، لكن البيت بالطابق الثاني يحتاج إلى تجهيزات.

هذه المرة أجاب الشيخ عبد الرحمن ليخفف من استجواب سر النهر لضيفه وحتى لا يمر الوقت دون أن يستثمره في الكتابة والاستعداد لمغادرة البيت بعد علو الشمس لمشاهدة موكب خروج

الجيش، دهش سر النهر لاعتماد ذلك التركي على نفسه ليعيش من عمل يده ويلتزم الدراسة بالأزهر لكن فضوله دفعه لأن يسأل:

- أليس من الأفضل أن تعمل في دكان بالأجر وتوفر مالك؟

- يا أخي، سمعت مثلًا هنا يقول: قيراط ملك ولا فدان مشاركة وكله مع الصبر يهون.

إجابة عبد القادر ألجمت لسانه عن مواصلة حواره ورنّت كلمة يا أخي في أذنه، فلأول مرة يخاطبه عثماني بهذا التواضع ولا ينظر لبشرته السوداء على أنه عبد كما يحسب أكثرهم، وأعجب برأيه ومبدأه في عدم مشاركة أحد، تخلّى عن نبرة صوته الساخرة وهو يقول في تودد:

- وفقك الله يا أخ عبده وأي شيء تطلبه أنا تحت أمرك.

- سمعت من الشيخ أنك حداد، غرضي أركب أقفالًا على الدكان.

- حاضر، بعد الفرجة على الأمير طوسون أكلم أبي يجهز لك الترابيس وأركبها لك بنفسي.

أحضرت مقبلة القهوة ووقفت هنيهة، أشار لها الشيخ عبد الرحمن أن تتركهم فتراجعت مغلقة خلفها الباب، التفت إلى سر النهر وفي جوانحه مسألة نوى إنهاءها لكن بعد إتمام عملهم، التفت إلى عبد القادر:

- والآن يا شيخ عبد القادر، أين توقفت؟

- سوّدت لك عدة أخبار كنت يا شيخنا كتبتها في أوراق منفصلة.

- اقرأ ما سوّدته كي أرتبه في الكتاب.

- «في الثاني من شهر صفر وهو يوم الإثنين، حضر الباشا من مدينة السويس ليلًا...»*.

- اكتب يا عبد القادر: في سادس ساعة من الليل.

- أمرك يا شيخي.

- الدقة مطلوبة ما دمنا نعرف، أكمل كل ما جمعت وبعدها سأكتبه أنا بما أرتئيه.

- «فضربوا في صبحها عدة مدافع لحضوره، وقطع المسافة في إحدى عشرة ساعة...»*.

- سأضيف بعض الأشياء ولكن اكتب هذه حتى لا أنسى «وفيه حضر صالح أغا قوج حاكم أسيوط وتناقلت الأخبار عن الأمراء المصرية القبليين بأنهم حضروا إلى الطينة، ورجعوا إلى ناحية قنا وقوص، وخرج إليهم أحمد أغا لاظ وتحارب معهم وقتل من عساكره عدة وافرة...»*.

- كتبت كل ما أمليت يا شيخنا.

- عظيم، يكفي اليوم وبعد الاحتفال سنكمل.

سرح سر النهر فيما أملاه الشيخ ولم يستغرب الخبر فقد رأى صالح أغا قوج نفسه عند باب العزب، وهمّ أن يخبر الشيخ بما ركّب أبوه والناجي من أقفال وترابيس بالباب، لكنه خشي أن يتحدّث الجبرتي عن ذلك فيصل إلى أسماع إسماعيل بك الضربخانة فيعاقب

أباه وجده والكافي بما أمر به أن يكون في طي الكتمان، أطبق شفتيه فالتفت إليهما عبد القادر وهو يقول:

- أذهب إلى الأزهر لألملم حاجاتي وأنقل بعض الكتب إلى البيت.

- نعم اذهبْ وسأحادث سر النهر ثم أسير إلى الرميلة.

انشغل الشيخ في ارتداء عباءة جديدة فأغلق عبد القادر المحبرة ونظّف قلم الغاب ووضعه مع غيره في الجراب الجلدي، ساوى بعض الأوراق وثبتها بحجرٍ منحوتٍ يشبه الهرم؛ حتى لا تطير، غادر في هدوء فالتفت الشيخ الجبرتي المتهيئ للخروج إلى سر النهر وحادثه في صوت خفيض هادئ:

- قالت لي مقبلة أنك زرت كنانة بنت حريص.

- قالت لك؟!

- لا تستغرب يا سر النهر فمقبلة تربّت هنا، صحيح أن أمها من أهل ما بعد الشلال وولدتها في بيت السيدة نفيسة لكنها كبرت هنا وأفهم كل ما تريد.

- نعم يا شيخ، كنت هناك.

- احرص على نفسك يا سر النهر، فوالله لو عثر عليك حريص أو واحد من أتباعه لأطعم كلاب قصره بلحمك.

- لكنه أخو الناجي وهو صديق أبي وأبوهما رحيم البولاقي كان صديقًا لجدي حيدر.

– يا ولدي، حريص وغيره من بكوات المماليك ما لهم عزيز غير أنفسهم ولن يتورّع الواحد منهم عن العصف بأخيه إن شعر أنه يهدد حياته.

– لكنه مصري و...

– تخلّى عن حريته كمصري وخضع لمذلة ألقاب تُشترى بالمال.

– الله عليك يا شيخ عبد الرحمن، والله إنك تتكلم كجدي حيدر.

– وسترى هذا الحريص وهو يزهو كطاووس على فرسه وسط بكوات الألفية والكشافين عند الاحتفال بجيش الأمير.

تارة أخرى ضنّ عن الإفصاح للشيخ بسابق معرفته بخبر مشاركة حريص وغيره من المصريين الذين لهم علاقات مع بكوات المماليك في الاحتفال بالجيش المسافر إلى الحجاز، لف الجبرتي ذراعه حول كتف سر النهر وهو يقوده خارج البيت.

– على كلٍ، أخبرتني مقبلة أن البنت ذات عقل وغير راضية عن أفاعيلَ أبيها وأخيها الماجن، احذر واحرص عليها وعلى نفسك يا ولد.

«أحفظها وأحرص عليها كحرصي على نفسي».

دون أن تتحرّك شفتاه قالها بقلبه الخافق وهو يتأمّل وجه شيخه المهيب، يصدمه الهواء البارد لحظة استقبال الشارع فيستفيق من سرحانه في وجه كنانة التي ملكت روحه، عند التقاطع أشار رجل ذو قامة مديدة للجبرتي فاستوقفه وخطواته المتزنة تقربه من وقفة الشيخ

على جانب الطريق، تأمل سر النهر وجهه الأبيض ولحيته الشهباء والسبحة بين أصابعه، مدّ الجبرتي يده مسلمًا:

- مرحبًا أبا فراس.
- أكيد ذاهب إلى الرميلة.
- وأنت؟
- أصلي الظهر في مسجد قاني باي الرماح وأنتظر خروجهم.

تضايق سر النهر من عدم تعريف الجبرتي له أمام صاحبه وأحبّ أن يفارقهما ليعود إلى البيت، لكنه فوجئ بأبي فراس يسأل:

- ماذا ترى يا شيخنا؟
- ماذا ترى أنت يا أبا فراس؟
- رجل قوي محنّك أخضع المماليك في الصعيد، وأخرج الإنجليز من رشيد والإسكندرية كلها ثم تخلّص من الشيخ عمر النقيب وأبقاه في دمياط وهو من هو بعد معارضته إياه، إذن ماذا يفعل ومعظم الجيش خارج من القاهرة؟
- تقصد أنه يدبر لسفر المماليك مع الجيش؟
- الله أعلم وقد تكون الغاية أبعد.

يمط أبو فراس شفتيه ويهز رأسه وسر النهر مدهوش من إفراط الرجل السبعيني في الإفصاح عن رأيه وهم سائرون بين الغادين والرائحين دون أي حيطة أو حذر أن يسمعه واحد من عيون الباشا، أو خشية أن يُفتن عليه من ذوي الذمم الخربة الذين يشترون الود والرضا من أذى الآخرين واصطياد أقوالهم، استأذن من شيخه فأومأ

له، ظلّ سائرًا عكس الكثير من الناس المتجهين نحو الرميلة وهم يتلاغطون عما يتوقعون مشاهدته، وصل فوجد الدكان مغلقًا وأباه وجده ليسا بالبيت، أما زينة الوادي فانضمّت لبنات الجيران لمشاهدة ما تطوله أبصارهن وهن أعلى أبراج الحمام على أسطح البيوت.

بادر سر النهر بارتداء نعليه وهو على ثقة أن أباه رافق جده واصطحبا معهما الناجي فيمرون على دكان العربي الحلو؛ ليتفرجوا معًا على موكب الأمير، فلم يقلق على جده وأفلت لعينيه زمام الرؤية، الميدان يعج بالجند المصطفين في انتظام، عشرات وعشرات من بغال وجمال تحمل المؤن وقرب الماء والخيام وأعلاف الخيول وعربة تجر مدفع البمبات الكبيرة استعدادًا لنقلها إلى معسكر الحملة في القبة.

من أعلى المآذن تردد الدعاء إلى الباشا والي البلاد وللأمير طوسون ساري عسكر الجيش وعودته سالمًا غانمًا النصر المؤزّر والدعاء للسلطان ابن السلطان محمود خان ابن السلطان عبد الحميد خان ابن السلطان أحمد خان المغازي وتثبيت ملكه، تزاحم ساكنو القلعة وغيرهم من ضواحي القاهرة والفسطاط وأهل مقام السيدة زينب ومن حول مسجد صرغتمش وجامع ابن طولون الكبير، فمرت عينا سر النهر على محشر البشر بالرميلة والحواري المؤدية إليه، الجو من حوله ملبّد بالغبار فضاق صدره ومع سعلاته الأولى وبصاقه الرمادي تفتقت الفكرة وانسل من بين الناس ليفارق الميدان.

-١٢-

توسّطت الشمس سماء الرميلة فلم يحتمل حيدر الوقوف فافترق عن ابنه والناجي سائرًا نحو مسجد السلطان حسن، ببطء دبّت خطواته ترتقي السلالم الحجرية والكثيرون يسيرون حوله قاطعين المجاز إلى الباحة الفسيحة حول الميضأة، على الحصير المضفور من الحلفاء استراح وأتاه أحد الغلمان بحشية صغيرة اتكأ بكوعه عليها ووجهه مرفوع نحو السماء، لا يدري لِمَ تضاءل مشهد حشود البشر بالرميلة الذين لم ير مثلهم طوال حياته إلا مرة واحدة حين حاصر أهل المحروسة خورشيد في القلعة.

في مخيلته توهّج وجه الباشا محمد علي وإن كان رآه منذ توليته مرتين أو ثلاث مرات على أكثر تقدير، يستغرب إطالة سنوات حكمه وتصرفه في البلاد كأنه سيبقى فيها إلى أبد الآبدين وغيره من ولاة يرسلهم سلطان أسطنبول من أحفاد ابن عثمان، الوالي منهم يدرك أنه لن يمكث سوى عامين أو ثلاثة ولا يجتهد إلا في جمع ما يقدر عليه من أموال وسلب ما تطوله يده من نفائس قبل عزله، أما الباشا فمختلف عنهم جميعًا وإن كان ألبانيًا وأعوانه الأرناؤود ينفذون أوامره، فهو ماضٍ في تحقيق ما يريد ويدبر أموره ولا يتعجّل قطف الثمار قبل نضجها، سرح قليلًا ولم يهتم أول الأمر بالرجلين المقتربين من قعدته وأحدهما يلقي عليه السلام فيرفع عينيه ويهم بالنهوض للترحيب بهما.

- لا عليك يا حيدر، نجلس معك.

فوجئ بالشيخ عبد الرحمن الجبرتي يتربّع عن يساره ورفيقه أبي فراس عن يمينه، تنحنح الجبرتي وهو يفرد كفه:

- أعرّفك يا أبا فراس بـ...

- أعرفه، حيدر واحد من أمهر الحدادين، صنع لي قفول بيتي، المهم احضرنا يا شيخ حيدر وأنت رجل كبير وصموت والحكمة تبص من عينيك.

- أمرك يا أبا فراس.

- رجلٌ قوي يزيح كل خصومه من أمامه، فماذا يسأل نفسه دومًا؟

- من أين يباغتني عدوي؟

- عليك نور، وإجابة السؤال يكون فيها التدبير لكسر هذا العدو أو التخلص منه وقديمًا قالوا: التدبير نصف الظفر أو جُلّه.

- أكيد.

هنيهة صمت ثلاثتهم فعاد حيدر يفكر فيما قاله أبو فراس ولا يستغرب كلامه فالجميع لا حديث لهم غير سيرة الباشا وما يفعل ويدبِّر وما يصدر من أوامر يلزم الجميع بتنفيذها بصرامة غير معهودة وكأنه يمهّد لحكم لا ينزعه عنه سوى الموت وعندها سيتولّاها واحد من أبنائه كالأمير طوسون أو إبراهيم القوي في معاركه مع المماليك، ولكن بأي غريم يظفر؟ التفت إلى أبي فراس ولسانه لا يكف عن عرض رأيه:

– إنها النهاية المحتومة، منذ أكثر من مائتين وتسعين عامًا نكبهم سليم بن عثمان وتقترب ساعة استئصال شرهم هم ومن يواليهم وأعوانهم ومن يتشبّه بهم ويتزيّا بزيهم، ستخط أصابعك ما أقوله يا شيخ عبد الرحمن.

– تفاءل خيرًا يا أبا فراس؛ البكوات لا يزالون قوة وأسلحتهم قاتلة.

– منذ مرج دابق والريدانية ومخامرتهم لطومان باي وشنقه على باب زويلة وخنوعهم لآل عثمان قُصفت سيوفهم وبارت بنادقهم وعطبت غدّاراتهم[1] وتحوّلت لأعناقنا وصدورنا نحن يا شيخ جبرتي، وما تصفه بهم من قوة هو وبال ما بعده وبال، فالقوة في غير السلطان شرٌ يجب التخلص منه والباشا...

قاطعت حوارهم أصوات تعلو وطبول تدق فأيقنوا بأن الاحتفال أضحى وشيكًا، تسارعت أقدام المغادرين للمسجد نحو خارجه، وحيدر يُعيد ترتيب ما قاله أبو فراس ورسخ في نفسه أن شرًا سيحيق ببكوات المماليك والألفية المتواجدين بالقلعة، ودّ لو يرى في هذه اللحظة الناجي ويذهبان معًا لإنقاذ أخيه حريص من التقبُّض عليه وسجنه، لكن هيهات أن يعثر على الناجي أو كافي من بين أكداس الناس.

دون اتفاق سار ثلاثتهم متخطين قبة الميضأة وانحرفوا يسارًا في جهة دكة المبلّغ ثم ساروا نحو سلم المئذنة، في تمهُّل صعد الواحد

(1) الغدّارة: آلة لإطلاق القذائف بين المسدس والبندقية.

تلو الآخر، وما إن بزغ رأس حيدر حتى أطلق لعينيه العنان فرأى القلعة تتحمّم بالنهار الشتوي الدافئ، علت الزمور ورأوا طلائعَ من الخيالة تخرج من باب العزب، فعلا ضجيج المزدحمين بالرميلة وهم يشاهدون طائفة الدلاه ومن خلفهم الوجاقلية والألداشات[1] المصرية فانفصلوا عن الباب الكبير.

فوجئ حيدر وهو يمد بصره الحاد بباب العزب يُغلق قبل اكتمال خروج بقية المحتفلين، واثنين من الجند يحملان عرق الخشب ويسقطانه بين الحمالتين الحديديتين، وآخر يرفع الذراع الطويلة وينزرق طرفها المحني في الحلقة، يُضيّق عينيه مراقبًا الممر الحجري المزدحم بالمماليك الراكبين خيولهم المزينة ويرتدون ملابسهم وفراويهم الثمينة وهم يتوافدون دون خروج مقدمتهم فيستحيل تدافعهم إلى تكدُّس ولا يدري سببًا لانفصالهم عن الخارجين من الباب، التفت إلى الشيخ الجبرتي فرآه يفرد كفه أمام عينيه ويشير بإصبع يده الأخرى.

– انظر يا أبا فراس، كما قلت، البكوات حوصروا في مضيق النقر الحجري وربما يجبرهم جند الباشا على النزول من على خيولهم وتقييدهم بالحبال...

– وربما...

طلقٌ ناري بتر عبارة أبي فراس عندها فغر حيدر فاه وهو يرفع عكازه مشيرًا نحو المنحدر الصخري.

– وي وي وي، جنود يعتلون الحيطان والجدران أعلى المدق...

(1) الوجاقلية والألداشات: فرق من الجيش.

ألجم لسان حيدر عن وصف ما يراه فقد قام الجند بتوجيه بنادقهم نحو المزدحمين خلف باب العزب والطلقات تتناثر عليهم كالمطر فبدأ بعضهم يسقط من على صهوات جيادهم الصاهلة والزعاق يعلو ويقاوح آخرون ليتقهقروا اتقاء الرصاص فيرميهم الجند من خلفهم ومن أمامهم ومن أعلى الحيطان، يتدلّى فك حيدر ويترجرج تفكيره ولا يدري سببًا لشعوره أنه رأى ما يحدث من قبل، كلمح البصر ومض حلمه فارتعشت شفتاه وهو يشير بإصبعه.

- إنها رؤياي قد جعلها ربي حقًا، النعاج، الخراف، الذئاب.

الجبرتي ملتصق بأبي فراس وعيونهما مشدوهة نحو ممر باب العزب والصرخات تتعالى والمتفرجون أصابتهم كرشة عظيمة وأطلق بعض الجند الرصاص في الهواء فتراكض الناس متفرقين بالدروب والحواري والأزقة المتصلة بالرميلة.

***

لم يتوان في السير نحو بيت حريص بك والناس من حوله يسيرون في اتجاه واحد إلى الرميلة، وصل إلى نقب السور ودلفه في سرعة، الباب الخلفي للبيت مواربٌ وذراع تشير إليه أن يقبل فهرول نحوه غير آبهٍ بنباح الكلاب المربوطة بسلاسل في الناحية الأخرى من الجنينة، دخل فقادته كنانة وصعدا معًا درجات السلم، ثقلت قدماه أمام غرفتها وهو يحسب أنهما سيدخلان، لكنها أمسكت يده ومالت به فقطعا طُرقة أفضت بهما إلى باب مفتوح لسطح البيت، خطت وهو خلفها ناحية البرج الخشبي، سلّمه الداخلي يؤدي إلى غرفة صغيرة بالأعلى

ما إن دخلها حتى فتحت نافذة خشبية تسع وقفتهما، صدره ينهج من فرط الصعود، التقط أنفاسه ومسح جبينه فأشارت إلى كنبة صغيرة.

- استرح واشرب الماء.

أزبد الماء بين شدقيه وهو يجرع في نهم، لا يصدّق أنه يتربّع بأعلى مكان ببيت حريص بك، ابتسمت ورفعت منديلًا أبيضَ يغطي أصابع كنافة مسقيّة بعسل النحل وفطائرَ وقرصًا محشوّة بالعجوة، مد يده وتناول قرصة، قضم في شهية وشاركته الحلوى ووجهها ينشرح بابتسامة طفولية عذبة.

- لا أحد يأتي هنا غيري ومقبلة.
- مقبلة؟
- نظّفت البرج وأتت بالفطائر والتمر وملأت قلة الماء.
- تثقين فيها؟
- إنسانة مؤتمنة وأنت لك عندها منزلة لا أدري سببها.
- وأنتِ؟

لأنها تدري بعض الأشياء عن صنعته المتوارثة فأجابته بمبدأ الحديد حين يطوّع؛ تطرقه وهو ساخن فثبتت عينيها في عينيه وهمست:

- أنت سرّي ونهري، تروي عطش وحدتي وتلين جفاء خلوتي وتجري في عروقي مجرى الدم.

لا يدري ما يقول فمال برأسه وكفها على شفتيه، وتجذّرت في روحه رغبة لا ثانية لها وتحقيقها لن يحجزه عنه عائقٌ حتى لو فقد روحه، حملت الرياح في هبوبها أصواتًا متباعدة فخشيت أن تشعر بذنب

حرمانه من مشاهدة الاحتفال، سحبت كفها وقدّمت له قرصة لينة فهوّم برأسه وهو يلوك قضماته في هدوء، وقف أمام النافذة المستديرة وتلاقى حاجباه فلم يكن يتخيّل أن البيت بعيدٌ عن ميدان الرميلة لحد سيحرمه الفرجة، فالساحة تواريها أسطح البيوت العالية ويبدو الجنود في حركتهم كنملٍ أسودَ، أمامه تهتز مئذنتا مسجد السلطان حسن وحدّد مئذنة مسجد قاني باي الرَمّاح، صمت ولا يدري ما يفعل، أيبقى معها أم يغادر فلا يريد أن يفوته مشهد قد لا يحدث في حياته مرة أخرى.

تمنّى أن يرى عن قرب ساري العسكر الأمير أحمد طوسون نفسه ويمكن تلتقط عيناه وجه الباشا الذي لم يره قط، انتشلته من سرحانه يدها الممدودة بإصبع كنافة فمد وجهه وقضم، طالت أسنانه أناملها، آهة رشيقة ندت عن شفتيها المبتسمتين في عذوبة، جواره جلست وساقها ملتصقة بساقه، ما بين وجهيهما مسافة إصبع مفرود فدغدغت أنفاسها الطرية وجهه، أصابه خدر رائحة العطر الطيبة فمرقت نظراتها المشتاقة للصدام، خشي ضعف الاستكانة فشجعه كفها المفرود على كتفه وقرصة أصابعها الخفيفة على الميل نحوها فلثمت شفتاه خدها البللوري، على رقبته أمالت رأسها فاستحلى استكانتها وأغمض عينيه، أن يتوقف الزمن عن المضي هو كل ما تمناه في تلك اللحيظة، كاختلاط اللبن بالماء تمازج رضاؤهما وظلا متسورين بسوار الرغبة لا ينتظران لحظة الافتراق.

لا يدري كم مرّ من دقائق وكنانة لا تريد مفارقته، برفق تباعدت رموشه وتهيأ له أن السماء تشرخها من حين لآخر بروق لامعة، انداح

بصره وهو يسرّحه نحو الرميلة فلم يجد تفسيرًا لركض الكثير من الخيول والفرسان عليها يرفعون عصواتٍ طويلة تأكد أنها بنادقهم، استعسر عليه إدراك تدافُع الناس فابتلع ريقه وهو يدفع كتفيها برفق، نهض محدقًا في البراح الواسع أمامه والسراب يموّه الأشياء فوقفت خلفه وماسورة لامست خده.

- الناس تجري!

في حدة التفت إليها، منظار طويل تثبته على عينها اليمنى، المنظار رآه من قبل وهو صغير في أيدي الفرنسيين، دون وعي اختطفه من يدها ووضعه على عينه فقرّب له الرؤية كثيرًا، أداره وجحظت عيناه لباب العزب المغلق وجند يصوّبون بنادقهم ويطلقون الرصاص في سرعةٍ، لمح بعضهم آخِر السور من ناحية القلعة يجاهد للوقوف على صهوات خيولهم محاولين اعتلاء الجدران الصخرية ولم يلبث الواحد منهم أن يهوي بين سيقان أحصنتهم، يتدافعون أعلى الممر ومن يسقط تهرسه أقدام الفارين، أمال المنظار نحو باب القلعة الخلفي المؤدي إلى ممر قبة العزب فهاله أحد البكوات يجثو على الأرض ويرفع يده نحو واحد من الأرناؤود وهذا الأخير يسحب سكينًا طويلة ويطعنه في قلبه ثم يميله ويذبحه.

- آه آه آه.. لا حول ولا قوة إلا بالله!

انتفض إلى الخلف وألقى المنظار على الكنبة، ارتعدت قسمات وجهه، فاضت عيناه بالدموع وكنانة لا تدري ما رآه، رفعت المنظار وطفقت نظراتها تتجوّل وتصدر عنها أصوات الدهشة وتفكيرها لم يحدد صورة تفسّر لها ما ترى فأنزلت المنظار وسألته:

- ماذا يجري؟ قلْ؟

- لا أدري ولكني رأيت باب العزب أغلق وجنودًا يطلقون نيران بنادقهم على.. على المماليك وكل من خلفهم بالممر المؤدي للباب الكبير.

- أبي أكيد وسطهم.

- الله أعلم يا كنانة وممكن يكون تخلّف عن الحضور.

- يا رب، يا رب يكون عند واحد من أصحابه لا داخل القلعة.

التفت إلى وجهها فجزع لاصفراره وانكسار عينيها، على رأسها فردت كفيها ودموعها تنثال، ربّت على كتفها وهو يهدئ من قلقها، لسانها يتلعثم بالسؤال:

- لماذا أطلق عليهم الرصاص؟ والباشا يعرف أم لا؟

بئر من حيرة وقع فيها فهو يدري أنها لا تسأله ليجيب، لكن تستنكر ما رأته وتريد التحقق من نجاة أبيها، نهضت من فورها ودون أن ترافقه نزلت سلم غرفة البرج الخشبي وهو يلهث خلفها ويحادثها أن تتروّى ليستطلع الأمر فلربما أوقع الباشا شاهين بك والمماليك الألفية بفخ ونجا غيرهم، لكنها ظلت تطوي الدرجات الخشبية حتى أمسك معصمها وهما أمام غرفتها بالطابق الثاني، جرّها إلى الداخل وأغلق الباب، كتمثال يقف أمامها وبحزم قاطع يأمرها:

- لن تخرجي يا كنانة، أتدبّر الأمر وأخبرك.

خطت نحو نافذة مشربيتها وفتحتها، من بين أفرع شجرة الصفصاف رأت لفيفًا من ساكني الدرب يتدافعون ولغطهم لا يتوقف، أصوات طلقات رصاص بعيدة فارتعش وجهها، قوّس

ذراعه حول كتفيها وهو لا يصدّق أنه منذ دقائق ظن أنه وصل إلى ذروة الحياة وعيناه تحتويان أجمل وجه، وبعدها أبصر أبشع منظر رآه في حياته.

***

- أبي يا ناجي، يجب أن نجده.

زعق بها كافي وهو يشير بيده نحو باب العزب البعيد عن موضع وقوفهم وجنود على خيولهم مهتاجون ويشهرون بنادقهم وآخرون أعلى السور يطلقون النار والرجال يهيمون على وجوههم ولا يدري أيٌّ منهم سبب الحرب التي شبّت مرة واحدة من داخل أسوار القلعة أو من يتعارك مع الآخر، جرى كافي نحو مسجد السلطان حسن وهو يحني رأسه لدوي الطلقات التي ظن أنها فوقه، ظل يهرول متفاديًا الاصطدام بأجساد الهاربين تجاه الشوارع والحواري والأزقة المؤدية إلى الرميلة حتى رآه خارجًا من باب المسجد خلفه الجبرتي وأبو فراس يحوقل ويضرب كفًا بكف.

- الأفضل نغادر يا جماعة.

قالها أبو فراس فأمسك كافي ساعد أبيه اليمنى والناجي تأبّط يسراه، لكن الشيخ الجبرتي الواقف كتمثال جوار باب المسجد رفض أن يبتعد وأشار إلى كافي في حزم.

- ارجعوا أما أنا فأبقى.

- وأنا معك يا أبا خليل.

بحزم مماثل قالها أبو فراس فلم يجد حيدر بُدًا من السير السريع بين الناجي وابنه، وهما يتفاديان المهرولين كأنهم جرادٌ منتشرٌ حتى ابتعدوا عن الرميلة ولا تزال طلقات الرصاص تدوي دون انقطاع وشاع بين الناس أن فتنة وقعت بين الجند الأرناؤود، وبكوات الألفية وأمراء المماليك وعلى رأسهم شاهين بك وسليمان بك البواب وغيرهم، ظلوا سائرين والناجي يحاول تخفيف الخطوات؛ كي لا يشق على حيدر والتجار يسارعون بإغلاق أبواب حوانيتهم ويوصدونها بالأقفال مخافة النهب والسرقة التي اعتادوا عليها منذ قديم في مثل تلك الأحوال، جفلت قدما حيدر وعيناه زائغتان، صرخ في كافي ليسمعه:

- سرّي يا كافي، رأيته؟

- أكيد في البيت مع أخته، المهم نبعد عن هنا، يا ساتر استر يا رب، يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف.

ما كاد الناجي يتم دعاءه حتى تراكضت من حولهم خيول الجند الأرناؤود يشهرون سيوفهم وبنادقهم في وجوه الجميع، وما إن يروا مملوكًا حتى يطلقوا عليه الرصاص ويدهسونه بحوافر خيولهم، استحال إسراع خطوات حيدر إلى هرولة والناجي وكافي يلاحقانه فقد أيقن الشيخ أن ما تحاور به مع الجبرتي وأبي فراس عن القبض على المماليك لم يكن سوى ترهات لما تحدث، فقد كانت الغاية أبعد من التخلص منهم بالقبض عليهم.

-١٣-

تشابكت أصابعهما وهما يتلفتان أمام باب الجنينة الخلفي ولم تخجل من جاريتها الواقفة أمامهما دون أن تنبس بكلمة، نهشته أنياب القلق على أخته زينة الوادي وخشي أن تذعر من إطلاق الرصاص وفوضى الراكضين في الشوارع والأحياء، لكنها لا تخالف الأمر بمغادرة البيت مطلقًا وهذا ما أراحه بعض الشيء، في دواخل نفسه قلق على أبيه وجده من أن تصيبهما مكرهة فقرّر العودة إلى البيت سريعًا ولن يخشى على كنانة فهي بنت حريص بك ومعها خادمتها الخرساء الشجاعة التي رفعت كفها ثم أشارت إلى كنانة وفي عينيها أمارة المحافظة عليها فارتسمت على وجهه المخطوف ابتسامة باهتة وخطا نحو نقب السور، ظلّ سائرًا وعيناه تزوغان في وجوه المارة الهائمين ومهاتراتهم حول ما حدث وبصّاتهم المذعورة تشي بخوف لا مثيل له، ما إن مال نحو الشارع الكبير حتى تراجع في سرعة ملتصقًا بجدار أحد البيوت لركض خيول متجهة نحو دار سليم بك الدمرجي.

بخيولهم اقتحم الجند الباب الأمامي لبيت كبير من المماليك وحين أشار لهم الخادم أن يتوقفوا أصابه أحدهم بطعنة في ذراعه فصرخ الرجل والدماء تغرق جلبابه، بنفس تلبّسها الهلع راقبهم سر النهر وهم ينزلون من على صهوات خيولهم ويجمعون كل ما تطوله أيديهم من نفائس حتى أن أحدهم أمر صاحب عربة يجرها بغل بأن يتوقف

ليحمل عليها كل ما يغتنمه وأصوات سيدات الدار تعلو بالصراخ والناس وقوف لا يبدي أي منهم اعتراضًا، غلت الدماء في عروقه وهو يرى جنديًّا أرنؤوديًّا يجر سيدة رضراضة وهي تدفعه فيسلب ما تتزين به من أقراط وخلع خواتم أصابعها ولم تمنعه دناءة نفسه من سحب ما ترتديه من فراء ثمين والسيدة تصرخ وخادمتها تجاهد لتدافع عنها وهي تزعق:

- اترك الخوند[1] الكريمة، يا ناس، يا أصحاب المروءة.

لم تسلم الجارية نفسها من اعتداء الأرناؤود عليها وسلب ما تتختّم به وطالت ظهرها صفعة من سوط كبيرهم، تمنّى سر النهر أن يكون ما يراه كابوسًا ينتظر بين لحظة وأخرى أن يستفيق من إطباقه على صدره، علا صوت قائد الأرناؤود بالتقهقر بعد النهب وأمر تابعًا ممن يقبضون على المشاعل بإلقاء النار على الإسطبل جانب الدار فاشتعل مخزون القش والعلف، وسر النهر يرقب ما يقترفه الأرناؤود ومن يعاونهم من زعار وألاضيش وسفلة الحواري والأزقة وتفكيره مشلول لا يجد تفسيرًا لما يحدث.

***

- نحمد الله يا بنيتي أنك بخير.
- بخير يا جدي، لكن سرّي لم يعد.

(1) الخوند: لقب شاع بين المماليك يفيد الاحترام، ويعني السيدة الجليلة.

تأرجحت عينا زينة الوادي بين وجه أبيها المرسومة عليه آيات الخوف وجدها المكسو بالألم ووجه الناجي وعيناه تكادان تبكيان مما شاهد وسمع، لم يضيّع حيدر الوقت واستدار خارجًا من البيت.

- أفتش عنه بنفسي.

- أنت يا أبي! استرح وأبحث أنا عن سرّي.

ما إن فارق حيدر البيت حتى لقيه أبو فراس وهو يخطو وصدره يكاد ينخلع من فرط الإجهاد، أمامهما فرد كفه يستوقفهم ثم انتصب إصبعه محذرًا:

- إلى أين يا حيدر أنت وولدك؟

- سر النهر بن كافي لم يرجع.

- ارجعْ أنت ومن معك ولا تخرج من دارك؛ الأرناؤود كالجراد في شوارع البلد ينهبون بيوت البكوات وقصورهم ولا يردعهم رادع ولو تعرّض لهم أي إنسان يقتلونه على الفور ويتقرّبون برأسه إلى الباشا.

- الباشا؟!

- نعم يا حيدر، أكاد أجزم أن الباشا نفسه هو من أمر بقتل شاهين والألفية بممر باب العزب وجنده يفتكون بأي واحد منهم لم يكن معهم بالقلعة، أقنعت الشيخ عبد الرحمن بالعودة لداره وربنا يسترها.

كما قابلهما مصادفة غادر وقفتهما دون كلمة أخرى وعصاته تسبقه، ثلاثتهم واجمون تتلبسهم كل صنوف الحيرة، العجوز تختنق روحه، تخالط حلم فجر اليوم بحقيقة الضحى المفجعة، لم يكن خياله يجنح لما رآه مع الناجي وكافي من سرعة الأرناؤود وهجمتهم، وشهدهم يكبسون على بيت ذي الفقار تابع جوهر وهو غائب مع من لفهم الموت بعباءته السوداء خلف باب العزب طالبين النهب والغنيمة وغادروه بعد أن لحست أياديهم خزائنه وتركوه خربًا خاويًا من أي متاع وغيرهم باغتوا بيت يوسف بك أبو دياب فلما لم يجدوا فيه غير الجواري أمر كبير الأرناؤود بعدم نهبه واستخلصه لنفسه يسكن فيه وهو على ثقة أن صاحبه حُزّ رأسه بالقلعة...

- أخي يا عم حيدر.

أفاقته نبرة صوت الناجي المريرة والدموع تغرق خده المرتعش، تشجّعت قدماه وخطت خطوتين فأمسك كافي بتلابيب جلبابه ليوقفه وعاونته يد حيدر القوية وهو يجره داخل البيت ويبادر كافي بإغلاق الباب والشمس تميل نحو الغروب، مخالب القلق تخمش روح حيدر المهلهلة على سر النهر وغيابه، خمّن أن يكون التجأ إلى الأزهر؛ ليأمن على نفسه ولم يلبث أن يعود قبل زوال الشمس لكن النهار ينقضي ولا عودة لسر النهر.

- سيخربون بيت أخي حريص.

تارة أخرى ترتعش شفتا الناجي وهو يتلجلج بكلماته في عبثية المخضوض على مصير أخيه وبيته فاستجمع حيدر أنفاسه ونظر في عيني الناجي الهلعتين.

- قضاء الله يا ناجي لا يرده شيء.
- لكنه أخي، وابنه السيد وكنانة الصغيرة.
- هما من تخشى عليهما وحقك الاطمئنان على بنت أخيك، اصبر وأرافقك.

من فوره غاب حيدر للداخل ترافقه أصوات غمغمته المعترضة على كل ما يحدث، كافي لا يزال يقوّس ذراعه حول كتفي صديقه وينتظر ما تكشف عنه خبايا نكبة اليوم بالبكوات التي لم يدروا إلى هذه اللحظة منتهاها، لم يلبث أن عاد حيدر واستبدل بعكازه الحربة الطويلة ونصلها يلتمع بأشعة الغروب، أشار إلى كافي في حسم.

- ابق مع زينة.

ولأنه يعرف أباه وطلبه الذي لا يجب مناقشته إياه في تلك الظروف الحرجة فانصاع للأمر دون جدال وحمد ربه أن ابنته بخير والأفضل أن يمتكث معها في البيت لكن شفقته على أبيه دفعته أن يرجوه:

- ابق أنت يا أبي وأبحث أنا عن سرّي ونطمئن على كنانة بنت حريص.
- لا.

فاه بها حيدر في حزم فعجز كافي عن استمرار الجدال، تلاقت عيناه بعيني الناجي وهزّ رأسه كأنه يوصيه بأبيه، تقدّم حيدر، والناجي يتبعه إلى أن ابتعدا عن البيت والسماء تتدثر بأروبة شاحبة على نهار يوشك على الأفول فتراقص لهب المشاعلية وهم على خيولهم يجوبون الشوارع والأرناؤود لا يزالون يكبسون البيوت وينهبون ما

تطوله أيديهم من أمتعة، في توجس ظلا سائرين مجتنبين مواجهة أية ثلة من الجند أو من يتبعهم من أراذل الواشين على بيوت البكوات وحواصل خيولهم الكبيرة يرافقون الأرناؤود والعثمانية لتقتنص أيديهم بقايا الغنائم من بُسط ومفروشات وأشياء ثمينة.

اقتربا من بيت رستم بك الشرقاوي والجند منهمكون في نهبه ومن باب حديقته الخلفية رأى حيدر رجلًا يلف رأسه بعصابة سوداء يطارد سيدة وتقبض أصابعه على كتفها فتصرخ من شدة الألم، تجاهد كي تبعده عنها وهو لا يكف عن سبها وانتزاع عقدها، أمسك يدها ليخلع عنها السوار الثمين فاستعصى عليه، بين أصابعه التمعت السكين وهو يرفعها ويذبح معصم المرأة فتصرخ من فرط الألم، غلت الدماء في عروق الناجي فتراكضت قدماه محاولًا منعه من التمادي في جرح السيدة التي التصقت بالجدار، والمجرم مستمر في قطع رسغها حتى إذا ما أنهى فعلته تهدلت اليد وانفصلت عن الساعد النازف، زعق الناجي وحين استدار الرجل لمواجهته جحظت عينا حيدر لوجهه القميء بشفته المشرومة وعينه المخبأة خلف خرقة سوداء كليلته، شهر المجرم التابع القديم لفرط الرمان سيفه ليقتل الناجي، بصوت مسموع زأر حيدر وحربته كانت الأسرع فمرقت وأزيزها يصم أذني الناجي فاخترقت قلب الأعور وهو يضرب بسيفه الهواء فعاجله الناجي بخنجره فنفرت الدماء من زلعومه، شخر وعيناه جاحظتان ووقع يتخبط في التراب، في سرعة رفع الناجي ساعد السيدة والدماء تسيل في غزارة ووجها الباكي مذهول مما أصابها، شجّ جلبابه ورفع المزق أمام حيدر فالتقط خرقة القماش وطفق يلف

الرسغ في محاولة ليوقف النزيف، والسيدة لا حول لها ولا قوة وقد كستها كل صنوف الألم والفزع والحسرة، ودماؤها تخضب جلبابها المعفّر بالتراب، بيدها السليمة تشير في انكسار وشفتاها ترتعشان:

- سيدتي.

في آنٍ واحد التفت حيدر والناجي فرأيا سيدة لا يبين وجهها من شُقّة سوداء تغطي قامتها وخادمها يبتعد بها عن البيت فأدرك حيدر أنها ربما تكون زوجة رستم بك، في وهن خطت الجارية المكلومة نحو سيدتها ولا تزال تقبض على ساعدها والدماء تنقط من موضع يدها المفصولة، أركبها الخادم حمارًا وقاد لجامه بعيدًا عن البيت والنيران قد اشتعلت في طوابقه العالية.

استرد حيدر حربته وبمزق آخر من جلبابه مسح ما على نصلها من دماء، ألقى نظرة أخيرة على الأعور وسمعه الناجي وهو يقول في غضب:

- والله لولا حرام لأحرقتك بالنار يا خنزير.
- ما نفعل به يا عم حيدر؟
- هل نغسّله وندفنه ونتقبل العزاء فيه؟ نتركه تنهشه الكلاب، هيا.

واصل حيدر السير وهو يشعر أنه أخيرًا أخذ بثأر ميمونة زوجة كافي، من بعيد تومض المشاعل وأصوات متفرقة تعلو وتنخفض، اقتربا من سور حديقة بيت حريص والدنيا تسربلت بأردية الظلام، الباب مفتوح فاقتحمه الناجي في جرأة دفعت حيدر أن يلاحقه حتى

اجتازا تعريشة العنب الكبيرة وارتعب الناجي لباب البيت المفتوح على مصراعيه، دخل والمسارج المعلقة على الحيطان لا تزال تنير المطرح وقد بدا عليه النهب في أبشع صوره، مشادة كلامية تنبعث من إحدى الحجرات فرفع حيدر حربته، بزغ وجها اثنين من أوباش اللصوص فما إن رأيا حيدر والناجي حتى أطلقا سيقانهما للريح وبقية من أشياء سرقاها تتبعثر، طاردتهما زعقات الناجي الملتاثة وهو يقف في بهو بيت أخيه الخرب:

- كنانة، السيد، أخي حريص!

في صوت مبحوح كرّر مناداته وحيدر يوقن أن لا أحد منهم بالدار الكبيرة، التفت في حدة وكلماته المتقطعة تنتشر وهو يشهر خنجره:

- لا يهمني حريص، ولا السيد، كنانة يا عم حيدر، سأقتل الأرناؤود وأقطع رقاب الزعر الملاعين.

- لنخرج يا ناجي.

جذب حيدر ذراع الناجي نحو الباب، الكلاب المقيدة أمام حواصل الغلال مهتاجة وتنبح من بعيد، خرجا وسارا قرابة قصبتين، نحو جار بيت حريص لوى الناجي رأسه وهاله وجود جسم قاعد وظهره إلى الجدار، اقترب وهو يحسب أنه واحد من الخدم وشكّ أن يكون حيًا فيسعفه، ندت عنه صرخة مكتومة لرأس ابن أخيه المتهدل على صدره والدماء تبكّ من فمه، جرى نحوه وحيدر يتبعه، رفع رأس السيد ففزع لوجهه الشاحب المرسوم عليه أمارات الخوف،

أصابع حيدر العجفاء قبضت على ساق السهم المغروز في موضع القلب وبحركة خاطفة انتزعه.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

نهنهة محبوسة أفصحت عن مدى ما يقاسيه الناجي من قهر لما آل إليه بيت أخيه المتفاخر بلقب البك، فأيقن أن أخاه لم يخرج من القلعة، وها هو بيته نهبه أراذل اللصوص وابنه مطعون في قلبه، في وهن حمله الناجي وعاد به إلى البيت، تخطّى المجاز إلى أن وقف في بهو الأعمدة، تلفّت ولم يلبث أن دلف حجرة منزوية وحيدر يتقدّمه وقدمه تتخبّط في قنائن الخمر الملقاة بإهمال والنارجيلة الفضية منكسرة، على السرير أراحه، التقط حيدر ملاءة وفردها على الجسد المسجّى، بكفه أسبل عينيه، غطّى وجهه المائل نحو اليسار ووقف جوار الناجي محترمًا حزنه على مصرع ابن أخيه وكتل الفزع الكبرى تجثم على صدره لمصير كنانة المجهول.

-١٤-

لا يدري لِمَ ملكه الفزع على مصير كنانة فلم يأبه بأي شيء سوى نجاتها، تخاطف تفكيره فعاد أدراجه وراعته الصيحات العالية وأهالي الأزقة والحواري يجرون نحو بيوتهم أو المساجد للاحتماء بها من بطش الأرناؤود الذين لم يفرقوا بين طرائدهم من المماليك وغيرهم من أهل القاهرة الموسرين، جرى كبقيتهم حتى قادته قدماه إلى سور الحديقة، حين عبر رأسه الفتحة الواطئة أبصر سيقان الخيول مقتحمة الممر المؤدي إلى باب البيت الكبير، جرى نحو الباب الخلفي وقرعه بقوة فانفتح ليطل عليه وجه مقبلة ومن خلفها جارية وبينهما كنانة والخوف يكسو هيأتها من هجوم الغرباء على البيت وأبوها غائب لا تدري مصيره، وأخوها لا تعلم عنه شيئًا، خرجت مقبلة ومن خلفها كنانة، أصوات الجند وصيحاتهم ترج بهو الأعمدة فشهقت الجارية وفارقتهم هائمة على وجهها لا ترجو سوى النجاة بنفسها.

مدّ يده فقبضت أصابعه على معصم كنانة وجذبها لتخرج من البيت، أغلقت مقبلة الباب بإحكام وحين قاد الفتاة نحو النقب جفلت قدماها ووقفت وشفتاها ترتعشان والدموع تطفر من عينيها:

- بيتي؟

– تعودين إليه فيما بعد، والآن يجب النجاة من الأرناؤود واللصوص القتلة، رأيتهم ينهبون البيوت ويقسّمون على أنفسهم الستات والخوندات.

– أبي، أخي؟

– المهم أنتِ يا كنانة، لا أطيق رؤيتهم يجرونك فسأموت دونك لو حصل، أرجوكِ نذهب لا وقت لدينا.

خلعت مقبلة من فوق رأسها ملفعة سوداء ونفضتها ثم لفت رأس سيدتها وأصوات المقتحمين للبيت تصطخب فارتعبت كنانة وهان عليها كل شيء في سبيل عدم الوقوع بين أيدي هؤلاء، بنفسٍ مطواعةٍ استسلمت لقيادة سر النهر فعبروا نقب السور، أصابعه تطبق على رسغها ومقبلة عليها تأمين سيرهم من الخلف حتى إذا ما مالوا مع شقٍ ضيقٍ سدّ عليهم الطريق اثنان من الزعر بيد أحدهما بندقية قصيرة والآخر يرفع عصا غليظة.

– واحدة من خوندات البكوات تهرب مع جاريتها وخادمها الأسود.

– هي وجاريتها لنا.

فاه بها الآخر وانفراجة شفتيه تكشف أنيابًا ذئبية تقطّر رغبة الاقتناص، ثبتت قدما سر النهر، نحّى كنانة إلى الخلف ودسّ يده بجلبابه، رفع الأول البندقية مهددًا فعاجلته مقبلة بإلقاء نفسها عليه في الوقت الذي تحاشى سر النهر ضربة عصا الآخر مادًا ذراعه المفتولة بالخنجر نحو جنبه فصرخ وهو يتلوّى على الأرض مما دفع

المتسلح بالبندقية لأن يطلق رصاصة فأصابت كتف مقبلة، سحب سر النهر العصا الغليظة وانهال على رأس صاحب البندقية حتى شجه فتكوّم بدوره على مقربة من رفيقه، تأوّهت مقبلة وهي تمسك كتفها، في سرعة فحص جرحها فتأكد أن الرصاصة طاشت في الهواء بعد إصابتها، غطّى الجرح وكنانة تفرد كفيها على وجهها باكية، قرّر العودة مباشرة إلى البيت وجده حيدر سيعرف كيف يداوي جرح مقبلة، لكن عليه الخروج من الزقاق الضيق وأشد ما أخافَه أن يعود إلى الشارع الكبير فيتقبّض عليهم الأرناؤود وهذه المرة لن يصمد خنجره أمام بنادقهم وخيولهم القوية فيكون مصيره القتل.

زاغت عيناه بين جنبات جدران البيوت فومضت في ذهنه فكرة، فقاد الفتاتين نحو آخر بيت بالزقاق وهو بيت سيدة ركّب لها يومًا بابًا وأقفالًا ويعرف أنها تعيش وحيدة وبيتها له باب خلفي يفتح على الزقاق الآخر، لم يتردد ودق اليد الحديدية بقوة، في توجسٍ انفرجت مشربية النافذة الصغيرة وأطلّت العجوز والظلام لا يكاد يبيّن وجهها.

- سر النهر يا ست صفية، أنا ابن كافي الحداد.

لم تتحاور السيدة وأغلقت نافذتها، ببطء يمرّ الوقت ومقبلة تعض شفتها من فرط ألم كتفها المحترقة وكنانة واجمة مستسلمة لا تدري ما تفعل، انفتح الباب فدفع سر النهر كنانة أولًا فتبعتها مقبلة ثم دخل وأغلق بنفسه الباب والعجوز ترفع في وجوههم شمعة قصيرة فأنار ضوؤها الشحيح البقعة.

- معذرة، سنخرج من الباب الخلفي.

دون أن تعلق حملقت العجوز وأشارت، قطع سر النهر المجاز الضيق نحو الباب الآخر والعجوز في إثرهم تتبعثر كلمات تحذيرها:

- احذر يا ولد، الزعر وقطاع الطريق يقتلونكم.

في حذر فتح الباب وبسرعة أغلقته العجوز، خرجوا يتلفت كل منهم حوله؛ يد كنانة باردة من فرط خوفها وتوقع المكروه، مقبلة تلهث وهي تشير إلى مشاعل مرفوعة على أيدي فرقة من الخيالة يقفون أمام أحد البيوت الكبيرة أول الحارة، تراجع بظهره فتبعته الفتاتان، تمنّى أن تفتح لهم صفية وتخبئهم حتى يرحل المشاعلية لكن أمله خاب حين دق الباب برفق ولم تستجب العجوز، اعتصرت أصابعه مقبض الخنجر وأصوات المشاعلية ترتفع وهم يكبسون على البيت فأيقن أن يكون لأحد بكوات المماليك دلهم عليه شقي من الزعار أو لصوص البلد، خشي إن مدّ أحدهم بصره إلى نهاية الدرب سيقعون في أيديهم، من بين فواصل اليأس والرجاء يغمض عينيه ويفتحهما لانفراجة الباب المقابل في حرص حتى لا يصدر صوتًا وذراعٌ صامتة تشير، أمسك بيد كنانة وقادها نحو الباب ومقبلة تخطو على أطراف أصابعها حتى اقتحموا فأغلق الشاب المزلاج وهو يشير إليهم ألا يصدروا أي صوت.

على ضوء مسرجة الزيت الكبيرة التي رفعها صاحب البيت جحظت عينا سر النهر لعبد القادر الإزميري بوجهه الأبيض المشرّب بحمرة أهل الشمال، اختلطت مشاعره بين الفرح والتوجس والخوف من أن يشي بهم الإزميري لجنود بلده.

- يجب أن نمشي.

- ليس قبل رحيل الأرناؤود من الشارع يا سر النهر.

- مقبلة، تعمل لدى الشيخ الجبرتي وهي مجروحة في كتفها.

هوّم عبد القادر برأسه وفرد ذراعه ليستريحوا على كنبة متواضعة وكنانة مطبقة شفتيها، والغصّة تكاد تخنق روحها على ليلتها التي لم تكن تتصوّر أن تقاسي وقعاتها، غاب عبد القادر وعاد وبين يديه صندوق خشبي ركنه على المنضدة، أصوات بالخارج فخطا في خفة القط نحو الباب، واربه ثم أغلقه وعاد إليهم، غسل يديه وفي خجل أشار لصاحبه ففهم أنه يجب أن تعرّي مقبلة كتفها، نهضت كنانة وعاونت خادمتها في سحب ملبسها الرث، بخرقة مبلولة بالماء نظف عبد القادر الجرح ماسحًا الدماء المتلزّجة من حوله ومقبلة دون صوت تكز أسنانها من الألم، أخرج قنينة صغيرة ونزع السدادة الخشبية، بحرص شديد أمالها فتقطّر سائل ذو رائحة نفاذة، مسح به الجرح، دون أن يلتفت يشرح ما يقوم به:

- زيت السوسن مطهر قوي للجروح، أحضرته من عند أخوالي في دمشق.

- أمك دمشقية يا عبد القادر؟

- نعم، يسكن أخوالنا عند جبل قاسيون وهناك تنتشر زراعة زهور السوسن وتُستخدم لتخفيف الآلام.

أمامه رفع كيسًا جلديًا كقربة صغيرة وفك رباطه، ضغط برفق فبزقت من فم الكيس عجينة وضع القليل منها على الجرح ولفه بمزق القماش الطويل وربط طرفه في إحكام، غطت كنانة ذراع مقبلة

التي شعرت بابتراد جرحها بعض الشيء وأمالت يدها في رفق، التفت عبد القادر وضرب كفًا بكف وهو يقول:

- عرفت بما حصل، غدر الباشا بالمماليك.
- المهم يا عبد القادر يجب أن تعود سيدتي كنانة إلى البيت.
- سيدتك؟
- إنها بنت حريص بك وهو غائب منذ الصباح؟

قالها ثم عضّ شفته على تسرعه في إفشاء حقيقة كنانة أمام الإزميري الغريب وتحفزت نفسه للدفاع عنها إن بَدرت منه أي بادرة للغدر بهم، نهض عبد القادر ومن طاقة بالجدار سحب طبقًا مغطّى بمنديل كبير، قدّم التمر أمامهم وقرّب قلة الماء. خبط قوي على الباب دفعه لأن ينتتر من مكانه.

- لا تفتح.
- إن لم أفتح ظنوا البيت بلا ساكن ويكسرون الباب فيجدوننا.

نهض عبد القادر من فوره وفتح الباب فدفعه أحدهم مشهرًا بندقيته، على ضوء المشاعل دارت عيناه تمسح أثاث البيت المتواضع، استقرت نظراته نحو كنانة المرتجفة في صمت.

- إنها أختي والولد والبنت يعملان لديّ في غزل مفارش الصوف.
- القائد يطلبك حضرة سنجق.

قاطعه دخول واحد من المشاعلية فاستدار الجندي في سرعة وأشاح بذراعه مستهينًا بفقر البيت، وخرج خلف رفيقه فسارع عبد القادر بإغلاق الباب، سر النهر يقبض على الخنجر وكنانة قلبها يكاد يتوقف من الهلع، نهضت مقبلة ولاعبت أصابعها فهزّت كنانة رأسها مرات وهي تخبرهم:

- غرضها نمشي، نذهب عند سيدتها نفيسة.
- بيتها بدرب عبد الحق.
- اصبروا.

أطلّ عبد القادر ليتأكد من مغادرة المشاعلية، ظلّ الباب مواربًا فتأكد من ابتعادهم، نهض ثلاثتهم فأطرق سر النهر وشفتاه تلقي كلماته:

- أشكرك يا عبد القادر، حقيقة كنت أشك أنك...
- أسلمكم للأرناؤود، فيما بعد تعرف من هو عبد القادر الإزميري، على كلٍ أصحبكم لأول الشارع لأنير لكم الطريق.

تأبطت كنانة ذراع سر النهر ويسارها بيمين مقبلة غير المصاب، في حذر مشوب بالخوف تبعوا عبد القادر وبيوت الدرب موصدة الأبواب على أصحابها الذين خشوا المشاعلية، مروا بذلك البيت الكبير لأحد بكوات المماليك، في الظلام رمقته كنانة وسقط قلبها بين ضلوعها لتخيلها أن بيتها قد نهب كهذه الدار وضباع اللصوص تتربّص ببقية الأثاث لتقتنصه قبل طلوع النهار، أول الشارع توقف عبد القادر فالتفت إليه سر النهر:

- أقابلك عند الشيخ الجبرتي إن شاء الله.

دون كلمة قاد الفتاتين وبقي عبد القادر واقفًا يمسك المسرجة إلى أن انحنوا في الشارع الجانبي وغاصوا بظلامه.

***

العجوز واقفة أمام باب بيتها، تدور عيناها بوجوه الصغار فلم تضيّع مقبلة الوقت وسحبت كنانة من معصمها، تنحّت نفيسة البيضا قليلًا لتسمح بدخول سر النهر فأغلق خلفه الباب وسار ثلاثتهم خلف شمعة السيدة التي تضيء لهم المجاز إلى الغرفة الكبيرة، أشارت إليهم أن يجلسوا فانهارت مقبلة على الكنبة من فرط الإعياء وما فقدت من دماء.

- أصيبت ونحن في طريقنا وواحد من أصحابي داوى جرحها.

في وهن تلاعبت أصابع مقبلة ونهنهاتها الضعيفة تفصح عما تعانيه من ألم فأومأت العجوز بأنها تدرك مغزى إشاراتها، أدارت رأسها نحو الفتاة ورفعت حاجبها لوجهها الأبيض والنعماء تبدو على قسماتها المرتعبة.

- كنانة بنت حريص النجار.
- مرحبًا بنيتي، مقبلة تحبك.
- الأرناؤود...
- هاجموا بيتك ونهبوه، عرفت بكل ما حصل؛ دخلوا عندي ولما لم يجدوا شيئًا مشوا.
- ولم تخافي يا سيدتي؟
- وعلى أي شيء أخاف ولم أعد من الموسرين.

- أنت موسرة بقلبك العامر بالعطاء وروحك الجميلة سيدتنا.

بابتسامة موجوعة فاهت كنانة بكلماتها المصبوغة بالقلق على مصير أبيها ووجدتها فرصة لأن تستفسر من السيدة الوقور عما حدث، همّت أن تسأل فرأتها تبلل شفتيها بلسانها وهي تحوط كنانة بنظرات مملوءة بالحنو.

- أعرف أمك، أخت الأمير جقمق الصغير.
- ليست أمي، هي زوجة أبي وأم أخي السيد.
- آه، ربما نسيت معذرة.
- وأبي؟

أغمضت السيدة عينيها وأدركت غرض الفتاة وسبب انكسارات وجهها، فزفرت نفسًا طويلًا وهي تجيبها:

- نرجو من الله ألا يكون طلع القلعة، فسمعت أن جميعهم قتلوا خلف باب العزب، الباشا لم يكن يخشى أحدًا قدر خوفه من البكوات، أنا أفهمه، عشت سنواتي كلها بين دسائس المماليك، كلٌ منهم ينصب الفخ للآخر وما إن يوقعه حتى يصير بقرة تكثر السكاكين حوله وأزواجي قتلوا جراء خيانات دبرت حولهم، جملة القول، الجيش مسافر الحجاز وخاف الباشا غدر المماليك به خصوصًا شاهين بك وحسين بك الصغير وهم من كبار الألفية وغيرهم مثل الكلارجي وسليمان البواب و...

قاطعها دخول مقبلة التي تطوّعت وأحضرت شراب النعناع الساخن المحلّى بالعسل، من فوره نهض سر النهر وحمل من بين يديها

الطاولة ووضعها على المنضدة الواطئة، قدّم أول الأكواب للسيدة فتناولته منه بهدوء، غوائل من قلق تلبّست نفس كنانة المأزومة فسألتها في قهر:

- ولِمَ يهجم جنده على أهل القاهرة؟

- الأرناؤود ينفذون أمره يا بنتي، وهدفهم ليس الأهالي وإنما بيوت وقصور المماليك من حضر الحفل ومن لم يحضر، يبدو أنه لن يقنع بغير قتلهم.

- أبي ابن رحيم النجار المصري ليس مملوكًا، فقط يعمل في تجارة مع قايد بك وجقمق الصغير وغيرهما.

- نرجو من الله أن ينجيه، وأنتَ يا ولد، تبقى ساعةً وتعود إلى بيتك وتترك كنانة هنا مع مقبلة.

في صمت صدع للأمر غير المتوقع من السيدة نفيسة وأدار الموقف في رأسه فوجده على قدر من الحكمة؛ فإيواء كنانة هنا أمان وفيما بعد يخبر الناجي بمكمنها فيأتي وربما يبحث عنها أخوها السيد ويعود معها إلى البيت، ما يهمه أن تكون كنانة بعيدة عن أيدي الأرناؤود وأعوانهم من الزعار وما حدث نهارًا وأول الليل ما هو إلا بداية، فإن نجا من لصين مخبولين فقد تصيبه نيران المشاعلية وطلقاتهم التي لا تخيب وحرصهم على سبي كل من تطوله أيديهم من نساء المماليك مستحصنين بأمر الباشا.

- لا.

صُدِم سر النهر برفض كنانة طلب السيدة فبرقت عيناها الواسعتان وهي تحملق في وجه الفتاة وقد استعادت بعضًا من رزانتها، أكدت رأيها بتكرار الكلمة:

- لا قعود لي هنا وأشكر لك رغبتك، يلزم عودتي لبيتي.
- بيتك منهوب.
- يعود أبي ويصلحه وإن كان هرب فارًا بنفسه فيبقى بيت عمي الناجي.

ملكته كل مشاعر الإعجاب بكنانة التي تفضّل الاطمئنان على أهلها حتى لو في حالك الظلام، ولو سمحت السيدة لها بالانصراف سيحميها حتى يسلمها للناجي وهو يعيدها لبيتها وأبيها إن كتبت له النجاة من شقّي رحى الانتقام الذي دبره الباشا ورجاله بالمماليك وأتباعهم وهرسهم حتى لا يعودوا لمناوأته كما فهم من كلام السيدة نفيسة، أطرقت كنانة رأسها وفاهت في خفوت:

- وإن لم أجد أحدًا من أهلي فسر النهر موجود يا ستنا وأخته زينة الوادي طيبة القلب وأبوه والجد حيدر من أخلص الناس.

أغمض عينيه وخفق قلبه في شدة، استحال شعوره من مجرد حماية كنانة إلى نهر جارف من الحب استحلى الاستسلام لدواماته فها هي فتاته وقرّة عينه تثق فيه وتفضّل رفقته والاستعصام بعائلته الجنوبية عن أي بيت بالقاهرة من أقاربها ومعارف أبيها الأثرياء. من فورها نهضت، أشارت لمقبلة فقادتها إلى الداخل وغابتا قليلًا، على ضوء الشمعة رأى آثار الماء على وجه كنانة وقد ألبستها مقبلة شُقّة سوداء

قديمة، أعادت لف التلفيعة على رأسها وتهيأت للانصراف، عرضت مقبلة أن ترافقها فأجابتها كنانة بحضن دافئ:

- بل تبقين هنا لخدمة ستنا نفيسة.

نهضت السيدة نفيسة فألقت كنانة نفسها بين ذراعيها فقبّلت وجنتيها ورأسها، سبقها سر النهر ليستطلع الطريق ولحقت به، خرجا فأغلقت مقبلة الباب، تنهدت نفيسة البيضا وهزّت رأسها في أسفٍ حقيقي وهي تقول لخادمتها الصغيرة: فكرتني البنت بأيام صباي، آه يا لجموح الشباب.

-١٥-

- اهدأ يا جدي، يمكن موجود بالأزهر.
- يسمع منك ربنا يا زينة، وربنا ييسر وأبوك يجده.
- أبي والناجي تأخرا.
- الناجي بعد موت ابن أخيه السيد قلق على كنانة ومعذور في خروجه بالليل يسأل ويستقصي.

في قرارة نفسها تعلم مدى تعلُّق أخيها بكنانة وأنه قد يلقي بنفسه في النار من أجلها فخمّنت أن يكون في بيتها الآن أو استطاع أن ينجوَ بها بعد ما استمعت لحكاية جدها عن تغيب حريص بك ونهب الأرناؤود لبيته ومقتل ولده السيد، جاهدة تحاول تهدئة قلق جدها العجوز فهمّت أن تقول شيئًا فأحجمها قرع على الباب، الحذر دفعها لأن تسحب اللوح الخشبي الصغير من أمام فتحة مربعة، شهقت ولم تلبث أن فتحت الباب وأغلقته في سرعة.

- سرّي يا جدي ومعه...
- سرّي، قلقتُ عليك يا ولد.

علا صوتُ حيدر وهو ينهض واصطبغت كلماته بمزيج من غضب وخوف وعتاب، تفطّن لوجه كنانة البازغ كالنور من بين ملابسها السوداء والحزن المجبول بالذعر يكسوه، ارتعاشة خدها

تشي بما ذاقته الفتاة المنعّمة من ويلات خلال الساعات المنقضية، مدّ العجوز يده المعروقة.

- حمدًا لله على سلامتك، عرفنا بما حصل لبيتك وعمك الناجي يبحث عنك وسيعود.

- وأبي وأخي السيد.

- أبوكِ لم يظهر ولعله سافر لما سمع بمقتل أصحابه البكوات بالقلعة.

- مرحبًا بك يا كنانة، بيتك ومطرحك.

- أشكرك يا زينة، أخي السيد لم يصحب أبي للقلعة؟

ألقت بسؤالها ووجهها ينضح بالقلق المضني على مصير أخيها، لم يشأ حيدر أن يكيل لنفس الفتاة انكسارات على ما فيها فأطرق رأسه وأجابها بهدوء:

- عندما يعود عمك الناجي يخبرك بما يعرف.

برده المقتضب نأى بنفسه على أن يتسبّب باصطدام روح الفتاة اليتيمة المهشمة لخراب بيتها المنيف بفاجعة مقتل أخيها رغم علمه أن السيد لم يترك في نفسها أي شعور بعطف الأخ، وأيضًا لم يحتمل إثم الكذب عليها وحمد ربه أن سر النهر لا يعلم شيئًا غير ما تعرف الفتاة من نهب بيتها، التفت إلى زينة وهزّ رأسه مصطنعًا الجدية:

- جهزي العشاء لأختك، لنا كلنا.

- نجهزه معًا.

على استحياء عرضت كنانة معاونة زينة وفي نفسها شعور بثقل استضافتها ببيت سر النهر وهم من مساتير الناس، فأقل ما تخفف من وجودها هو العمل بنفسها لحين عودة عمها الناجي، ترافقتا إلى الداخل وانفرد حيدر بسر النهر، دون أن يسأله قصّ كل ما مر به من أهوال والجد يركن ذقنه على قبضته المضمومة ويستمع ولا يقاطع حتى إذا ما أنهى روايته، شفى صدر حفيده برده:

- حسنًا فعلت يا بني، كنانة أمانة، نردّها لعمها حين يعود واكتمْ ما أقول، الأرناؤود واللصوص نهبوا بيت حريص، الخدم فرّوا، أما أم السيد فعرفنا أنها من شهور عند أهلها بالإسكندرية...

- والسيد، هرب هو الآخر؟

- السيد قُتل.

- قُتل؟! ومن قتله؟

- يعلم ذلك علام الغيوب، يظهر أنه حاول الدفاع عن البيت لكنه غُلب على أمره، وجدناه مطعونًا أسفل سور بيت جيرانه.

- على كلٍ، كنانة كانت تكرهه لما يفعل فيها ومرة جلدها بالسوط.

- لكنه أخوها، و... كيف عرفت؟

- منها يا جدي.

- في ليلة أو ربما ليالٍ سابقة، الله.. الله...

- تشك فيّ يا ابن زرع النيل؟

ولأن سر النهر يتخذ من جده صديقًا فهازحه ببراءة وهو يضمر أنه سيروي له زياراته لكنانة ولكنه لم يجد الوقت المناسب ليختلي به ويحادثه في هذا الأمر بل وأمر آخر عزم على طلبه، أفاقته ضحكة جده الخفيفة وهو يمسح بكفه على رأسه ويطلب منه الحموم لإزالة آثار رائحته فنهض من فوره إلى الحمّام ونفسه قريرة عما فعل مع كنانة.

***

على كتف كافي يتسنّد الناجي ويجرّ ساقيه وقد بلغ منه الإرهاق، تحالفت أحداث النهار مع حزنه لما أصاب بيت أخيه وإذا أُضيف خواء جوفه من الزاد طيلة اليوم فجعلوا منه شبحَ إنسانٍ على وشك الوقوع فريسة لمرض اليأس ونهشه التفكير في المصير الذي حاق بحريص وابنه وبيته؛ فالحسنة التي حسب أخوه أنها خصته برفقة المماليك انقلبت سيئة تعمهم وناوشته الظنون السوداء حول كنانة فقد تكون وقعت في أسر واحد من الأرناؤود ويبيعها أو يستخدمها في بيته أو... وإن كانت بين أظافر الزعار الوسخة فسيفسقون بها ثم يرمونها على قارعة الطريق، عاد ينقم على أخيه وصوته المُحاكم يتردد صداه داخل صدره: إن كان المماليك لم نر منهم طوال عمرنا إلا السوء فلماذا ارتميتَ في أحضانهم وتشبهتَ بهم يا أخي وسوّدتَ نفسك بلقب البك وحاق بكَ ما أصابهم من نكبة الباشا.

أفاق على أضواء المشاعلية وخلفهم أناس يحملون صناديقَ وأشياء ثمينة مما غنموا، استوقفهم أول من يحمل شعلة النيران المتوهجة فشهر ثلاثة سيوفهم من أغمادها وجهز الباقون بنادقهم لإطلاق الرصاص، أشار لهم القائد بالتوقف وقرّب لهب الشعلة منهما فرفع كافي وجهه.

– أنا الحداد كافي بن حيدر ومعي صاحبي الناجي بن رحيم البولاقي النجار.

أدرك الناجي أن المشاعلية يشكون في أنهم من المماليك الذين أُمروا بقتلهم أو القبض عليهم وسوقهم إلى الكتخدا بك محمد لاظ أوغلي أو إلى الباشا نفسه للتشفّي بمشاهدة رءوسهم تتدحرج تحت قدميه، أمال الجندي نيران شعلته المتراقصة نحوهما، خفق قلب كافي حين عرفه الأرناؤودي يسّار فهو ممن ركّب لنوافذ بيته أسياخًا من الحديد، انتصبت قامة القائد يسّار المحنية وأفسح الطريق.

– عد إلى بيتك كافي ولا تخرج، هذه أوامر تُطاع.

أومأ كافي وزفر نفسًا مأسورًا في صدره وهو يساعد صديقه على الابتعاد عن قطيع مشاعلية الليل، ظلا سائرين ومن حين لآخر تتناهى لمسامعهما طلقات رصاص وأصوات صرخات بعيدة وبكاء متقطع.

– ابتعد يا بني عن بيت سالم بك العقاد.

كجنية هائمة على وجهها بزغت عجوزٌ شمطاء من زاوية مظلمة فجفل كافي ورفع الناجي ذراعه اتقاء مقاطعتها سيرهما فاستأنفت أمرها بصوت يرعد:

– أنا أعمل خبازة ببيت البك، والوحيدة نجت من سيوفهم ورصاص بنادقهم، اللصوص قتلوا كل من به وفعلوا الفاحشة في زوجة البك فغرزت المسكينة السكين في قلبها.

بنفسٍ منكسرة وصوت مشحون بالدموع فاهت الخادمة وروحها مخنوقة مما رأت من فواجع في بيت من تعمل لديهم، يعرف الناجي أن مثلها لا مأوى لها غير بيت سيدها تعمل فيه حتى تفيض روحها، ويدرك تمام الإدراك أن البك سالم العقاد كأخيه حريص، أصابته النكبة فوجدها فرصة للسؤال عن مصير سيدها:

- وسالم بك رجع؟

- فيه بك أو مملوك طلع القلعة ورجع؟! زمان رءوسهم معلقة وجثثهم مرمية عند باب العزب، رحمة الله على سيدتي سعيدة، والله كانت أطيب خلق الله.

- هوّني على نفسك يا خالة، تعالي معنا.

دون رد تركتها العجوز القصيرة وصوت دبيب خطواتها الوئيد يبتعد، ودّعت نظرات الناجي ظهرها والتفت إلى كافي.

- يعوّض عليّ ربنا.

- ربك هو المنجي ويمكن حريص حي يرزق لكنه مختبئ.

- لا يطمئن قلبي بغير رؤيته واقفًا على رجليه أو لا قدّر الله أدفن جثته.

- تفاءل بالخير تجده يا ناجي، وصلنا البيت.

نقر الباب ففتح سر النهر في سرعة، تهالك الناجي على الحصير المفروش وأمال رأسه إلى الوراء، أحسّ بالتعب يجثم على جسمه المكدود واليأس يفترس روحه المهمومة فأسبل عينيه ورغبة جامحة في الهروب مما مر به بالنوم، من بين رموشه المتشابكة اهتز شبح حيدر

فانفرجت أجفانه المثقلة رويدًا ليسلم عليه وانقلبت نظرته الناعسة إلى جحوظ للفتاة السائرة خلف قامة العجوز فانتفض واقفًا وشفتاه ترتعشان، شهقته القوية دفعت سر النهر لأن يتنحّى جانبًا لذراعي الناجي فارتمت كنانة بينهما ورائحة عرقه الفائحة تشعرها بالأمان، اختلطت أحاسيسه بين الفرحة والدهشة والحب وترجمت دموعه الغزيرة اشتياقه لبنت أخيه الحنون، فطفق يقبل رأسها ويدها وبدورها تربّت على كتفيه حتى أبعدها في رفق وأشرق الأمل في نفسه وتعب الساعات الفائتة زال، أجلسته فأتت زينة الوادي بالطبلية المستديرة وسط حصير الحلفاء، لم يدع لهما حيدر فرصة الحوار فأمر:

- العشاء يا زينة، ساعدها يا سرّي.

تارة أخرى نهض الناجي وسار في بطء وراء كافي نحو الكنيف، رفع حيدر وجه كنانة المطرق وهمس بكلماته:

- عمك بخير يطمئنك بنفسه لكن بعد العشاء.

تحلّقوا حول الطبلية المستديرة وفي صمت امتدت الأيدي فتناولوا الطعام بشهية متقطعة والناجي لا يصدّق أنه هو وصديقه لم يذوقا كسرة خبز من بدء النهار إلى هذا الهزيع الأول من الليل، يطيل عشاءه هربًا من مصارحة كنانة بما حدث لأخيها، من حين لآخر يختلس النظر لوجهها وهي تطرق في وداعة وتلوك اللقيمات ونفسها مكسورة، أنهى الناجي طعامه ونهض في تثاقل، في غرفة جانبية اختلى بسر النهر وجده فروى له كل ما مروا به حتى إصرار بنت أخيه على المجيء معه إلى البيت وهي متأكدة أنها ستقابل عمها، اضطربت

مشاعر الناجي تجاه الشاب الصغير؛ أيوبخه أم يعاتبه لكنه طبطب على كتفه وضمه إلى صدره.

- أحسنت يا حبيبي، لولاك لضاعت كنانة.

- الحمد لله يا ناجي وربنا يرحم السيد و...

- بخصوص ابن أخي، يجب دفنه يا عم حيدر وربنا عنده العون لما تعرف كنانة خبر موته.

- حاضر يا ناجي، باكر إن شاء الله نذهب إلى هناك ونجهزه وندفنه.

- وحريص بك أخي يجب البحث عنه ودفنه هو الآخر.

***

- عنك، سيدتي.

قالتها زينة الوادي وهي تسحب الطبق من بين يدي أصابع كنانة التي همّت بغسله وحدّجت رفيقتها بنظرة مملوءة بالعتاب.

- لا تقوليها ثانية يا زينة، فأنتِ أختي ووالله ما رأيت أطيب من الجد حيدر وعمي كافي ولا أشجع من سر النهر ولا أكرم منك.

- ولكن من الأصول ألا يستخدم الإنسان ضيفه.

- وحكيمة مثل الجد حيدر، لو أن أبي سمع كلامه هو وعمي الناجي ما كان بيتنا خرب.

أصرّت كنانة على حمل طاولة أكواب اللبن الساخن، سارت أمامها زينة الوادي بطبق التمر وجلستا متلاصقتين جوار الجدار، لكن كافي المنهك طوال اليوم وقف معلنًا رغبته في النوم وتبعه الناجي

وهو يترنّح من النعاس وزادت رغبته بعد أن أهال الماء الساخن على جسمه قبل العشاء، أشار الناجي إلى كنانة فتبعته نحو غرفة الجد حيدر.

– كنانة يا ابنتي، رغم صغر سنك مشهود لك بقوتك وشجاعتك ورجاحة عقلك.

– قلْ يا عمي، مكروهًا أصاب أبي؟

قالتها وأنفاسها مشتتة فأطبق الناجي شفتيه واحتبست الكلمات في صدره، على ضوء المصباح الشاحب ربّت حيدر على كتفها وهو يخبرها:

– حريص لا نعرف مصيره أما ما تأكدنا منه هو أخوك السيد، يرحمه ربنا.

– أخي السيد مات!

– نعم، مات وهو يدافع عن البيت، ومن النجمة ندفنه معزّزًا مكرّمًا.

رغم مشاعرها الكارهة لأخيها السيد واضطهاده لها وكتمانه لأنفاسها لم تستطع منع دموعها المنثالة على خدها وهي تردد:

– رحمه الله.

– نعلم أنك قوية وربنا سخّر لك أولاد الحلال فنجوتِ من أيدي الأرناؤود والزعر وأوباش اللصوص بمعجزة، صدقيني يا ابنة أخي لم أفرح في حياتي قدر رؤيتك بخير في بيت أعز الناس.

– أكرمك الله يا ناجي، ما فعل سر النهر غير الواجب.

- اذهبي للنوم يا كنانة مع أختك زينة وصباحًا إن شاء الله ندبر حالنا.

***

أعاد كافي لف الشال الصوفي على منكبي أبيه وهم خارجون من البيت قبل شروق الشمس وتيار الهواء البارد يرشق وجوههم فانتفض الناجي وهو يتدثّر بعباءة ثقيلة، ظلوا سائرين والصمت يلفهم والناجي محتارٌ فيما يفعل بابن أخيه، أيكفّنه في ردائه أم يغسّله وأين يدفنه ولا يعرف مكان الحوش الذي أعدّه أخوه حريص لنفسه ويباهي بإسرافه على زخرفة قبّته؟ استقر رأيه على أن يستره بمقابر عائلتهم البولاقية المجاورة للمدفن الذي ابتناه زرع النيل، تشجّع حيدر وخطا قبلهما قاطعًا الممر بين أشجار الحديقة الواجمة وأغصانها تتمايل كأنها تنوح على ما حاق بالبيت، بابه الكبير لا يزال مفتوحًا، التقط أنف حيدر روائح خراب تعبق البهو المظلم، هذه المرة تقدّم الناجي، قدح حجرين فأشعل ذبالة المسرجة المعلّقة على الجدار، توجهوا نحو الغرفة، جسد السيد كما هو مسجّى على السرير، وقفوا صامتين فقطع حيدر حيرتهم بالأمر:

- لا ماء هنا ولا كفن، احمله يا كافي وتعال ورائي.
- بل أحمله أنا.

على كتفه ألقى الناجي ابن أخيه وكافي يعاونه، خرجوا من البيت سائرين خلف حيدر، جفلت أقدامهم فجأة للبستاني الخارج من

حاصل العلف والعليق، قبالتهم وقف الكهل مطرقًا رأسه، رفع وجهه إلى الناجي وانكسارات لا حدود لها مرتسمة على وجهه.

- أصحبكم لدفنه، الخونة قتلوه.
- من يا رجل؟
- لا وقت يا ناجي، ننهي دفنته أولًا وبعدها نعرف من فعلها.

تلفت حيدر ثم أشار بعكازه وخطا، عرف الناجي أنه يقودهم إلى مسجد السيدة عائشة، وصلوا فدلف الباب في سرعة ملقيًا السلام على العامل.

- ميت نريد تجهيزه.
- أمرك يا شيخ.

في سرعة قادهم راعي المسجد نحو الميضأة وقرّب مغسلة خشبية، أراح الناجي الجسد البارد ولم يضيّع حيدر الوقت وشمر عن ساعديه، بدوره استعد الكهل الذي عرّفهم بنفسه أثناء سيرهم للمساعدة، في حين أحضر عامل المسجد ماعون الماء الكبير وعاون كافي في نزع ملابس الشاب قطعة قطعة حتى إذا ما انتهوا إلى العورة، ستره البستاني عويضة بخرقة قماش وشرع حيدر في غسله، لم يستطع الناجي مغالبة دموعه حين رأى الطعنة نافذة في قلب ابن أخيه فأجهش وقرفص جوار الجدار، لم يبال حيدر وعزم على إنهاء الموقف فأتمّ غسله، أتاه الرجل بكيس به قطع القماش غير المخيط، فردها حيدر وعاونه كافي في إلباس الجسد المتيبّس الكفن ولفه بملاءة بيضاء وأصبح جاهزًا لدفنه، هذه المرة تعاون عويضة مع عامل المسجد على

إراحة السيد على خشبة عريضة وساروا به نحو القبلة، سلم حيدر بعد التكبيرة الأخيرة لصلاة الجنازة وأسرعوا بحملهم نحو المدافن، أخرج الناجي مفتاحًا وفتح الباب، الحوش المدفون فيه أمه وأبوه رحيم البولاقي فسيح والأشجار أغصانها تتطوّح بفعل الريح.

لم تكد الشمس تبزغ عبر الأفق حتى أنهوا دفن السيد بن حريص في قبر جانبي منفرد وأغلق الناجي باب الحوش والرياح الباردة هبوبها يشي بنهار بارد، بين أسوار المدافن المتقاربة ينفض كل منهم عن ملابسه التراب ومن السبيل القريب يحمل عامل المسجد ماجورًا مملوءًا بالماء فغسل كافي والناجي وجهيهما، حدّج الناجي الخادم عويضة بنظرة ذات مغزى وهمّ أن يسأله، لكن الرجل المغلوب على أمره أطرق رأسه ورفعه وتلعثم لسانه وهو يجيب عن أسئلة عيونهم المرتقبة:

- أعرفك يا معلم ناجي، وسأقول لك ما فُعل بابن أخيك.
- قلْ يا رجل.
- وأنا أعزق الأرض في القيراط القريب من باب الحديقة رأيت السيد مع أصحابه وسمعته يقول أن جارهم مسعود تاجر الزيوت مسافر وأنها فرصة يهجم على بيته فيترك عصبته ينهبون ما به ويفوز هو ببنته حسنة.
- يا للمصيبة، وأنا حسبته قُتل بسهم وهو يطارد اللصوص!
- لا يا سيد ناجي بك.
- أنا الناجي النجار يا رجل لا ناجي بك، وبعد؟

- تقدّمهم وكسروا الباب وقتلوا الحارس ونهبوا البيت وحين اقتاد السيد حسنة بنت مسعود طمع بها واحد من رفاقه شباب الجركس وطلبها منه فرفض، صوّب آخر السهم نحو صدره وأصابه في مقتل وهربوا بالبنت وهي تصرخ لولا تكاثر عليهم أهل الحي وخلصوها من أيديهم لضاعت...

- ولم تحكِ لنا إلا بعد دفنه، والله لو عرفت لأحرقته بالنار.

أغمض الناجي عينيه وفي نفسه غيظ من دفن ابن أخيه النجس جوار قبر أم كنانة وجدته وجده الطيبين، كظم حنقه والتفت نحو باب الحوش المغلق وهمّ أن يعود ويخرجه ثم يلقيه بين الخرائب تنهش جياع الكلاب رمته، لكن نفسه المجبولة على العفو منعته أن ينبش قبر ميت مهما يكن بعد أن وارى سوءته، تمنّى لو عرف بما فعله هذا المأفون من انتهاك حرمة جاره لتركه يتعفّن في سريره ولما كلف نفسه مشقة إكرامه، استعاذ بالله، انتابه شعور من تشفٍ في مصير رفاق ابن أخيه من أراذل الجراكسة هم وعائلاتهم، عض شفته ورفع يده منهيًا الموقف وتقدمهم عائدين إلى البيت.

***

- لا أحد يخرج أو يطلع، البلد فيه حرب بين المماليك والأرناؤود.

- وضحت الرؤية يا عم حيدر، ما في حرب، إنما أمر بقتل المماليك ونهب أملاكهم.

رد الناجي على العجوز وهم متحلقون حول نيران الماجور الهادئة يفرد كلٌ منهم يديه ليستدفئ، لم يكن يتوقع يُسر مواراة جسد ابن أخيه بهذه السرعة وأرجع ذلك لعزم حيدر وقوة بصيرته التي دفعته هو وكافي أن ينهيا الدفن في غبشة الصباح، وليت عويضة البستاني لم يفصح لهم عما اقترف ابن أخيه السفيه والجزاء الذي أصابه نتيجة خيانته وغدره ببيت جاره الذي لم يرع حق جيرته أثناء غيابه، وضعت زينة الوادي الإفطار أمامهم فالتفت إليها جدها وسألها:

- وكنانة؟

- نائمة.

- تصحو على مهلها، أيقظي سرّي ليفطر.

- خرج.

- خرج؟ كيف؟ هذا الولد المتهوّر قد يؤذي نفسه وكيف يترك البيت ونحن غير موجودين؟

- لا تقلق يا أبي ربما ذهب إلى الأزهر أو إلى واحد من رفاقه، ويمكن في زيارة للشيخ الجبرتي فهو يحبه ويحب جلسته.

- لكن الناس مهتاجة وجنود الباشا في كل مكان و...

ما كاد يتم عبارته حتى دوى صوت إطلاق رصاص بالقرب من البيت فوقعت اللقيمة من بين شفتي الناجي وهبّ واقفًا، قطع المجاز يتبعه حيدر وكافي من ورائهم يعلو صوته:

- ارجع يا ناجي، لا تخرج من البيت يا أبي.

فتح الناجي الباب فصدم وجهه الهواء البارد، عطس في شدة والعجوز يقف جواره، الأرناؤود تتسابق خيولهم لآخر الشارع وفي سرعة كبسوا على مخزن واحد من المماليك، أيقن حيدر من هيئة الرجل المتقدّم خيولهم أنه هو الواشي بمكان البيت ويشاركهم نهب ما فيه وأهل الشارع الضيق لاذوا بمنازلهم الواطئة رهبة والخارج منها التصق بالجدار، همّ أحدهم أن يلقي شعلة بداخل البيت فخطا حيدر نحوه في سرعة وكافي يفرد كفيه بجانبي رأسه من جُرأة أبيه.

- لا، البيوت متجاورة والنار تحرق الحارة كلها.

رفع الجندي رأسه ومسحت نظراته أسطح البيوت وحزم الحطب والبوص متراصّة فاكتفى بما استولى عليه مع رفاقه وأمرهم بالانسحاب وصوته يعلو:

- أمر من الباشا بعقاب كل من يتستّر على مملوك أو يخبئ واحدًا منهم.

استدار بفرسه فأفسح سكان الشق الطريق لمغادرتهم بأسلابهم والناجي يضرب كفًا بكف، هنيهة وقف حيدر فجذب كافي ذراعه في رفق ليعودوا إلى البيت.

-١٦-

ما بين الصحو والغفو أحسّ سر النهر بدبدبة أرجل أبيه وجده والناجي مغادرين البيت، تململ في رقدته ثم نهض، جمحت رغبته في فتح باب غرفة زينة، برفق أزاح الباب الخشبي وأطلّ لإرواء روحه برؤية كنانة النائمة في هدوء رضيع ملفوف بأقمطته، أنفاسها ترقّص قلبه وروحُه مبسوطةٌ من وجودها بالبيت، تاقت نفسه أن يحملها بين يديه وينقلها إلى مخدعه فتستيقظ ليكمل معها ما كان بدأه وهما في برج بيتها العالي فيلثم كل عقلة إصبع من وجهها الجميل، لا يدري كيف خطت قدمه لكن دماء المروءة المتدفقة بأحبال أوردته أوقفته فتقهقر مغلقًا الباب وقلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه، وتلبّسته صنوف اللوم على رغبته التي ضبط جموحها في آخر لحظة وإذا أضيف وجود أخته زينة الوادي جوار كنانة تتغطيان بحِرامٍ صوفي فهذا كله دفعه ليوبّخ نفسه على جرأته.

غادر البيت والشمس النابتة ترسل بواكير أشعتها الفتية، ارتعش حين استقبل برودة الصباح، فضوله المفرط دفعه للسير نحو الرميلة، رغم أن مصاريع البيوت موصدة لا تزال زعقات الناس من أمس تطن في أذنه فلم ير كرشة أصابتهم مثل وقعة النهار الفائت، رضاء كامل يكسوه عن إنقاذه لكنانة، دار في مخيلته أنه جبُن في العودة لبيتها أو عجز عن ذلك فكان مصيرها الضياع أو القتل إن دافعت عن نفسها.

أرض الرميلة مكفهرة، معظم الجند المسافرين إلى الحجاز انتقلوا للمعسكر الكبير في القبّة وبقيتهم يتريّضون على خيولهم، مئذنتا مسجد السلطان حسن ومسجد قاني باي الرماح منتصبتان تستقبلان الصباح الجديد لتخبراه أنهما شاهدتان على نهاية أحفاد من ابتنياهما، باب العزب يشمخ ومن خلفه تفوح روائح مضمخة بدماء أُهرِيقت في وقعة واحدة لا يدري كيف دُبِّر لها بكل هذه الحيطة؛ أدرك أنها يجب أن تنجح؛ ففشلها يعني نهاية الباشا محمد علي، في بطء يقترب، نظراته تجول بين الأرناؤود والحانوتية وهم يخوضون وسط الجثث الملقاة في مضيق النقر، نعالهم ملطخة بالأحمر القاني، الأجساد مبعثرة، جلودهم مائلة للصفار وتفوح منها روائح دبقة، منهم من تشبّثت أظافره بشقوق الجدران وآخرون وجوههم منكبة على أرض الممر الصخرية، الدماء خضّبت جثثهم المعفرة وملابسهم الثمينة مكوّمة وأيدي الجند تنتزع بقيتها وتستلب الخواتم ذات الفصوص من العقيق، أحدهم يقلب أحد الضحايا ويضحك لعينيه الغائرتين، بسيفه يضرب عنقه، ولما لم يقطعها طفق يحز الرقبة بخنجر حاد حتى فصلها ورفعها أمام وجهه، جحظت عينا سر النهر لرأس نعمان بن يحيى وانفلتت آهة أودع فيها كل ما يشعر به قلبه المرتجف من رعب حين وقعت عيناه على تلٍ من الرءوس المفصولة.

- قفْ يا ولد.

أعقب الأمر طلقة رصاص بين قدميه فثبت مكانه وكاد يبول على نفسه والأرناؤودي يقترب وهو يرفع البندقية وإصبعه على الزناد،

الطلقة الثانية طاشت في الهواء حين رفع زميله ماسورة البندقية لأعلى والفتى أغمض عينيه وتمتم بالشهادتين.

- ابتعد من هنا يا ولد.

فتح عينيه، شهق وهزات رأسه المرعوبة تستدر عطفهما، في سرعة استدار وتوالت خطواته حتى انعطف في شارع جانبي، سار وأناس قلائل يتحسّسون الأخبار ويتهامسون فيما بينهم بما وقع نهار أمس وبقية الليل، وقف تحت شجرة؛ لتستجير نفسه المحمومة بالظل الرطيب، تراجع فجأة والتصق ظهره بالجدار، اثنان من الجند يقلبان قفة فيسقط منها رأسٌ لينضم إلى رءُوس ملقاة على مصطبة السبيل المواجه لباب زويلة، الوجوه الرمادية الشاحبة تسترهب من يطل عليها، عيونها مطموسة والدماء تلزّجت على الرقاب المبتورة، غصّة أطبقت على صدره، انقلبت لرغبة عارمة في التجشؤ فقاء ما بجوفه، استجمع قوته ولم يجد مفرًا غير الابتعاد، لم يلتفت وراءه ولم يسمح لنفسه أن تلتقط أذناه كلمات مما يرويه الواقفون أمام أبواب بيوتهم وحوانيتهم المغلقة، ومض وجه منقذه الأرناؤودي فعاجلته ذاكرته بمعرفته فهو القائد حسب الوكيل عمر بكداش، استراحت نفسه قليلًا وحمد ربّه أن حسب الوكيل لم يجحد صنيع جده في مداواة قدمه، ظلّت خطواته تتخبط حتى اقترب من بيت الشيخ الجبرتي، يقرعه في سرعةٍ وهو يتعجّل فتحه، في حذرٍ سُحب اللوح الخشبي القصير وأطلّت عينان متشككتان في أي طارئ غريب.

- أنا سر النهر بن كافي الحداد، أريد الشيخ عبد الرحمن.

في صمتٍ أعيد اللوح الخشبي، شعر بأن دهرًا مرّ عليه وهو واقف على عتبة البيت وأوصاله ترتجف، انفتح الباب فبادر وأزاحه فإذا ما دلف أغلقه في سرعة.

- السلام عليكم يا شيخنا.

- تعال يا نهر الأسرار، اجلسْ، أخبارك؟ ألم تر أحدًا من رفاقك، الولد حمّاد أو مسرور الريفي؟

- لا، والكثير من المجاورين إما فروا لبلادهم أو أغلقوا على أنفسهم أروقتهم خوفا من بطش الأرناؤود واللصوص، وحماد ومسرور بالأخص زمانهما مختفين وسط المواجير أو بجوف البلاليص.

اتسعت ابتسامة الجبرتي لإجابة سر النهر المرحة، والأخير خالجته راحة لوجود الشيخ بمفرده فيطلق لذاكرته العنان ويحكي له كل ما مرّ به ورآه من خطوب، أراح جسمه على الكرسي وتهيّأ لأن يتباهى بما سيضيفه لشيخه من أحداث ووقعات لم يخبره أحدٌ بها قبله فيسوّدها الشيخ عبد الرحمن بأوراقه التي لا حصر لها، همّ أن ينطق فانسحب لسانه والتفت في حدةٍ للصوت القادم عبر الطرقة.

- آه يا أبا خليل، منذ خروجي من البيت وأنا أعاني الاحتباس.

- شُفيتم يا أبا فراس.

دون أن يلتفت لسر النهر جلس أبو فراس على الكرسي المقابل لرفوف الكتب، اغتاظ لوجود هذا الرجل باكرًا ببيت شيخه فامتعض وهو يحدّجه بنظرة غيظ، ظل أبو فراس متجاهلًا وجود سر النهر وهو يتناول القهوة، في مللٍ ألقى الجبرتي بعدة كراريس وكأنه ضاق من

كثرتها، ولأن سر النهر يعرف أن أبا فراس لا يحسن غير الكلام فقط والمهاترة ففضّل أن يلزم الصمت فإذا ما غادر البيت أسرّ للشيخ بما يريد، التفت نحو الدهليز المؤدي إلى باب البيت وسمع وقع أقدام فازداد ضيق صدره بكثرة الواردين لبيت الشيخ، أطرق وهو يتهيأ لمقابلة لفيف من تلاميذ الجبرتي أو ضيوفه.

- سلام عليكم، أخبارك يا سر النهر؟

في حدة رنا للصوت وخفق قلبه وانفرجت قسماته بفرحة لوجه عبد القادر الإزميري البشوش، سلّم عليه وأفسح له مكانًا ليجاور قعدته، استحسن مجيء صديقه الشاب ومنقذهم من الوقوع بين يدي الأرناؤود، أبو فراس يحسو قهوته في بطء والشيخ الجبرتي يرتب بعض الأوراق فتحيّن عبد القادر فرصة انشغالهما ومال على أذن صاحبه هامسًا:

- كيف حال مقبلة؟
- فارقتنا ببيت نفيسة البيضا.
- وسيدتك، أقصد صاحبتك الجميلة؟
- بخير ورجعت لأهلها.

نصلٌ من غيرة نغز قلبه وهو يرى في عيني عبد القادر تساؤلات لكنه نفض كل ذلك خلف أذنه فيكفيه أن كنانة بالبيت ولا تزال نائمة جوار أخته، ولن يلبث أن يعود أبوه وجده والناجي وحين يرجع يروي لهم ما رآه أمام باب العزب.

– ألم أقل لك يا شيخ جبرتي أن نهايتهم محتومة، الباشا أفطر بالمماليك قبل أن يتغدوا به.

– ما حدث أمس لم يكتمل.

– صحيح يا شيخ، رأيت بنفسي المماليك القتلى خلف باب العزب ورءوس بعضهم عند باب زويلة.

– هذا أول الأمر يا سر النهر ولا يزال الأرناؤود يكبسون بيوت وقصور الأمراء الكبار والبكوات.

– وأتوقّع أن يُقضى على كل مملوك بالقاهرة والفسطاط ونواحيهم وكل الكشافين في القصبات القريبة والبعيدة حتى في الصعيد.

– إنها حربه التي يجب أن ينتصر فيها وأكاد أجزم أن شاهين بك وسليمان البواب وغيرهما من كبار الألفية في خبر كان.

– وأمست أنوفهم المتعجرفة متمرغة في التراب.

– شربوا معه القهوة قبل أن يسقيهم الموت.

التفت أبو فراس إلى سر النهر وهو يلقي بعبارته فعاف إكمال كوبه وركنه وثلثه الأخير لم يشربه بعد، تجاهل نظرات أبي فراس الممتعضة والتفت إلى الجبرتي فوجده يرفع أوراقًا ويركنها على الرف القريب منه، يدري أن الشيخ لا يتعجّل الكتابة قبل أن يكتمل الحدث فيدوّن ما يراه بعينه ويستمع لمن شاهد وأحيانًا يسأل بنفسه ويتأكد ويمحّص ثم يكتب، ووقعة الباشا مع المماليك لا يستهان بها وفي أولها كما قال بنفسه والأيام القادمة قبل خروج الأمير طوسون بالجيش ستشهد

على حوادث لا يعلم مداها إلا الله، بدوره مال على أذن عبد القادر وسأله:

- ما من أخبار جديدة؟

- وأنا في طريقي رأيت حوالي مائة جندي ينزلون الأسواق.

- الأسواق! وما لهم والأسواق؟ همهم الأمراء والبكوات.

- وهؤلاء لهم حوانيت ووكالات وشركاء مع تجار، والأرناؤود أطماعهم ما لها حد، والمماليك يكرههم الناس ويتمنون الخلاص منهم.

- معك حق، كثر الواشون عليهم وكل منهم يمني نفسه بنهبهم.

- ممكن أسألك سؤالًا، كنانة بنت الحريص بك، أين تعيش؟

- سلمتها لعمها الناجي.

من بين أسنانه خرجت كلماته دون أن يلتفت واجتاحه حنق لا حدود له من تكرار سؤال عبد القادر عنها، رضي عن إجابته واجتهد لإخفاء غضبته على الإزميري وطيّب خاطر نفسه بإقناعها بفضله، فلولا حمايته لهم ببيته لكان الحال غير الحال، من طرفٍ خفي لمح الشيخ الجبرتي الصامت طوال الوقت يرقب حوارهما الهامس فأطبق شفتيه، وأشار إلى عبد القادر أن يصمت وأبو فراس يقرِّب من عينيه ورقة ويتمتم بكلمات غير مفهومة ثم رفع صوته:

- والله ما رأيت أحكم من الباشا محمد علي ولا أقوى منه ولا أذكى، لو أنه لم يفعل شيئًا في حياته غير تخليصنا من شر المماليك لكفى.

فاه بها أبو فراس في فرحٍ حقيقي والانبساط يتربّع على وجهه وعيناه تطقان شماتة، لم يلتفت إليه الجبرتي وأنهى ترتيب أفكاره، بإصبعه أشار إلى عدة أوراق.

- اكتب يا سر النهر.

محا طلب شيخه أي أثر لانقلاب نفسه على ضيفي الشيخ، يسحب ورقة طويلة ويغمس سن قلم الغاب في المحبرة ويتهيّأ لكتابة عشرات الأوراق مما يمليه الكاتب الجليل وما لا يعرفه من أخبار تكون قد وردت له من داخل القلعة، فللشيخ أربابه الذين يطلعونه على دقائق الأمور، تنحنح الجبرتي وهو يقول بصوته العميق:

«فلما أصبح الجمعة سادسه ركب الجميع وطلعوا إلى القلعة وطلع المصرية بمماليكهم وأتباعهم وأجنادهم، فدخل الأمراء عند الباشا وصبحوا عليه وجلسوا معه حصة وشربوا القهوة وتضاحك معهم، ثم انجرّ الموكب على الوضع الذي رتبوه فانجر طائفة الدلاة وأميرهم المسمى أزون علي ومن خلفهم الوالي والمحتسب والأغا والوجاقلية والألداشات المصرية....»*.

- وبعد؟

- يكفي هذا.

رفع سر النهر سن القلم وظن الجبرتي يكتفي بما كتب ثم يعطي الورقة إلى الإزميري ليكمل ولكن لا بأس من أن يستمع لما يدونه رفيقه، قرّب الورقة إلى عبد القادر لكن الجبرتي أشار بيده.

- قلت يكفي، يحسن بي أن أتريّث قليلًا قبل كتابة ما حدث خلف باب العزب.

لم يجادل وقدّم الورقة للشيخ فتناولها ودون أن يقرأ ما كتبه ركنها جواره، تمنّى لو تتاح له فرصة لأن يكتب كل ما رآه وسمعه من جده وأبيه من أفاعيل الأرناؤود، لكن راق له التروّي فتكشف الساعات القادمة أحداثًا ووقعات أخرى.

– لا تنس يا عبد الرحمن أن تكتب أني عرفت بما قد حدث قبل أن يحدث.

تارة أخرى انتاب سر النهر ضيقٌ من كلمات أبي فراس ولا يدري كيف تمنّى أن يعود هذا العجوز كثير الكلام والمتطفّل على شيخه لبيته فيجد جند الأرناؤود قد نهبوه، أشاح بوجهه لهذا الهاجس فإن حدث فإن أبا فراس لن يبرح بيت الشيخ الجبرتي فيلزمه نهاره وليله.

– كان من المفترض أن يطلقوا عليك: أبا فطنة، أبا كياسة، أبا فراسة لا فراس.

– لا، أنا أبو فراس يا عبد الرحمن، نسيت يا من لا تنسى أي خبر؟

نهض أبو فراس وعكازه يسبقه، استأذن منهم فاستراح سر النهر ولحظ عبد القادر الفرحة تغمر تقاسيم وجهه بذهاب العجوز الذي لا تحتمل قعدته.

– اسمح لي يا شيخ، الرجل أبو فراس كلامه ثقيل.

– لا تظلمه يا سر النهر، الشيخ يعقوب في شبابه كان من أكثرنا هزرًا وصاحب روح مرحة، ولما تزوّج كان هائمًا بأم فراس، رغم خلافه معها ومهاترتهما لا تنتهي، يروي شجارهما الدائم وهجرهما

لكنه لا يصبر على فراقها وينهي يومه بمصالحتها فتصالحه وفي اليوم التالي يردد:

اصبر على هجر الحبيب فربما عاد الوصال وللهوى أخلاق

- هو شاعر؟ يا للعجب!
- لا، لكنه يحب شعر محمد بن العفيف.
- ابن العفيف؟ لم أسمعْ به.
- محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله التلمساني شمس الدين وكان يُعرف بابن العفيف، شاب في شِعره ظرف ولطف وخفة ومرح الشباب وأبو فراس يحب شعره ويتمثله في أي موقف.
- وابن العفيف كان طالب علم معكم بالأزهر يا شيخنا!
- طالب علم معنا! يا لجهلك يا عبد القادر، مات محمد بن سليمان في زمن المنصور قلاوون.

تقارب حاجبا سر النهر لاسم واحد من أعظم ملوك وسلاطين المماليك البحرية، تردّد في ذاكرته ما رواه واحد من أشياخ حلقات العلم من أن المنصور قلاوون رغم أنه كان واحدًا من مماليك الملك الصالح نجم الدين كان بطلًا من أبطال معركة المنصورة ضد لويس التاسع وشارك كأمير في كسر التتر في عين جالوت وحين تولى سلطنة البلاد عمل على إصلاحها، لكن المغول عادوا للهجوم فخربوا حماة وواجههم المنصور قلاوون في حمص وخاض حربا لا هوادة فيها وهزمهم شر هزيمة وعاد إلى دمشق يسوق جنده الأسرى وعلى أسنة رماحهم رءوس التتار، لم تهدأ نفسه لقتال الأعداء فعاد لمحاربة

الفرنج وطردهم من قلعة المرقب ومن بلدة بانياس[1] وبعدها عاد إلى قلعة الجبل ومات هناك، تلك القلعة التي شهدت على عظماء المماليك الذين حسب لهم الأعداء ألف حساب، شهدت جنبات أسوارها على القضاء على أراذلهم ظالمي الناس، انتبه سر النهر من سرحانه حين عبثت أصابع الجبرتي بأوراق كثيرة ثم فتح خزانة قديمة وسعل من التراب، قدّم له سر النهر كوب الماء فشرب القليل ثم ظلّ يسحب الكتب حتى برقت عينه بعد أن رفع أوراقًا تكاد تتفلّت من بعضها، نفضها ووضعها أمامهما على المنضدة وقرأ:

- أشعار محمد بن سليمان، المتوفى في 688 هـ[2].

كعادة الشيخ الجبرتي المشهورة عنه، الحديث عن شخصيات كثيرة وتناول موضوعات عديدة وكتابة وقعات لا حصر لها، فخشي أن يطول الحديث عن الشاعر القديم ويتناسوا ما أحب أن يعرفه عن أبي فراس، فارتسمت على شفتيه ابتسامة مصطنعة وهو يطلب في توسُّل:

- نقرأ ما كتب شاعرك الظريف فيما بعد، المهم يا شيخنا، سيرة أبي فراس، أرجوك تكملها لنا.

- آه، من أربعين سنة كان له ولدٌ يقترب منك يا عبد القادر أو يكبر عنك، في يومٍ من أيام الربيع كان يتنزّه على النيل، سبّه واحد من المماليك فعيّره فراس قدّام كل الأولاد بأنه مملوك لا أصل له.

- والله لم يعيره بل قال الحقيقة.

---

(1) قلعة المرقب وبانياس: تابعتان لمحافظة طرطوس بسوريا.

(2) 688 هـ = 1290م.

– الحقيقة أن الشابين تعاركا وشبط كل منهما في الآخر فحمله فراس بين يديه ورماه على الأرض.

– وبعد؟

– اختفى فراس، تبخر.

– اختفى! لا أفهم يا شيخنا.

– ليلة خرج من البيت ولم يرجع، حفيت أقدام أبيه وأمه في السؤال عنه ولم يجدوه.

– خطفه أهل المملوك!

– ربما، راح وسره معه، أيام وأسابيع وشهور وأعوام مرّت على عمك يعقوب يسأل ويبحث ولا عودة لابنه فراس.

– ربنا يصبره ولا يقنط من رحمة ربنا، يمكن يرجع كما رجع يوسف لأبيه.

شيء من الانبساط ارتسم على قسمات وجه الجبرتي من رد سر النهر وربطه عودة يوسف الصديق بالأمل في ظهور فراس بن يعقوب صديقه الصدوق، زمّ الشيخ شفتيه وقرن حاجبيه للحقيقة التي رشقت في صدره حين علم بها في ذلك الزمان البعيد؛ بعد اختفاء فراس بأسابيعَ سأل وعرف عن طريق الخدم مصير ابن صديقه وتيقن من أن المماليك اختطفوه وقتله المملوك ابن كشغبا بنفسه وربطوه في حجر وألقوه في النيل، خوفًا على يعقوب لم يخبره وفضّل أن يعيش على أمل عودة ابنه وترك السنوات تواري ذكرى فراس، وها هو يعقوب يعيش الوحدة بعد رحيل أم فراس فترك تجارته لرعاية أبناء

أخيه وينفقون عليه، أما هو فلا يكف عن الاستهزاء بالمماليك والفرح والشماتة فيما يحيق بهم من نوازل ومصائب بدأت من أيام ساري عسكر بونابرت ومن خلفه كلهبر ومينو، وها هو الباشا ينكبهم ويستأصل بقيتهم؛ فيستريح الناس من شرهم.

- وفراس، ما له أشقاء؟

سؤال عبد القادر يفيق الجبرتي من نوبة اجترار ذكريات الماضي، التفت إلى تلميذيه وأخبرهما:

- يعقوب تزوّج وهو صغير ولسنين لم يعوّض بالخلف، رُزق بفراس وبعدها لم ينجب ولم يفكر في الزواج على ابنة عمه أم فراس حتى ماتت كمدًا على ابنها.

أعاد سر النهر التفكير في الشيخ يعقوب ولام نفسه أنه تعجّل الحكم على الرجل المسكين فهو كغيره قاسى ويلات المماليك ولا أبغض مصيبة من قتل ابنه ولا ذنب له إلا أنه صفع وجه أحدهم بحقيقته التي لا يريدون أن يرددها أحد، رفع وجهه تجاه الجبرتي إعجابًا بذاكرته الحافظة للسير ووعده في قرارة نفسه أن يروي له كل ما شاهده بعينه وسمعه من أهله وجيرانه فتقر عين أبي فراس ويدرك أن الله يمهل ولا يهمل فربما يكون قاتل ابنه من الذين ارتوت الأحجار خلف باب العزب بدمائهم ورأسه الآن متدحرج أسفل أسوار القلعة.

-١٧-

في طريق العودة استأذن من عبد القادر ومرّ على درب عبد الحق متعمّدًا زيارة نفيسة البيضا وفي قرارة نفسه أحب أن يلبي لها ما تريد أو يشتري لها أي شيء تعوزه، ولا سيما أن معظم التجار أغلقوا دكاكينهم بالضبة والمفتاح خشية النهب والسرقة، طرق الباب ففتحت مقبلة وبشّت في وجهه، تنحّت جانبًا فخطا في سرعة، قطع المجاز الطويل فاستقبلته السيدة نفيسة في وسط الردهة ومدّت يدها مسلمة فانحنى وقبّلها ثم رجع بظهره إلى الوراء.

- أي شيء يعوزك أنا تحت أمرك.
- تكرم يا نبيل، صدقني أحبكم يا أهل الجنوب، لله في لله.
- ونحن نحبك.
- الحمد لله لا يعوزني شيء، يكفيني القليل من الدقيق وجرار الزيت وحفنات الفول والعدس والسقاءُ أصيلٌ مثلك، يملأ الأزيار والقدور للشرب ويعبئ الصهريج الكبير للنظافة والحموم.
- كلنا تحت أمرك.
- المهم، أخبار الـ...
- لا أخفيك سيدتي، رأيت بأم عيني القتلى من البكوات خلف باب العزب.

- قتلهم الأرناؤود دون شفقة.

- ونزلوا الأسواق والوكائل وكبسوا على بيوت المماليك في كل زقاق وحارة.

- آه، وصلني أن الباشا بعد أن أخبروه بقتل كل من أغلق عليه باب العزب، ذهب إلى بيت الحريم فنفرت منه خوند أمينة هانم.

سُر لهذا الخبر الجديد وفي نفس الوقت تعمّد سر النهر وهو يتهيّأ للمغادرة ألا يتمادى في رواية ما حدث للبكوات والألفية مراعاة لمشاعرها وهي التي اشتهر عنها بأنها أم المماليك، نهض من فوره فرأى عيني السيدة الجليلة ساهمتين وتبعثرت كلماتها في هذيان:

- هل عدم الباشا محمد علي وسيلة لضم الأمراء والبكوات إليه بدل قتلهم؟!

بين كفيها دفنت السيدة الوقور وجهها وسكتت فانتهز الفرصة وأشار إلى مقبلة فقادته نحو الباب، واربته وهمهمت وهي تحرّك أصابعها فرد عليها بأن كنانة بخير، خرج مفارقًا الدرب مقررًا العودة إلى البيت فجفلت أقدامه فجأة لقائد الأرناؤود على فرسه يتقدّم عشرين من أتباعه فوقفت الخيول مغبرة براح الشارع.

- عندكم مملوك أو وديعة لمملوك؟

زعق بها القائد وهو يمسح وجوه الناس المذعورين فإذا ما أشار واحد من الواقفين نحو بيت نغز الجند جيادهم نحوه وسر النهر يرقب هجومهم ويعرف أنه دار واحد من مياسير التجار وليس من البكوات وما هي إلا دقائق حتى نهب الأرناؤود ما به من أثمن

المفروشات والتاجر يصيح فيهم وخطواته تتعثر، يلطم خده، بيديه يحوط شعره المنكوش:

- لستُ من المماليك أو الأجناد، لستُ من البكوات.

صُمّت آذانهم فلم يسمعوا غير صوت النهب واغتنام ما تقع عليه أعينهم التي لا يملأها غير التراب، حملوا أسلابهم ومضوا والرجل يحسبن ويحوقل وهو واقف وسط الشارع ولم يلبث أن انهار جاثيًا على ركبتيه، لحظة وخرجت إحدى حرمه وسحبته من ذراعه لداخل البيت، من زير مركون جوار الجدار اغترف سر النهر الماء وشرب ووجوه الناس حيرى في أمر الأرناؤود وتوحشهم، على الغطاء الخشبي ركن القعب الفخاري، تلفت يمنة ويسرة وسار نحو البيت.

استراحت نفسه لارتجاعات صوت الأذان البعيدة، فرفع رأسه نحو مؤذن مسجد السلطان حسن وهو واقف أعلى المئذنة المقابلة للرميلة ويرفع يده مرارًا، مغص يطبق على أمعائه فقادته قدماه نحو السوق وهو يتمنّى أن يكون أحد دكاكين العطارين مفتوحًا، خاب أمله لانغلاق الحوانيت وأرجع ذلك إلى خوف التجار من الأرناؤود واللصوص والزعر ونهازي الفوضى فينهشون كل ما تطوله أيديهم، من بعيد لمح العربي الحلو واقفًا أمام دكانه نصف المغلق فخطا نحوه، استقبله التاجر المغربي في دهشة:

- جننت يا ولد، تطلع من البيت والدنيا مقلوبة!

- أرجوك يا عم العربي، لو عندك أعشاب للمغص يبقى لك الشكر.

- حاضر لكن ترجع البيت بسرعة.

دلف دكانه وعاد في يده لفة صغيرة ناولها إياه، همّ أن يبتعد فقبضت أصابع العربي على معصمه للطبول والزمور التي تدق وأفواج من الجند المشاة تقترب وغيرهم يبعد القلائل من أصحاب الحوانيت، في سرعة تراصت أجساد الجند كسور في وسطه يتخايل الفرس المتقدم وسط الماشين من حوله، جحظت عينا العربي الحلو للراكب المهيب، احتبس صوته ثم أطلقه دفعة واحدة وشفتاه ترتعشان:

- الباشا محمد علي نفسه.

سقط قلب سر النهر وثبت وجهه في اللمة العظيمة المقتربة والباشا يركب فرسه أمامه الصفاشية والجاويشية[1] بزينتهم وملابسهم المزركشة والجميع يمشون وهم محدقون حوله كالسوار.

يقترب موكب الباشا والفرح يطل من وجوه كل من حوله شماتة في قتل البكوات والمماليك وأمارات الظفر طافحة على سحناتهم الموشومة بالنصر، وقف فرس الباشا، تأمل سر النهر طلعته المهيبة ولحيته الكثة وشعيرات بيضاء تخالط السوداء، عمامته ملفوفة بعناية تغطي جبهته العريضة، أنفه يمتد في استقامة وفي عينيه الصقريتين قوة، العباءة تخفي جسمه السمين والزنار الأحمر العريض محكوم حول وسطه، انتفخت أوداجه وعلا صوته بتوبيخ واحد من الأرناؤود على نهبه لحوانيت التجار حتى إذا ما اقترب سائس فرسه من العربي الحلو حسب سر النهر أنه سيتراجع وسط الناس لكنه رآه يتقدّم في جرأة ويصرخ بأعلى صوته:

(1) الصفاشية والجاويشية: حرس الباشا محمد علي.

- إيش هذا الحال وإيش لنا علاقة حتى ينهبنا جندك الأرناؤود ونحن ناس فقراء مغاربة ولسنا مماليك ولا أجنادًا.

في خضم الأصوات الغاضبة والمطالبة بحماية الباشا للناس استمر العربي الحلو في شكواه، ولكن ما حدث لم يكن في حسبانه أو أي من الواقفين فقد استمع الباشا لشكايته، دون أن ينطق أشار إلى أتباعه فتراجع سر النهر خلف العربي.

- نصحبك لبيتك يا رجل.

انطلق موكب الباشا يشق طريقه والناس تتراجع فأغلق العربي الحلو دكانه وسار وسط أربعة جنود من أتباع القائد وهو يتأبط ذراع سر النهر حتى إذا ما وصلوا لداره وجد بابه مفتوحًا وزوجته وأولاده لاذوا ببيت جاره، في سرعة دخل العربي خلفه جنود الباشا فوجدوا شخصين أحدهما تركي والآخر بلدي يلتقطان آخر النهب وما سقط من السرّاق، قبض عليهما الجنود وربطوا أيديهما بالحبال، ساقوهما إلى حيث وصل الباشا والناس من حولهم مبتهجين بضبط الشوارع حتى إذا ما وقفوا جميعًا أمام فرس الباشا أمر بقتلهما فأخذوهما نحو باب الخرق[1] وسط زعاق المحيطين وفرحهم بالقصاص من هؤلاء الزعر.

- طالت غيبتك، أين كنت يا ولد؟

- في بيت الشيخ الجبرتي وبعدها نزلت السوق وقابلت العربي الحلو وقال أنه يزورنا بالليل.

---

(1) باب الخرق: أنشئ أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب 1241م على رأس الطريق الموصلة لباب زويلة قرب قنطرة على الخليج المصري، والميدان الذي يفتح عليه هذا الباب كان يُعرف بميدان الخرق ويمر فيه ناس كثيرون، وفي عهد الخديو إسماعيل تغير اسمه إلى باب الخلق.

- ما خفت مما يفعله الأرناؤود بالناس؟

نظرة صارمة ألقاها كافي على ابنه فجلس جوار الناجي أمامهم طبق التمر وقلة الماء، قبالتهم تقرفص وشجعه حلم جده على أن يحكي لهم كل ما مرّ به وهم مشدوهون لما يسمعون حتى هتف الناجي:

- ورأيت الباشا بعينك يا سرّي!

- وحكم على اللصوص بالقتل.

- من طبع الباشا السيطرة على الأمور، بنزوله وسط جنوده وأتباعه يرتدع الأرناؤود ويعود الهدوء.

فاه بها حيدر بعد أن سكت حفيده فقرن الناجي حاجبيه وانتفخت عروق رقبته وهو يرفع صوته في انفعال زائد:

- لكن أخي ليس منهم.

- أخوك طوال عمره كان يعجبه أن يتشبّه بالمماليك ويتزيا بزيهم يا ناجي فأصابه ما أصابهم، ونصحناه فلم ينتصح.

أطرق الناجي ولم يشأ حيدر أن يزيد أوجاعه، ربّت على كتفه فرفع وجهه ومسح دموعه.

- هوّن عليك يا ولدي، ويكفيك نجاة بنت أخيك وإلا...

- لا قدر الله يا عم حيدر، لا تقلها.

- فالحمد لله على ما أخذ ونحمده على ما أعطى، لم يبق لكنانة غيرك.

«وأنا، لا تكون كنانة إلا لي».

حسب سر النهر أنه أفصح لهم جميعًا بما في صدره وانتظر أن يؤكد أبوه الصامت رغبته ويتقدّم جده بطلبها من عمها الناجي، دارت عيناه عليهم فأيقن أن كلماته ترددت بين حنايا صدره ولم ينطق بها لسانه فقنع بوجودها في البيت، لكن رضاه انقلب سخطًا حين فاجأهم الناجي:

- أستأذنك يا عم حيدر، نرجع أنا وكنانة البيت.

- أي بيت؟ أصبح خرابًا يا عم ناجي وإصلاحه يستمر أيامًا.

في جرأة لم يكبح جماحها اندفع اعتراض سر النهر فالتفت إليه جده ورمقه بعين يملأها العتاب كأن لسان حاله يقول: لا تتكلم في وجود الكبار، هزّ الناجي رأسه وهو يجيب:

- نرجع بيتي، أنا عمها والأولى برعايتها.

همّ أن يقول شيئًا فأمسك لسانه وبدت له حجة الناجي لا اعتراض عليها فسكت مترقبًا ما سيقوله جده حيدر:

- صحيح يا ناجي، لكنك نسيت أن بيتك دكان نجارة كبير وأنت تنام على سرير في حجرة ضيقة به، تبقى كنانة مع أختها زينة الوادي لحين تجهيز مكان لها.

همّ سر النهر أن يكافئ جده بعناقه لحكمته التي ستضمن بقاء كنانة أيامًا معهم لكنه أحجم؛ حتى لا يستغرب الناجي فعلته، فارقهم إلى داخل البيت فعلا صوته باسم أخته، دعته للدخول فسلّم عليهما وغمره سرور لا حد له حين رأى كنانة ترتدي إحدى عباءات زينة الوادي رغم قصرها قليلًا بدت جميلة، تقعي أمام الكانون وفوقه

تفوح رائحة الملوخية وهي تقلبها بالملعقة الكبيرة وزينة منهمكة في سحب آخر البتاو من الفرن، بخرقة قديمة حملت طاجن الفخار فعبقت رائحة أوراك وصدور الأرانب المطرح، قرّب منها الطاولة الخشبية فركنت الماعون المستطيل عليه ومن حين لآخر يختلس النظر لكنانة وهي بدورها التفتت إليه وبقية من ابتسامة غائمة ترتسم على وجهها الملبّد بالحزن، نهضت زينة وملأت الأطباق، حملت الطاولة وسر النهر بين يديه قفة الخبز، ركنت الطعام واستدارت هي وكنانة لتناوله معًا في الداخل فاستوقفها عمها:

- معنا يا كنانة.

أفسح كافي لهما مكانًا فتجاورت الفتاتان تأكلان في صمتٍ وسر النهر يتناول طعامه دون أن يرفع وجهه خشية أن تفضحه نظرات عينيه، لم تشعر كنانة بمذاق للأرانب المطبوخة على نار الفرن ألذ من التي تأكلها فاستطابت الطعام وتناولته بشهية، زينة أولى الواقفات فتبعتها كنانة إلى الداخل، عادت بين يديها طست صغير وإبريق الماء فغسلوا أيديهم واتكأ حيدر بذراعه على الحشية.

- أخيرًا تخلصنا من المماليك وظلمهم ولم تعد لهم بعد اليوم شوكة.

- لكن الكشافين وبقية البكوات لا يزالون في الصعيد وأرياف الشمال.

- وهل تتخيّل أن الباشا بعد إعدام فحولهم بالقلعة يترك صغارهم تفر من يده؟ أكيد أمر المشاعلية وقادة تجريداته بالقبض على الأمراء الكشاف الألفية.

هبّ الناجي واقفًا وهو يضرب كفًا بكف فأشار إليه حيدر أن يهدأ ولا يكرّر سيرة أخيه المفقود؛ حتى يراعي شعور كنانة ويتحالف ثكلها مع اليتم في انكسار نفسها، دار الناجي حول نفسه ثم بادر بإغلاق الباب فتوقع كافي أن صديقه سيعرض عليهم أمرًا طرأ عليه.

- ممكن يا كافي تصاحبني لباب العزب.

- باب العزب؟ جننت يا ناجي، يقتلك الأرناؤود لو اقتربت.

- يبقى للرميلة، أمر الباشا أو لم يأمر أكيد سيقوم أتباع الكتخدا بك لاظ أوغلي أو صالح قوش أو حتى إسماعيل بك الضربخانة بدفن الميتين.

- وبعد؟

- أدفن أخي بمعرفتي كما سترت ابنه.

لم يمانع حيدر في مرافقة سر النهر معهم وتنازل كافي عن عادته اليومية في راحة القيلولة فخرجوا من البيت متجهين في صمت إلى الرميلة، اقتربوا والجند منتشرون فزاغت عينا سر النهر للكثير من الرجال يحملون على ألواحٍ خشبية بقية من رمم البكوات ينقلونها من خلف باب العزب فيلقونها في نقر عميقة بالرميلة لا تعرف الأمير من غيره، أشار حيدر إلى أقرب الواقفين فدهش الجندي لوجودهم صوّب الغدّارة وآخر رفع القنطارية[1] في وجوههم ففرد حيدر كفه في رجاء:

- أرجوك يا بني، أريد مقابلة القائد حسب الوكيل عمر بكداش.

---

(1) القنطارية: الحربة.

- لِمَ؟
- أريده في مسألة.
- إنه هناك.

ابتلع حيدر ريقه لتيسير مقصده وراقب ظهر الجندي وهو يبتعد وينادي على القائد فيستدير في مواجهتهم، خطا نحوهم وحاجباه متقاربان في تقطيب، يلف على نصف وجهه منديلًا اتقاء رائحة الجثث التي تأخرت مواراتها وتخثرت الدماء ففاحت نتانتها معبقة المطرح الواسع، كافي انقلبت مصارينه وأوشك أن يفرغ ما أكل، قادهم القائد حسب الوكيل بعيدًا ولم يلبث أن فك رباط المنديل فبدا على وجهه نكدًا يشي بما يشعر به من أمارات عدم الرضا لما يحدث.

- مرحبًا بالجد حيدر.
- لا أطيل عليك، حريص بك كان ممن في حضرة الباشا مع الألفية، حريص أخو الناجي النجار.
- عرفته.
- عرفته؟
- كما عَرَفته سيوف أتباع القائد حسن، حكوا أن واحدًا من البكوات حين أمطرهم الجند بالرصاص رفع سيفه وصرخ بأعلى صوته: أنا حريص بك ابن رحيم البولاقي، دفع سيفه بقوة نحو أحد الواقفين بأعلى الممر فأصابه.
- أخي حريص قتل واحدًا من الأرناؤود!

- ونزل من على فرسه واحتمى به والفرس يتلقّى الرصاص حتى خرّ باركًا على الأرض ووجد الجند أخاك جريحًا فـ...

سكت القائد حسب الوكيل فأطرق الناجي وفهم ما حاق بأخيه، احتبست الكلمات فلم يقو على إتمام ما جاء من أجله، فأنقذ حيدر الموقف برجاء:

- نشكرك يا حسب الوكيل ونطمع في مروءتك وتسلمنا جثة حريص فندفنه في حوش عائلته.

- غير ممكن يا عم حيدر، كل حفرة مردومة بها العشرات.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- يلزم أن ترجعوا وأشهد الله يا شيخ حيدر أن بندقيتي لم أرش رصاصها في مخلوق يوم وقعة باب العزب، ابتعدوا وأنا بنفسي أزوركم بالليل.

-١٨-

- تريد رأيي يا ناجي، تعود كنانة لبيتها.

كسر حيدر حاجز الصمت المطبق عليهم وهم في طريق العودة إلى البيت فلم يرفع الناجي وجهه الواجم، ركام الحزن يهصر روحه على خاتمة أخيه التي لم تخطر على بال أحد، لوى عنقه في بطء فكرّر حيدر عليه رأيه وانتظر.

- تعيش وحدها؟
- لا، تسكن معها.
- أنا؟
- أنت وريث أخيك ويحق لك عمار بيته بعد خرابه وتحمي حق كنانة.
- وزوجته أم السيد، ستحضر من الإسكندرية وتطالب بحقها، لا، لا.

حقيقة لم يحسب حيدر لزوجة حريص أي حساب، وهي أخت الأمير جقمق ولن تتهاون بعد أن تعرف بما حدث لابنها السيد أو زوجها عن حقها، فسكت منتظرًا ما يقرره الناجي، استمر حيدر في صمته وظلوا يقطعون الشوارع حتى قابلهم أبو فراس يسير في تمهل متوكئًا على عصاته الغليظة فاستوقفهم مسلمًا على حيدر، يتأمله سر

النهر وهو يشعر تجاهه بشفقة جارفة لما أصابه منذ قديم من جرح غائر لا يلتئم مهما انطوت عليه أزمان، تهيّأ أبو فراس ليحادثهم لكنه شعر بسخونة الشمس فقادهم نحو شجرة ليترطّب بالظل وكافي متأفف من تأخير أوبته إلى البيت ليستريح.

– احكم يا شيخ يعقوب، لا يريد الناجي أن يسكن بيت أخيه حريص وهو وارثه مع ابنته كنانة.

– بل يسكنه من فوره ولا يترك فرصة لأحد أن يستولي عليه، الباشا محمد علي –مع تقديري لما فعل بالمماليك– أنعم على خواصه ببيوت البكوات بما فيها فنزلوها وسكنوها.

– ليس من حقهم.

– هذه البيوت خلت من أصحابها المقتولين بباب العزب وهجرها العبيد وفرّت منها الخوندات والجواري لكن لو ظهر لها وريث لما استولوا عليها.

– عرفت يا ناجي، هذا ما أقصده، تعود إلى بيتك ولكن لتجمع كل من يعمل عندك وسر النهر وكافي معك فتسرع لبيت أخيك وتنظفونه وتعيدون ترتيب أثاثه، إنه حق كنانة يا رجل.

– وزوجته أم السيد؟

– لما ترجع قدّم لها واجب العزاء وبعدها عدْ إلى بيتك، وحق كنانة محفوظ وهي من تقرّر حياتها، تبقى مع زوجة أبيها أم معك.

– نعم الرأي يا شيخ حيدر وقبل أن أستأذنكم أبشركم بأيامٍ سعيدة بعد زوال شر المماليك، والباشا لا يشبه ولاة العثمانية الطماعين وأتوسّم فيه حبه لإصلاح البلاد وأحوال العباد.

خطا أبو فراس قاطعًا الشارع قبل أن يشكره حيدر على صواب رأيه وتنبيهه النافذ لما يفعله الباشا ببيوت وقصور الأمراء والبكوات الألفية وغيرهم من كبار التجار ومياسير أهل القاهرة، ثبت حيدر عينيه في عيني الناجي وهو يقول في هدوء:

- ما ضاع قد ضاع فاستقبل ولا تستدبر، وكنانة أحق بصون ميراثها.

لم يجد الناجي حجة أخرى فهز رأسه واستدار ليفارقهم نحو بيت أخيه وأول ما يفعل يُحكم إغلاق أبوابه ومن الغد سينفذ ما نُصح به، فأيده كافي وأمر سر النهر بمرافقة جده في طريق العودة إلى البيت.

***

بيدها المبللة تمسح زينة الوادي جبين كنانة ثم نهضت من فورها وسكبت الماء البارد في ماعون، غمرت خرقة نظيفة وفردتها على وجه صاحبتها فأغمضت كنانة عينيها وفتحتها وهي تتأوّه من سخونة تستبد بجسمها، دبيب الخطوات في الخارج نبّه زينة بالقادم فخرجت من الغرفة، استقبلها جدها بابتسامة لم تلبث أن غامت بعد أن أخبرته بحمّى ضيفتها، قطب سر النهر حاجبيه وسار خلف جده فالتفت إليه وفرد سبابته أمام وجهه فأجفلت قدماه ووقف قرب باب الحجرة، جاهدت كنانة في النهوض من مرقدها ووجهها تعتليه حمرة خفيفة، فرد حيدر كفه على صدغها، التفت إلى زينة وأمرها:

- استمري في تخفيف الحمّى.

تركهما وأغلق خلفه الباب فقرأ على سحنة حفيده علامات وطأة الخوف لكنه طمأنه وأمره أن يصحبه نحو خزانة الغلال، من كيس قديم أفرغ أوراقًا يابسة وعلى الفور غلى سر النهر الماء وسكبه في كوب كبير، أعطاه لكنانة فدخلت به ورافق حيدر حفيده نحو الغرفة الخارجية.

- يا سلام، جدك زرع النيل كان يستخدم عشبة الريحان إذا ما أُصيب واحد بالحمّى، مع مرور الوقت تتحسّن إن شاء الله.

تمتم سر النهر بدعاء الشفاء لكنانة وتمنّى في هذه اللحظة أن يسقيها بنفسه الترياق ليخفف ألمها، تلاقت رموشه ورغبة في النوم اجتاحته لكنها هربت حين تناهى لمسامعه تلاغط أصوات أبيه مع الناجي وهما يدلفان البيت.

- أخبار بيت أخيك!

- فيك الخير يا عم حيدر على نصيحتك، واشكر الحاج يعقوب إن قابلته، رافقنا عمالي ورتبنا أثاثه الباقي على قدر جهدنا والبيت جاهز للمعيشة وإن شاء الله، كنانة تبيت فيه الليلة.

- كنانة محمومة.

ما كاد حيدر يخبره حتى انتفض الناجي في قعدته وهمّ أن يقف فطمأنه بأنه جهز لها ترياقًا يخفف حمتها وأكد:

- لا داعي تطلع في البرد، ممكن غدًا أو بعده وزينة تهتم بدوائها.

لم يجد الناجي بدًا من الموافقة على طلب حيدر فبيت أخيه حريص يحتاج مزيدًا من الترتيب وكنانة متعبة فلا مناص من بقائها يومين أو

أكثر لحين استرداد عافيتها، استأذن الناجي في العودة لبيته مع وعد لزيارتهم بالليل ليطمئن على بنت أخيه.

***

فور استيقاظه أزاح عن جسمه الغطاء ونهض، أبوه يغط في نومه فأغلق عليه الباب ومرّ أمام الغرفة المقابلة وبابها موارب، أطلّ فإذا بكنانة مستلقية على جنبها وعيناها مغمضتان، أيقن أن التي بالحمّام أخته زينة، على جمار الكانون الهادئة ركن التنكة وفتح الكيس الكتاني، بأصابعه تناول الريحان المفروك ووضعه في الماء وانتظر غليانه، سكبه وحرّك الملعقة ليحليه بعسل النحل، لا يدري كيف جرؤ على الدخول، تقرفص أمامها يتأمّل وجهها فتفجر خفقان قلبه بدماء دافقة أحالت شوقه إلى رغبة لا مدى لها ليضمها، ابتلع ريقه وبرفق فرد كفه على جبينها النَّديّ فاطمأن لبرودته، كالملسوع سحب يده حين فتحت عينيها وحاولت النهوض فساعدها لأن تقعد وظهرها إلى الجدار، قدّم لها القلة فتناولتها من يده وشربت في هدوء، رائحة البخار تزكم أنفها فقرّب إليها كوب الريحان الساخن، أراد أن يعطي لنفسه سببًا آخر لمجيئه فقال في حماس:

- عمك الناجي مع عماله يرتّب البيت.
- الحمد لله، أعود إليه الليلة.
- لا، جدي حيدر أمره أن تبقي معنا لحين زوال الحمّى.
- لا أكسر كلمة الجد حيدر وأنتظر، والله لأنتم أحب إليّ من بيوت الدنيا.

- تقبلين الحياة هنا في بيتنا الـ...

أصابعها المفرودة على شفتيه بترت كلمته التي لا تريد سماعها ففاضت الدموع من عينيه وارتوت روحه بلثم كفها، من بين رموشه المبتلة تراءى له إيماءات رأسها فارتسمت على قسماته كل أمارات الرضا فكانت قبلتها التي وشمت جبينه هي الثواب الأعظم، لفته غمائم من أمنيات كثيرة بددتها خطوات وئيدة تقترب فرجع بظهره إلى الوراء وعيناه تكتحلان بنضارة وجهها، في هدوء شربت من الترياق الشافي، دقات على الباب وحين التفت طالعته زينة الوادي والمنشفة على رأسها، همست إليه بأن جده صحا وتريد أن تمشّط شعرها قبل أن تغلي له قرون القرض التي يحب احتساءها، غمزت له بعينها، انشرح صدره وقبّل وجنتي أخته وذهب إلى جده وهو يعتبر نفسه الأوفر حظًا من بين فتيان زمانه.

- أريدها يا جدي.

كطلقة من طلقات المكاحل المرصوصة على أسوار القلعة قذف بعبارته فالتفت إليه جده واصطنع تقطيب حاجبيه ثم انفرج وجهه وهزّ رأسه مرات وهو يوقن أن العبارة التالية لسر النهر ستكون: لنخطبها من عمها، ففرد سبابته أمام وجه حفيده وكالسيف القاطع بترت كلماته جموح الرغبة:

- لا يصح أن تخطبها وهي في بيتك، حقها علينا أن ترجع بيتها أو بيت عمها الناجي ويفعل الله ما يريد.

همّ أن يجادل رأي جده بأنه يعلم موافقتها مقدمًا ولا يهم أن تكون هنا أو هناك لكن نظرات جده الصارمة ألجمته ولسان حاله يقول: عرفت فالزم السكوت واكتم ما في نفسك؛ فتمنّى شفاءها لتعود إلى بيتها ويُقدم على خطوته المصيرية، انطبقت شفتاه ومناداة من الخارج دفعته لأن يخطو نحو الباب ويفتح للعربي الحلو فيدلف في سرعة ويلقي السلام على حيدر ويتهالك جالسًا جواره.

- انقلب الأرناؤود من ملاحقة المماليك إلى مطاردة اللصوص والزعر ونهابي البيوت.

- يلزم أن يعود الأمن للبلد.

قالها كافي وهو يركن ماجور النار وسط الحصير ولم يلبث أن حمل حشية عريضة ووضعها خلف ظهر أبيه، فتوقع سر النهر أن يمضي سمره وهو يستمع للحكي وإذا أُضيف لجلستهم الناجي الذي يرجو قدومه فقد اكتملت الصحبة ويستكمل منهم أخبار ما حدث من وقعات، أفاقه سؤال العربي الحلو:

- لم يخبرنا أحدٌ ما حدث بالقلعة.

- قريبًا نعرف ما جرى بالقلعة.

التفتوا جميعًا نحو حيدر وهم لا يفهمون ما يقصد، كعادة كافي ذي النفس البسيطة يلقي بما يستعصي عليه فهمه دبر تفكيره وانتظر العربي الحلو أن يفصح العجوز عمن يروي لهم الأفاعيل التي وقعت خلف أسوار القلعة، أما سر النهر فصمت مترقبًا إلى أن دخل الناجي محنيّ الظهر.

- آه، هلكت مع الصبيان في ترتيب بيت أخي حريص.
- أغلقته!
- والأهم رجوع عويضة البستاني وحارس المخزن وكلفتهما بحراسة البيت لحين عودة كنانة.
- جميل وربنا يجعل من بين أيدي اللصوص سدًا ومن خلفهم سدًا وتغشى أبصار عيون الأرناؤود عنه.

دون إذنهم ألقت كنانة السلام عليهم خلفها زينة الوادي تحمل أقداح الشراب، تناول سر النهر الطاولة وفي نفسه اعتراض على ظهور كنانة أمام العربي الحلو، أمال الناجي ابنة أخيه وقبّل رأسها وهو يفرحها:

- تتعافين من الحمّى وعن قريب نرجع البيت.
- ما شاء الله، بنت حريص على ما أعتقد.
- سلمي على عمك العربي يا كنانة.

ما إن صافحته حتى أشار عمها بيده في نفس اللحظة، التي رجم سر النهر أخته بنظرة معاتبة لدخولها، فغادرت الفتاتان في سرعة فاغتاظ من نظرات العربي المتفرّسة وشعر بشيء ما يتدبره الرجل في نفسه، فكظم حنقه وانفلتت أحبال تفكيره أنه قد يخوض معركة للدفاع عن حقه في كنانة، أفاقه قرع منتظم على الباب وصوت من الخارج يردد اسم جده، فنهض كافي في سرعة وفتح، وقف العربي والناجي بدورهما وتحسّست يد حيدر عكازه ليستقبل الضيف.

- السلام عليكم.

انحنى القائد حسب الوكيل حتى لا يشق على حيدر بالنهوض للسلام عليه، ركن بندقيته خلف الباب فهيّأ سر النهر مكانًا لجلوس القائد الذي لم يتوقّع كل من الناجي وكافي والعربي الحلو مجيئه.

– قبل جلوسي أستأذنكم في الكنيف لأني محصور من أوّل الصباح وأرجوك يا كافي تربط فرسي بحظيرتكم.

دون أن ينتظر أمرًا من جده أو أبيه نهض سر النهر فقاد ضيفهم نحو الحمّام، فكّ حزام السيف الجلدي وركن الغمد على الجدار، تناول الشاب خوذة القائد الحديدية والشال الملفوف حولها، انتظر وتفكيره يناوشه.

– آه عليك يا حيدر يا عجوز، والله ما رأيت أبعد نظرًا منك.

تمتم بها وانتابه المزيد من الإعجاب برجاحة عقل جده، الكل تناسى أن القائد حسب الوكيل عرض زيارته لجده وهم بالرميلة وأكيد سيجيب عن تساؤلاتهم جميعًا عما دار بالقلعة، في آنٍ واحد أطلّ الوجهان المتجاوران الأبيض والأسود فرفع رأسه وندّت عنه ضحكة لابتسامة زينة وكنانة وخطا نحوهما فاكتمل خروجهما من الغرفة ووقفتا أمامه.

– من بالكنيف قائد من بلد بعيد اسمها سارنده.

– أرناؤودي!

بطعم العلقم خرجت الكلمة من بين شفتي كنانة وكخدوشٍ في مرآة ملساء بدت آثار الامتعاض على وجهها، قوّست زينة ذراعها على كتفي صاحبتها وربت سر النهر على كفها وهو يطيّب خاطرها:

- القائد مختلف يا كنانة وأقسم أنه ما رفع سلاحه وأنقذني من رصاص بندق الأرناؤود.

- أصدقك.

انفتح باب الحمّام وكحجرين وقفت كنانة وزينة أمام حسب الوكيل تحدقان فيه، تقدمهما سر النهر؛ ليعطيهما فرصة الانسحاب لداخل الغرفة فتراجعت الفتاتان وأغلقت زينة الباب، تريّث القائد والتقط المنشفة من على المشجب المدقوق بالجدار فمسح رأسه في هدوء والماء ينقط على رقبته، مدّ سر النهر إليه الخوذة فرفض واكتفى بمساواة شعره البني الطويل، لم يلف حول وسطه الزنار الجلدي وأشار إلى سر النهر بأن يحمل السيف.

- أنت تشبه أختك يا سر النهر، ومن الأخرى؟

- كنانة بنت حريص أخي الناجي.

رافقه سر النهر إلى الغرفة وهو ملفوف بغمامة ضيق تنغز نفسه، ولامها على الإفصاح بوجود كنانة ببيتهم للقائد الغريب، دخل وراءه وهو يضمر أن يؤكد على جده بعد انتهاء سهر الليلة ضرورة مفاتحة الناجي في أمر كنانة.

***

- بكل تأكيد يوجد مصحف هنا، أحضروه لأقسم أمامكم مرة أخرى أني لم أقتل وكالكثيرين غيري لم نعلم بتدبير الباشا.

قالها حسب الوكيل وهو يتربّع عن يمين حيدر يجاوره العربي الحلو فألقى عليه الناجي نظرات نارية واندفعت كلماته كألسنة اللهب:

- الأرناؤود كلهم غدروا بضيوف الباشا وأنت واحد منهم.

- من تتكلم عنهم نفذوا أمر الباشا وعلى كلٍ لستُ واحدًا منهم، وإن كان وجودي يضايقك فأستأذن، إنما جئت لأسلم على عمي حيدر قبل رحيلي إلى سارنده.

همّ بالنهوض فاستوقفه العربي وأشار إليه حيدر بأن يكمل قعوده، ألقى كافي نظرات اللوم على صاحبه بينما تمنّى سر النهر أن يتركهم حسب الوكيل لكن نزوة من فضول قلبت أمنيته إلى الضد فجده لن يترك القائد يرحل دون أن يعرف منه ما جرى داخل أسوار القلعة.

- أفسدتَ ولم تصلحْ يا ناجي، دون أن يحلف القائد أنا مصدقه.

الجميع أُلجمت ألسنتهم من رد العجوز القاطع ولمح في عيني الناجي اعتذارًا عن مهاجمة ضيفه وهو في داره، بمرحه المعهود خفّف العربي الحلو من وطأة محاكمة الناجي للقائد حسب الوكيل.

- وأين كنت أثناء اللعبة أيها القائد الهمام؟

- ليست لعبة يا رجل بل نقمة ومصيبة نزلت على الناس.

حتى لا ينقضي الوقت في مهاترات لا طائل منها، آثر حيدر اختصار الحوار في استدراج ضيفه القائد ليروي ما يريد سماعه، وسر النهر ينتظر تلك اللحظة للحديث عن فاجعة الأمراء والبكوات داخل القلعة.

- والباشا محمد علي يا حسب الوكيل، كان بالقلعة وقتها؟

- نعم يا جدنا الطيب، بعد تباسطه معهم وتناولهم شيئًا من الطعام والقهوة، وضحكاتهم كانت تجلجل، مال عليه سليمان بك البواب واعتذر عن تخلف بعضهم عن الحضور لأنهم بالصعيد فقابل الباشا اعتذارهم بالتجاوز والإعراب عن تسامحه وحسن مقاصده للمتخلفين، بعدها أمر ببدء الموكب فسار الدلاه والوالي والمحتسب وطوائف العسكر الرحالة والخيالة وأصحاب المناصب.

- انطلقت طلقة رصاص في الهواء وبدأت المعركة.

- ليست معركة يا سر النهر لكنه أمر بالقتل، فما إن شرع الجند الأرناؤود في إطلاق رصاص بنادقهم حتى ارتبك الأمراء والبكوات وتحيروا من أمرهم ونزل بعضهم عن خيولهم، كبيرهم شاهين وسليمان البواب ومماليكهم رجعوا إلى فوق ورأيتهم ينزعون ما عليهم من فراوي وثياب ثقيلة فوصلوا إلى الرحبة الوسطى المواجهة لقاعة الأعمدة فأصيب شاهين فقطع الجند رأسه وأسرعوا به إلى الباشا ليأخذوا البقشيش.

- يريدون البشرى بمقتل كبير المماليك.

- وأقواهم.

- وأكثرهم سطوة على الناس.

بنظرات متطايرة دارت عينا حسب الوكيل بين وجوه المعلقين على روايته عدا حيدر الساكت منتظرًا عودتهم للصمت؛ كي يستأنف شاهد العيان روايته.

- الباشا ركب من ديوان السراي إلى بيت الحريم وهناك انتظر انتهاء جنده من مهمتهم، رأيتُ الكثيرين يهربون إلى بيت طوسون باشا للاحتماء به فقتلوهم وسلبوا ما عليهم من ثياب والكثير منهم يصرخ: أنا لست منهم، أنا لست مملوكًيا.

- وتركوهم؟

- لم يرقوا لصارخ ولا مستغيث ومن لم يمت منهم من الرصاص قبضوا عليه، وأذكر منهم ممن علمت بأسمائهم أحمد الكيلارجي ويحيى بك الألفي وعلي كاشف الكبير فجاء المشاعلي وقطع رقابهم في حوش الديوان.

- قتلوا مرة واحدة؟

- استمروا من ضحوة النهار إلى أن مضى حصة من الليل فامتلأ الحوش بالقتلى فانصرع الكثيرون وانتقم الأرناؤود منهم شر انتقام حتى أنهم ربطوا رجلي شاهين بالحبال وسحبوه على الأرض مثل بهيمة.

الكلمات الأخيرة شلت ألسنتهم ودار في خاطر كل منهم ما واجهه الأمراء والبكوات من محنة قاسية مشينة، وأيقن حيدر أن الأمر خرج من مجرد قتلهم إلى التنكيل بهم فالباشا أيقن أنه إما هو وإما هم ولا ثالث بينهما، فحسم الأمر ودبّر في السر وجهر بالتنفيذ وقُضي الأمر، سر النهر يثبت عينيه الذاهلتين في وجه القائد حسب الوكيل وذاكرته وعت كل حرف أفصح به وأدرك أن هذا ما يريده الشيخ الجبرتي وسيرويه له، التفت إلى أبيه فلم يسمع منه غير مصمصة الشفاه والحوقلة بصوت

خافت، رجع بظهره إلى الوراء لوجه الناجي وعينيه الجاحظتين فأدرك أن الرجل المفجوع يدور في خياله ما حدث لأخيه من نكبة.

دارت نظرات حسب الوكيل متفرّسًا سحنات مستمعيه وانتظر كي يشجعه أحدهم على المضي في الحكي فبادأه العربي الحلو:

– ما أغضبنا هو نهبهم بيوت لأعيان ليسوا من الأمراء المقصودين.

– أباح الباشا لجنده ما ملك البكوات، لكن الأرناؤود تمادوا في سلب كل ما طالته أيديهم، واستغلّ اللصوص الأمر وسطوا على الكثير من مخازن التجار وبيوتهم وحواصلهم حتى نزل الباشا شوارع القاهرة وأوقفهم بنفسه.

– أعلم، أمر بشنق لصين نهبا بيتي.

– والله يا جماعة الخير ما رضيتُ عما حصل لذا...

– تعود إلى ديارك.

– لم أطق ما حدث يا جدنا فتحيّنت فرصة الأمر بنقل بعضنا وأدرجت اسمي بينهم فنرحل من الغد أو بعده.

– نعم ارحلْ، لا أتمنّى إنسانًا مثلك صاحي الضمير يبقى هنا.

فاه حيدر بعبارته هادئة مؤثرة وأدرك الناجي أن العجوز مقتنع بتبرئة يد القائد مما جرى بالقلعة، فابتردت نفسه قليلًا وتقهقرت رغبة مختبئة بالفتك بأي أرناؤودي تابع لجند الباشا، فهذا واحد من أعوانه لم ترض نفسه عما أوقع من أفاعيل ويكفيه أن القائد أقسم أنه لم يشارك في المذبحة، نهض حسب الوكيل من مجلسه فسلّم على الجميع ووقف

أمام حيدر فارتمى على صدره مربتًا على كتفيه وقبّل جبينه الممتد ومال على ظهر كفه ليلثمها لكن العجوز سحب يده في سرعة.

- والله يا جدنا ما رأيت رجلًا مثلك ولن أنسى فضلك في مداواة قدمي.

- ترجع إلى أهلك بالسلامة يا ولدي.

تراجع القائد ورافقه كافي والناجي حتى الباب، أسرع سر النهر بفك رباط الفرس وقاده نحو صاحبه فلم يمتطه وجره عدة خطوات ثم التفت إلى الناجي وابتسم قائلًا في تودد:

- أخي الناجي، أنتم أهل أصول وقد رأيت بنت أخيك المرحوم حريص، فتاة جميلة وحياؤها يبرهن على خلقها.

نهشته نظرات سر النهر وتحالفت رغبته مع رغبة الناجي القديمة فتمنّى لو يشهر الخنجر ويقطع لسانه قبل أن يكمل ما يريد، أما الناجي فتلبسته صنوف الغيرة على ابنة أخيه لكنه كتم ما في نفسه؛ حتى ينهي القائد ما يريد قوله، زفر حسب الوكيل نفسًا طويلًا وهو يفصح:

- ابني إيلير شاب جميل ويملك أرضًا في سارنده وبيتًا و...

- كنانة بنت حريص رحمه الله مخطوبة يا قائد حسب الوكيل.

كطوق نجاة لسر النهر وللناجي اندفعت كلمات كافي لتقضي على أي رغبة لدى القائد في الإصرار على طلبه فلوى سر النهر عنقه نحو أبيه وقلبه يخفق بامتنان لا حدود له وودّ لو تعلق برقبته ويقبله، لكن القائد لم يبال بكلمات كافي وأطال النظر نحو الناجي ولسان حاله يقول أن الكلمة الأخيرة لك يا عمها فلم يتمهل الناجي ولم يزد على رد صاحبه:

- كما قال كافي أيها القائد وشكر الله لك تواضعك بزيارتنا.

- ربنا يطيل حياتكم ويحسن عملكم، سلامي الأخير لعمي حيدر.

في حركة خاطفة امتطى القائد صهوة فرسه، أمال عنق حصانه وهمز بطنه فانطلق وظلّ الناجي وكافي يرقبانه حتى أخفته طية الشارع وعادا إلى الجلسة بينهما سر النهر وروحه تفيض سرورًا ورضاء.

- تأخرتم.

- ودعنا القائد حسب الوكيل.

- غريب أمر القائد الأرناؤودي.

- ليس منهم يا عربي، الرجل من بلد بعيد على البحر اسمه سارنده على ما قال ويملك مع إخوته أرضًا وأبقارًا.

- أقصد أنه غريب ألا يكتنز كغيره فيكفيه أن يأمر جنده بلملمة الأسلاب التي كانت ملقاة في الطرقات.

- لأن نفسه نزيهة ومن بيت طيب ولا يحلل ما لا يحق له.

- المهم يا عم حيدر سمعت أن حسن باشا الأرناؤودي هو وجنوده أكثرهم بطشًا بالمماليك فقد أظهر كامن كراهيته ولم يقبل شفاعة في أي مملوك أو من تشبّه بهم وأمر بالبحث عن المتخفي منهم وضرب رءوسهم وإرسالها إلى الرميلة.

- غير من قتل في نواحي البلاد من كشافين من قبلي ومن بحري ويلقونهم على أبواب القلعة.

- والعجيب يا جماعة أنهم يعطون الأمان للواحد منهم، وما إن يسلم نفسه حتى يذبحونه وبعضهم سلخوا رأسه و...

- كفى، كفى، والله إنها من أشنع ما جرى.

علا صوت حيدر بعبارته فألجمت ألسن المتحلقين حوله، دون أن ينظر إلى أحد نهض يتوكأ على رمانة عكازه الحديدية وفارقهم إلى حيث غرفته وعند الباب استوقفه صوت الناجي:

- أستأذنك يا عم حيدر أن أعود بكنانة إلى البيت.

- في الصبح يا ناجي، النهار أفضل وبالمرة تكون أكملت تجهيز بيت أخيك.

***

علم سر النهر أن الشيخ الجبرتي لا يمكث ببيته، لساعاتٍ يجول من مسجد عمرو العتيق بالفسطاط إلى نواحي خان الخليلي ووكالة الغوري يسمع من شهود العيان كل ما جرى ويدقق في أي حادثة تعرض لها الأهلون من ساكني الدروب والنواحي القريبة من الرميلة، فاكتفى الفتى بالذهاب إلى الأزهر والإنصات إلى شيخ العمود وذهنه يشرد أحيانًا وينتبه قليلًا إلى أن أنهى الشيخ حديثه ففارق زملاءه متخليًا عن عادته في الاستماع إلى الأسئلة التي يلقيها البعض ويجيب عنها أستاذه، عصر اليوم وقبل رجوعه إلى البيت مرّ أمام الشارع الضيق فوجد نفسه يخطو نحو دكان عبد القادر الإزميري، وجده مفتوحًا والشاب غائبٌ نصفه أمام النوال الكبير،

منهمكًا في دفع بكرة الصوف وتحريك قدميه حتى أنه لم ينتبه لسر النهر الواقف أمام الباب:

- السلام عليكم.

مبتسمًا رفع عبد القادر رأسه وبخرقة قماش مسح العرق، في خفة خلّص عوده المحشور من أمام آلته ومد يده مسلمًا.

- مرحبًا سر النهر، أخبارك، وأخبار أسرتك الكريمة!

- بخير.

- عرفت أن شيخنا لا يريد زيارات لنهاية الأسبوع.

- الشيخ الجبرتي مهتم بجمع كل أخبار وقعة الباشا مع المماليك.

- آه على هذا الرجل، بدأت في قراءة كتابه «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس» وأتعجب من براعته في التدوين، لولا وجوده في هذا الزمان لما كتب أحد عن حوادث ما جرى.

- كان غيره سيكتب يا عبد القادر، أنت قلت لي أن والدتك بدمشق، ألا تعيش مع أبيك؟

- من سنوات انفصلت عنه بعد أن تزوج ابنة كبير عرفاء النساجين بإزمير وأنا نفسي هجرته وعشت مع أمي بدمشق.

- ترجع لها بالسلامة إن شاء الله.

- معك حق، أخبار كنانة بنت حريص! عرفت أن أباها لم يخرج من القلعة!

- قلتها لك يا أناضولي، عمها يتولّى رعايتها.

- سلامي له.

لم يعلق سر النهر واستدار يستحث الخطى مبتعدًا عن الدكان وعادت أنصال الغيرة تنغز نفسه من عبد القادر لسؤاله المتكرر عن كنانة، وندم على زيارته له، لا يدري كيف قطع الشوارع إلى أن وصل إلى البيت وخيوط النهار يطويها دبيب العتمة، جاشت نفسه لرؤية كنانة وتصنُّع معاونتها مع أخته زينة الوادي في تحضير العشاء فيستأنس بوجهها الحلو ويقتنص اللحيظات للقبض على كفها أو ملامسة كتفها فتدرك ما يريد وتكافئه بابتسامتها الخجلى، وصل وبقية من سرور مرتسم على وجهه، جده يميل جسده مقتنصًا سكرة استرخاء آخر النهار واستغرب انغلاق باب الدكان، دون أن يحرّك رأسه أدار حيدر عينيه نحو حفيده الواقف أمامه.

- كنانة رجعت بيتها يا سرّي.

ثبتت خطوته وكأن دلوًا من ماء انهمر على رأسه فاقشعرّت نفسه وانتابته رعدة خاطفة قبل أن يخطو نحو الباب لا يلوي على شيء غير استجواب زينة عما جعلها تفرِّط في صاحبتها فلا تبيت معها ليلة أخرى بأي حجة من الحجج، جفلت قدماه لأمر جده المباغت.

- اجلس، غرضي أقول لك حاجة.
- خيرا.
- قبل الظهر كنت مع عمك الناجي في أمر خطير.

ابتلع سر النهر ريقه وانتابته رغبة جموح في معرفة ما ألمّ بالناجي من خطورة وقلق على مستقبل طلبه يد كنانة فصبر حتى يفصح جده عما حدث.

- حضر صباحًا تاجر كبير من دمياط ومعه صكوك رهان بيت حريص بالجنينة والمخازن وإسطبل الخيل وقدمها للقاضي فتحقق منها وأمر باستدعاء الناجي ليدفع للتاجر مالًا اقترضه حريص أو يحوز البيت.

- يا ساتر استر يا رب، الناجي من المستورين ولا يملك الـ...

- كما قلت وحكم القاضي للتاجر الدمياطي بقضاء دينه ولم يؤذّن الظهر حتى رافقناه إلى بيت حريص.

- واستلمه؟

- استمهله الناجي لآخر النهار وعاد فصحب كنانة ورافقه أبوك وهم هناك.

سحابة من صمت محيّر لفّت روح سر النهر فأغمض عينيه ورغبة عارمة في القفز نحو بيت كنانة ليواسيها في مصابها الآخر من فقد مأواها الذي ولدت به وتربت فيه وعاشت متنعمة لولا تنغيص أخيها السيد حياتها، نظرة محذرة أطلّت من عيني جده فقطعت تفكيره، خطا إلى الداخل ليفكر بصوت عالٍ مع زينة، رآها تتمدّد على فراشها فنهضت.

- أجهز لك حاجة تأكلها!

التمعت الدموع في عينيه ولم تتأخر عن سيلها على خده المرتعش فأطرقت زينة رأسها وربتت على كتفه ودون أن تعطيه فرصة لمساءلتها.

- عرفت بما جرى!

- أخبرني جدي ولكن المسكينة ما كان شعورها؟

- سلّمت أمرها لله وأصرّت أن تصحب عمها لتنقل معه كل أغراضها.

- تنقل أغراضها! إلى أين؟

- اعتبرت كنانة بيت عمها هو الأولى بها، سمعتها عند الباب تطلب منه تجهيز عربات لنقل كل ما تعوزه وحضنتني مرتين قبل أن تسلم على جدك.

عجزت الكلمات عن الانفلات من بين شفتيه وهو واقفٌ يستمع لأخته وأدرك أن كنانة ضمّت أخته مرة لها والثانية كأنها ترسلها له فهدأت نفسه وطاب خاطره، ذهب إلى حجرته، تمدّد على السرير يتأمل سماء الغرفة، ملأ صدره بنفس طويل وومضت في نفسه فكرة لم تخطر له على بال من قبل فقد كان يضع في اعتباره لو تيسرت الأمور وخطب كنانة انتقالها من حياة الدعة إلى العيش في غرفة بالبيت مهما اجتهد في إصلاح أمرها لن تظهر كحجرتها الواسعة ذات الأثاث والصناديق المذهّبة والأبسطة والفرش التي أحضرها حريص بك من خارج البلاد أو تكون كأثاث البرج الخشبي بأعلى البيت، والآن بعد استيلاء التاجر الغريب على العقار وانتقالها الوشيك لبيت جدها رحيم البولاقي فتقاربت الأحوال بينهما وأضحى الفارق بينهما ليس كبيرًا وضاقت هوّة التباعد فيستطيع أن يخطوها دون حرج، لم يشعر بدخول أخته عليه، اعتدل في جلسته قوّست زينة الوادي ذراعها حول كتفيه وهمست في أذنه:

- بعد العشاء اطلبْ من أبي وجدك التقدم لها.

- الوقت مناسب!

- مناسب، جدي حيدر كان يرى عيبًا في طلب يدها وهي هنا ومعه حق لكنها رجعت بيتها.

- أقصد الوقت مناسب بعد ضياع بيتها!

- بعد ضياع أبيها هان عليها أي شيء ولا تهتم بما حدث لأخيها ولا تزال تصفه بالفاجر، فيك من يكتم السر، واحدة من جيرانهم زارتها وحكت لي ولها أن السيد حاول مع أصحابه الفسقة خطف حسنة بنت جارهم الطيب مسعود تاجر الزيوت وقتله واحد من أصحابه ولم يزدها الخبر غير الدعاء عليه بالجحيم.

- الله لا يرحمه البعيد، هو وأمثاله الفسدة سبب خراب البلد والحمد لله، الباشا خلصنا منهم.

- اطلبها وعمها الناجي فيه الخير ولا يرفض لجدك طلبًا.

مال سر النهر نحو خد أخته وقبّلها فأزاحت يدها الطاقية الصوف من على رأسه ومسحت شعره في حنو، تركها وعاد ليتمدد على سريره الجريدي وشبك أصابع كفه خلف رأسه وعيناه ترقب فلوق السقف الكبيرة، غامت رؤيته بين طيات التأمل ونفسه المتوثبة تنتظر على أحر من الجمر ولوج المساء ليضع مع أبيه وجده النقاط على الحروف للتقدم إلى كنانة.

-١٩-

لم يشغل سر النهر تفكيره في اجترار ما دار بينه وبين جده وأبيه الذي عاد في ساعةٍ متأخرة من الليل، فاتفقوا على الإسراع في طلب يد كنانة وليكون ذلك في الغد دون التسويف في الأمر لئلا يطلبها واحدٌ من أقاربهم الساكنين ببولاق وهم كثيرون وبعضهم ميسور الحال من تجارة الخشب؛ فيُحرج الناجي في رفضه والعيون ستطل على ما نقلوه من البيت من فُرش وأبسطة، ويسيل لعاب البعض طمعًا في تحف ثمينة نجا بعضها من اقتناص اللصوص، كما حكى لهم أبوه فقد حرص الناجي على نقل كل ما يستطيع، وكنانة أمرت الحمالين بإفراغ البرج العالي مما به وكذلك غرفة مغلقة لم تطلها أيدي النُهّاب تحوي ما كانت تملكه أمها، فلم ينقض النهار حتى حضر الدمياطي واستلم مفتاح البيت من الناجي ونفسه العصية على الانكسار تحسّرت على بيت أخيه الكبير وهو يفقده وفاءً للدين.

انقضت الليلة وسر النهر يتقلب على فراشه كعصفور في مقلاة زيت مغلي لا يهدأ ولا تكاد تغفو عينه حتى يستيقظ، يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا يستحث الليل على الانقضاء، غفا بعد الفجر قليلًا ونهض مستعدًا لمغامرته الكبرى التي لن يفر منها تحت أي تهديد، فارتدى أحسن ثيابه وانتظر استعداد أبيه وجده ومرافقة زينة الوادي لهم، لكن هالة من كآبة حاصرته واغتم من فتح أبيه للدكان ومزاولة عمله فربّت جده على كتفه وهو يطمئنه:

- بعد العصر يا سري.
- نتأخر!
- إذن بعد الظهر واصبر وما صبرك إلا بالله.

برغم برودة الجو شعر بلهب يسري بين جوانحه من تأخير الذهاب إلى بيت الناجي وشغل نفسه ببعض الأعمال المملة حتى سأم الانتظار، وهمّ أن يطلب من أبيه الكف عن العمل فوجده يغلق باب الدكان وينفض يديه وزينة تنهي تسخين الماء ليستحم فارتاحت نفسه قليلًا وانتظر على مضض وضاق من هدوء أبيه وتباطؤه المفرط في ارتداء ملابسه، انتظرهم خارج البيت والدماء تفور من التعطيل غير المبرّر حتى خرج جده خلفه أبوه، لم يبال بعباراتهما السريعة المتبادلة في صوت خفيض وظلّ يتبعهما إلى أن اقتربوا من بيت حريص فتريّث جده قليلًا وهز رأسه وهو يمط شفتيه حسرة على صاحب البيت الذي ظلّ طوال عمره حريصًا على اغتنام فرصة العلو على أكتاف من تشبّه بهم فلم يأوه القبر الفخيم الذي ابتناه لنفسه فضمته إحدى حفر أطراف الرميلة مع رمم من تصيدهم الأرناؤود خلف باب العزب.

رفع سر النهر عينيه نحو البرج العالي وعض شفته على وداع الشاهد الوحيد على مصارحته كنانة برغبته وانفلات إفصاحها عن حبها له، وانبسطت نفسه حين علم من أبيه أنها حرصت على حمل كل ما بالبرج وأدرك أنها تريد ألا تترك شيئًا لم يشهد على ساعة كشفهما حقيقة حبهما، ارتخت أسارير وجهه وانتحت إلى الانقباض لمشربية البرج بنافذتها الصغيرة التي راقب منها ما حدث خلف أسوار باب العزب، تبع خطوات أبيه وجده صامتًا إلى أن اقتربوا من بيت

الناجي، ومن بعيد يتماوج شبحان شكّ سر النهر في معرفتهما، ولم تلبث عيناه أن اتسعتا عن آخرهما وهو يقترب، فيسلم الناجي على عبد القادر ويفرد كفه للعربي الحلو ويقفون لاقتراب حيدر وابنه وحفيده والأخير يكاد رأسه ينفجر من وجودهما، رفع حيدر يده بالسلام فتصافحوا جميعًا وعبد القادر الإزميري يطرق رأسه ويرفع يده بتحية أخيرة ويخطو مبتعدًا متحاشيًا نظرات رفيقه النارية، أما العربي الحلو فأسبغ السلام على كافي وحيدر واستأذن بدوره ففرد الناجي ذراعه أمام ضيوفه الجدد:

- مرحبًا عمنا حيدر، شرفتم بيتي المتواضع.
- البيت مشرّف بأصحابه يا ناجي.

خلفه ساروا نحو المنظرة الفسيحة التي رص بها الناجي أثاث بيت أخيه ولم يسعه الوقت كي يرتب كل الأشياء، فالكراسي المزخرفة والمبطنة بالحرير مرصوصة بجوار جدران مطلية بالكلس والأرض مدقوق بها أحجار متساوية بعض الشيء، التفت إلى جده فبدأ بكلمات اندهشت نفس سر النهر لها أيما اندهاش:

- المغربي نعرفه والشاب يشبه الشوام، ما الذي جمع الشامي على المغربي؟

من قلبه ضحك الناجي ودون أن يعقب تركهم، غاب بداخل البيت دقائق قبل أن ينفتح الباب على مصراعيه ويدخله واحد من صبيان دكان النجارة وبين يديه منضدة كبيرة خلفه الناجي يحمل طاولة عليها أكواب النعناع الساخن وطبق للتمر وآخر تتراص عليه

قرص الفطير، في حذر ركن الطاولة ولا تزال الابتسامة تخفف وطأة جهامته المعهودة:

- هنا طلب العربي الحلو يد كنانة لابنه، والكنبة التي خارج المنظرة استقبلت عبد القادر وهو من إزمير وأيضًا طلب يد كنانة، واعتذرت للشامي وطيبت خاطر صديقنا المغربي.

- وأنا أطلبها منك لسر النهر حفيد زرع النيل النيالي.

طرق حيدر الحديد وهو ساخن فلان وأطاع وتبسّم ضاحكًا وهو يرمق وجه سر النهر المحني في خجلٍ حقيقي فمدّ الناجي يده مشيرًا إلى الطبق:

- تفضلوا.

تناول كافي إحدى التمرات وهو ينتظر أن يفصح أبوه عن المزيد لينهي خطبة كنانة وسر النهر يشتعل قلبه كجمرة من شدة الخجل وود ألا يصحبهما ويترك جده يقوم بالمهمة ثم يعود فيبشّره، بدوره مدّ حيدر أصابعه العجفاء واستدفأت كفه بسخونة كوب النعناع وهو يرمق وجه الناجي المرسوم عليه أمارات الرضاء، ويتوقّع ألا يرفض طلبه وهو منذ موت أبيه رحيم البولاقي وابتعاد أخيه حريص قسيم ابنه كافي لقمة العيش فلا غنى لأحدهما عن الآخر سواء في عملهما أو في ليالي أسمارهم، والناجي بدوره يذكر فضل رعاية حيدر له ولأمه منذ رحيل أبيه، غير أنه يحب كافي ويرى سر النهر شابًا يتمسّك بالعلم مع حبه لعمل أبيه وجده، وفوق كل هذا علمه من كنانة نفسها ما اقتحمه من أهوال من أجل إنقاذها من أيدي الطامعين النهابين سراق

البيوت في أيام محنة بكوات المماليك ولن يكون أصله من أهل الجنوب حاجزًا لارتباطه بابنة أخيه وحيدر طوال عمره معتدٌ بجذوره وسيرة أبيه زرع النيل الذي لم يعمل خادمًا لأحد منذ أن وطأت قدماه أرض المحروسة.

دارت عيناه في وجوه ضيوفه العزاز على قلبه وابتسم ملء فكيه ونهض مائلًا نحو سر النهر وقبّل رأسه فانشرح صدر الشاب وتوسّم الخير، صامتًا عاد الناجي إلى كرسيه المجاور للعجوز فانفرجت أسارير كافي ومدّ حيدر يده فقبضت أصابع الناجي عليها، دون أن يكلف أي منهم نفسه بالطلب قرأوا الفاتحة وسر النهر لا يصدق نفسه أن كنانة أضحت من نصيبه فأمّن بعد جده ومسح وجهه بكفيه وقلبه يتلاغط من فرط الانشراح، التفت إلى دبيب الخطوات من ناحية الباب الجانبي ففغر فاه للبدر المطل عليه، خلفها مقبلة تبتسم وتسبق سيدتها فوضعت أكواب منقوع البلح البارد أمامهم وتمد يدها مسلمة وهي تهمهم، جوار عمها جلست كنانة مطرقة الرأس فتأملها حيدر وكأنه يراها لأول مرة فلم يعجب لتمسُّك سر النهر بها، فالبنت قمر بوجهها المضيء وعودها المتناسق، والطرحة الوردية تزيد وسامتها، دون أن ترفع رأسها تلعثمت شفتاها وهي تسأل:

- لم تأتِ زينة معكم؟

- الليلة تزورك إن شاء الله.

أجابها الجد حيدر وهو يتبادل نظرات الرضاء مع الناجي والأخير بدوره شعر أن الجلسة صامتة أكثر من اللازم وشاركه كافي إحساسه، فأراد أن يفتح ساحة للحديث فألقى بسؤاله المستغرب:

- وما سر تسميتها كنانة؟

كحفيف أوراق الشجر ندت عنها ضحكة خفيفة رنّت بين جوانب المنظرة الفسيحة غطت قهقهة حيدر عليها فمال الناجي إلى الوراء وهمّ أن يوضح، لكن كنانة رفعت رأسها في شجاعة وهي تجيب:

- سمعت أن ليلة مولدي حضر بيتنا واحد من التجار يُقال له أبو سهم المقدسي وأهدى أبي كيسًا جميلًا وقال له إنها كنانة توضع بها السهام، ولما عرف أن أمي ولدت بنتًا أسماني كنانة.

- كان بها سهام!

- لا، لكن أبي أمر بصنعها من الخشب القوي ورءوسها من الحديد المسنون.

- الكنانة هي جعبة السهام، آه لو نراها.

قالها سر النهر وهو مصرّ على إقحام مشاركته في الحوار وأجفانه لم ترمش خشية أن تمر لحظة دون النظر في وجه كنانة، التي نهضت من فورها وغابت قليلًا ثم أقبلت عليهم بوجهها البشوش، وتمد للجد حيدر يدها بكيس مزخرف منسوج من الكتان القوي وقعره مبطن بالجلد السميك بين طرفيها سير من الجلد الرفيع لتعلّق بها على الكتف يبزغ منها مؤخرة سهمين، تبادل كافي مع أبيه وابنه تقليب الكنانة حتى استقرت بين أصابع الناجي الذي أعطاها بدوره لابنة أخيه.

- لكن لا يوجد قوس.

- القوس موجود، أحتفظ بواحد قديم صنعه أبي زرع النيل أهديه لهما لتكتمل عدة سلاحك يا سرّي.
- أمرك يا جدي.
- واحذر أن تطلق سهمًا إلا ليصيب قلب عدوك.
- ربنا ما يجعل لنا أعداء.
- واحفظ يا سر النهر الكنانة كحرصك على نفسك.
- أحفظ كنانة والكنانة.

ران عليهم الصمت ثم تبادلوا الضحكات وسر النهر ظلت نظراته تطوّق وجه كنانة الذي بدا في أبهى جماله، تناولوا الحلوى وشراب النعناع الساخن، تحسّس حيدر عصاته المركونة على الجدار، معلنًا إنهاء الجلسة الودودة فرفع كافي يده وبجدية تامة وجّه كلامه إلى الناجي:

- من الغد يا ناجي نجهز الغرفتين جوار البيت لسكن سري وعروسه، وصدقني يا أخي لن نبخل بجهد فتحس كنانة أنه يعوزها شيء.
- بعد أن نقدم المشيئة، اترك لي تجهيز أثاثها.
- يكفيني ما نقلناه من البيت يا عمي ويكفيني أن أكون مع جدنا حيدر و.. و.. حبيبتي زينة الوادي.

في حماسة صادقة تواترت كلمات كنانة ثم همست بالعبارتين الأخيرتين، فتبسّم حيدر من قولها واقترب حتى واجه قامتها الممتلئة، مال ناحيتها ووشم جبينها بقبلة أودع فيها كل معاني الامتنان:

- ابنتي، حقيقة أننا نكسب قوتنا بعملنا والبعض يصفنا بالغرباء والكثير يرى أننا عبيد لسوادنا لكننا شرفاء وأحرار.

- أكيد يا جدي.

- وربيت عمك كافي وسر النهر وأخته زينة الوادي على عزة النفس، كما رباني أبي زرع النيل فلم نذل لمخلوق ولا مطمع لنا فيما يملك غيرنا.

- مشهود لكم كل ما قلته يا جدنا.

- أعلم يا ناجي ولكني أردتُ أن تعرف كنانة.

خطا حيدر نحو الباب يتقدّمه الناجي يتبعه كافي وسر النهر يتباطأ حتى خرجوا جميعًا، فالتفت إلى كنانة وخفق قلبه في شدة حين مسح على شعرها وهمس:

- بعد المغرب أحضر أنا وزينة.

هزّت رأسها ولم يلبث أن خرج من المنظرة إلى باحة البيت الفسيحة ولحق بأبيه وجده وحين سلموا على الناجي وابتعدوا قيد خطوات استأذنهم سر النهر في زيارة الشيخ الجبرتي فأوصاه جده ألا يتأخر عنده وإلا ضاعت عليه زيارة كنانة.

-٢٠-

ما إن أنهى عبد القادر لف شريط القماش حول إصبع الشيخ عبد الرحمن حتى التفتا إلى سر النهر الواقف أمام رفوف الكتب، فدعاه الشيخ إلى الجلوس ولا يزال يحرّك كفه لجرحه الذي استطال التئامه ويمنعه من الكتابة وإن جازف بفعلها يجد صعوبة في التدوين، انشغل عبد القادر في تجهيز الأوراق وسر النهر ترتسم على وجهه أمارات الظفر بكنانة وتفضيله على من سواه، لكن الشاب الإزميري الرزين لم يبد عليه أي أثر للهزيمة فرفع وجهه وأعلن:

- جاهز يا شيخي.

استدار الجبرتي وانشغل في ترتيب عدة كتب وبقي سر النهر ساكنًا ينتظر أن يعتدل الشيخ في وقفته أو يجلس فيقرأ ما طلبه وينتخب من يقوم بالكتابة، ألصق عبد القادر كتفه في كتف رفيقه ومال على أذنه:

- نقول مبروك؟

لم يتوقع سر النهر مبادرة الإزميري وخمّن أن يكون زميله الغريب أضمر غيظًا ودفن غيرته واجتهد حتى لا يبدي إشارة أنه خسر، فوجهه الصافي يشي بأن الأمرَ لم يتعد من تفكيره سوى زيارة الناجي، وبعد رده القاطع انمحى التمني وبقي مغنم الصداقة، فوعى سر النهر مقصد صاحبه والتفت إليه وتعانقا وهما جالسان وقبّل عبد

القادر جبين رفيقه، فأشرق وجهه وربت على كتفه وهو يؤكد في صدقٍ متناهٍ:

- عن قريب إن شاء الله نفرح بك.
- وأنت معي في دمشق.
- دمشق!
- قبل أن أحضر هنا قابلني واحد من معارفي وسلمني رسالة من أمي، خطبت لي واحدة من بنات خالي اسمها ديمة.
- ودراستك بالأزهر، وعملك ودكانك!
- بعد زواجي أحضر ديمة معي ونعيش هنا، صدقني يا أخي لم أجد أحن من القاهرة على أهلها.
- أبارك لك خطبتك وربنا يتمم على خير.
- وعليك يا أخي الجميل، والله ما رأيت أنقى منك.

جاشت عاطفة سر النهر فترجمت دموعه مدى رغبته في الاحتفاظ بصداقة عبد القادر ذي النفس النزيهة، استدارة الجبرتي المهيبة بدّدت مشاعرهما الحميمة فاعتدل كلٌ منهما في جلسته، في هدوء خطا وقعد قبالة المنضدة وهمّ أن يقول شيئًا قطعه دخول مقبلة ووجهها يطفح بالفرحة، ركنت طاولة القهوة وربتت على كتف سر النهر ومضت في سرعة، لوى الجبرتي عنقه في استغراب فأجاب عبد القادر على دهشته المطلة من عينيه:

- باركْ لسر النهر خطبته يا شيخ.
- مبارك لك يا سر النهر لكنه ليس بالخبر الذي يدوّن.

انفرجت شفتاه عن ابتسامة وعلت ضحكة عبد القادر والشيخ يقطب حاجبيه منتظرًا انتهاء موجة السعادة الغامرة للولدين، فلملم سر النهر أشتات اهتمامه وأمال عينيه نحو الورقة الكبيرة وشرع يقرأ:

«وأما سليمان بك البواب فهرب من حلاوة الروح، وصعد حائط البرج الكبير، فتابعوه بالضرب حتى سقط، وقطعوا رأسه أيضًا، وهرب كثير إلى بيت طوسون باشا يظن الالتجاء به والاحتماء فيه، فقتلوهم وأسرف العسكر في قتلهم وسلب ما عليهم من الثياب ولم يرحموا أحدًا وأظهروا كامن حقدهم وضبعوا فيهم وفيمن رافقهم متجملا معهم من أولاد الناس وأهالي البلد الذين تزيوا بزيهم لزينة الموكب وهم يصرخون ويستغيثون ومنهم من يقول: أنا لست جنديًا ولا مملوكيًا وآخر يقول: أنا لست من قبيلتهم، فلم يرقوا لصارخ ولا شاكٍ ولا مستغيث وتتبعوا المتشتتين والهربانين في نواحي القلعة وزواياها والذين فروا داخل البيوت والأماكن...»*.

التقط سر النهر نفسًا وهو يغمس القلم المدبب في قنينة الحبر متهيئًا للكتابة، فالتفت إليه الجبرتي وهز رأسه لتعب الشاب، مال نحوه وأعجب بخطه الهادئ المنمق، أشار إلى عبد القادر وأمره:

- اكتب أنت يا قادر بدل سر النهر.

ولأنه يعلم أن كل ما يدوّن في تلك الأوراق مجرد مسودات سيعيد الجبرتي كتابتها بنفسه فأيقن أنه يجمع الحوادث بغير ترتيب ثم يرتبها على حسب ما وقع، ارتفع صوت الجبرتي بإملاء عبد القادر والإزميري الماهر يكتب في سرعة ويهتم بوضع الفواصل بين الجُمل

وسر النهر سارح بخياله في الغرفتين اللتين سيهيئهما له أبوه وجده لسكنه مع كنانة.

«فمرّ على العقادين الرومي والشوائين، فخرج إليه شخص من تجار المغاربة، يسمى العربي الحلو، وصرخ في وجهه، وهو يقول: ما هذا الحال ولا علاقة لنا بالمماليك والجند...»*.

انتصبت أذنا سر النهر لاسم العربي الحلو وذلك الخبر الذي عاش لحظاته عند مرور الباشا محمد علي فالتفت في حدة أربكت الجبرتي ودفعته لأن يتوقف وعيناه تستفسران فبادره سر النهر بالقول:

- لا يا شيخ، أنا كنت مع العربي الحلو بدكانه وقال للباشا «إيش هذا الحال وإيش لنا علاقة حتى ينهبنا العسكر، ونحن ناس فقراء مغاربة متسببون، ولسنا مماليك ولا أجناد...»*.

- اكتب يا عبد القادر ما قاله سر النهر بالحرف الواحد ما دام شهد بنفسه تلك الوقعة، فقد رويت لي ولم أشهدها.

في سرعة كتب عبد القادر وزاد عليه ما أملاه الجبرتي بعد ذلك، وسر النهر يجهز الورقة تلو الأخرى حتى سال العرق من جبين عبد القادر ودون أن يطلب الجبرتي، غاص سن قلم سر النهر في المحبرة وطفق يكتب وعبد القادر أراح ظهره إلى الوراء والجبرتي لا يتوقف عن الحكي حتى سكت فجأة وسأل:

- لا تنس شيئًا يا عبد القادر.
- إنه أنا سر النهر الذي يكتب، يا شيخنا.
- اقرأ آخر ما كتبت.

– حاضر.. «فقُتل في هذه الحادثة أكثر من ألف إنسان، أمراء وأجناد وكُشاف ومماليك ثم صاروا يحملون رممهم على الأخشاب ويرمونهم عند المغسل بالرميلة، ثم يرفعونهم ويلقونهم في حفر من الأرض فوق بعضهم البعض، لا يتميّز الأمير من غيره وسلخوا عدة رؤوس من رؤوس العظماء، وألقوا جماجمهم المسلوخة على الرمم في تلك الحفر، فكانت هذه الكائنة من أشنع الحوادث التي لم يتفق مثلها...»*.

توقف سر النهر عن القراءة وصوته المختنق مكبّل بالدموع المثالة على خده فرمقه الشيخ الجبرتي بنظرة عطف للحقيقة القاسية التي دوّنها بأوراقه وانتظر حتى مسح الفتى خده بمنديله وعبد القادر بدوره تلبّسه الوجوم لما سمع وهمّ أن يعقب فاعترضته كلمات سر النهر:

– ورأيت الأشنع يا شيخنا، رءوس المقتولين ألقوا بها على مصطبة السبيل أمام باب زويلة.

– رأيت المشهد بعينيك يا ولد!

– نعم.

– إذن من أخبرني كان صادقًا فدونته كما وصف.

– ولكن لمَ التنكيل، هل عدم الباشا وسيلة في إبعادهم أو ضمهم لجيش الأمير المسافر إلى الحجاز؟

همّ الجبرتي أن يجيب لكن نحنحة جوار الباب دفعته لأن يلتفت ويشرق وجهه لوصول أبي فراس يقوده عكازه، تنفرج ذراعا الجبرتي وهو يؤكد:

- يجيبك عمك يعقوب يا عبد القادر.
- أجيبه إن شاء الله، ولكن عمَ؟
- لماذا لم يضم الباشا شاهين بك وأتباعه لجيش الأمير؟

ابتسامة ساخرة طفحت على تجاعيد أبي فراس واهتزّت عمامته لإمالة رأسه، التقط نفسًا جهد ليجعله عميقًا، أراح نفسه في قعدته ومدّ وجهه نحو الشابين المتلهفين:

- اعلم يا بني أن السلطان لا يقبل القسمة والحكم، إما لهم وإما له ولا أحد يعرف خطر المماليك مثل الباشا محمد علي، مكره سبق مكرهم، بكل تأكيد كانوا يدبرون للانقضاض عليه إن بقوا بعد رحيل الجيش أو الفتك بابنه الأمير طوسون لو رافقوه نكاية في الباشا فتغدى بهم قبل أن يتعشوا به، وقلتها قبل سابق في مسجد السلطان حسن أن القوة والغلبة في غير السلطان شر يجب القضاء عليه.

ران الصمت على الجميع ورسخ في نفس سر النهر أن هذا كان يجب أن يحدث عاجلًا أم آجلًا؛ حتى يخلص الحكم للباشا ولا أحد ينسى ما فعله بالسيد عمر النقيب والرجل يقتات علقم النفي بدمياط ويتجرّع حنظل الغربة وهو في وطنه.

- الملاعين، طول عمرهم لا همّ لأحدهم غير الفتك بغيره للاستيلاء على ما يملك، لا بد أن تكون هذه نهايتهم، موتهم ودفن رممهم النتنة في حفر.

شرخ تعقيب أبي فراس مرآة سكوتهم فصوّبوا عيونهم إليه ورنّة صوته كستها شماتة مصبوغة بالتشفي، صمتوا لجمود وجه الرجل

ودمعة متعرّجة بين أخاديده وأدرك سر النهر أن يعقوب نكأ جرح اختفاء ابنه القسري، نهض وربت على كتفه وقدم إليه منديلًا، بأصابعه العجفاء المرتعشة تناوله أبو فراس، عاد سر النهر لجلسته جوار عبد القادر وهو يتعجّل ما سيمليه الشيخ عبد الرحمن الجبرتي وبعدها يعود إلى البيت؛ ليتجهز ويرافق أخته زينة الوادي إلى كنانة ويقضيان بقية الليل يدبّر معهما إتمام زواجه بها فأشرق وجهه عند هذه النقطة.

- عند أي نقطة وقفت يا سر النهر؟

- آه قرأت إلى: فكانت هذه الكائنة من أشنع الحوادث التي لم يتفق مثلها...»*.

- يكفي هذا اليوم فيعوزني التدقيق والتأكد من بعض الوقعات، نتناول الطعام وبعدها تذهبان ثم تأتيان بعد يومين.

- لا، أستأذنك يا شيخي في التجهز للرحيل إلى دمشق، أتزوج وأحضر أول الربيع إن شاء الله.

- وأنت يا سر النهر أكيد ستتزوج وتنشغل.

- عفوًا سيدي، أتزوج نعم إن شاء الله ولكني لن أنشغل عنك.

- ولك عندي هدية حتى لا تنسى.

في تلهف انتظر سر النهر ما سيهاديه به الشيخ الجليل الذي لم يلبث أن قرّب كرسيًا متينًا أسفل الرفوف واعتلاه في خفةٍ لا تتناسب وشيبته، قبضت أصابعه على المزولة المركونة وحين همّ بالنزول تأرجح الكرسي فكادت قدمه تنزلق، في سرعةٍ خاطفة أمسك عبد

القادر بالكرسي، أما سر النهر فساند الشيخ حتى اعتدل قوامه ونزل في هدوء فلوى رأسه نحو أبي فراس وعاتبه:

- رأيت الشباب يا يعقوب؟ في لمح البصر ساندني وأنت باركٌ على الأرض كجملٍ نحل وبره ويبس سنامه.

- بارك الله في صحتهما، نعيش عمرنا وعمر غيرنا يا أبا خليل!

- أشكركما يا صغيريّ، والله لأنتما أعز عليّ مثل خليل حفظه الله.

- ونحن نحبك يا شيخنا، المزولة هدية سر النهر، وأنا؟

- لك عندي هذا يا عبد القادر.

مدّ الجبرتي يده بكيس كبير طفحت منه رائحة البُن فتناوله الشاب في اعتزاز ووقف جوار سر النهر الممسك بالمزولة فرفع الجبرتي سبابته أمامهما:

- لا تتأخر يا عبد القادر، حتى لا يفوتك الكثير من العلم بالأزهر، وأنت يا سر النهر، احفظ المزولة وادعُ لصانعها الشيخ حسن العطار أن يعود لنا بسلامة الله وأمنه وسوف تجدان منه غزارة العلم ورجاحة العقل وسعة الأفق.

- أمرك يا شيخنا.

بكلماته المقتضبة أنهى سر النهر وقوفه بالمكتبة وخطا يتبعه عبد القادر وجفلت أقدامهما عند الباب لصوت الشيخ يعقوب:

- رأيك يا ابن حسن لو نتصارع أنا وأنت ونرى أينا يطرح الآخر على الأرض.

- وأنا أنسحب قبل أن نبدأ فلا وقت لديّ للصراع وإنما للكتابة يا يعقوب.

تلاقت ابتسامات سر النهر وعبد القادر وتقدما نحو باب البيت حتى خرجا، سارا صامتين إلى أن وصلا الرميلة، تأملا باب العزب المغلق على أسراره فعضّ سر النهر شفته وود لو يشعل فيه النار فيحترق عقابًا له على إغلاقه المتين ومنعه نجاة المأسورين خلفه وطلقات البنادق تحصد نفوسهم الهلعة، لم يجد فائدة من وقوفه فاستأنف السير مع عبد القادر، عند مفترق الطرق اعتدل كلٌ منهما قبالة الآخر، دون أن يتبادلا كلمة واحدة، تحاضنا فتقوّس ذراعا عبد القادر وربت سر النهر على كتفي رفيقه، افترقا على وعدٍ بالعودة، لحظ سر النهر أثناء مشيه هدوء الشوارع وفتح الحوانيت بعد شيوع الأمن في البلد، وصل البيت فوجد أخته مستعدة، قبل أن يترافقا إلى بيت الناجي مدّ حيدر يده بكيس الحربة.

- لا تخرجها إلا لتدافع عن نفسك وأهل بيتك وحين تحضر كنانة أشياءها أهديكما قوس جدك الأكبر زرع النيل فتعلقه على الجدار مع الكنانة.

هوّم سر النهر برأسه وزينة واقفة جواره، ضمهما حيدر لصدره، برفق أبعدهما فانصرفا متجاورين، يمّم بصره تجاه بيت الناجي وقلبه يتراقص من فرط الفرحة، وصلا فرحّبت بهما كنانة واستقبلت زينة الوادي في حفاوة، على البساط الثمين المفروش بالمنظرة الفسيحة جلس ثلاثتهم سر النهر يتوسّط أخته وخطيبته يظللهم الرضاء فطفقوا يتبادلون الرأي لتهيئة حياتهم الجديدة.

تنويه:

ما بين القوسين بعلامة النجمة «*» منقول بنصه من كتاب (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) للشيخ عبد الرحمن بن حسن الجبرتي.

المؤلف

أيمن رجب طاهر.

مواليد أبنوب بأسيوط 23/ 6/ 1973م.

عضو اتحاد كتاب مصر.

عضو نادي أدب أسيوط.

عضو نادي القصة بأسيوط.

أعمال صادرة:

النتاج الروائي:

- موت بريء (رواية) 2007م عن مركز سيتي للطباعة بأسيوط.
- شرنقة الجسد (رواية) 2011م عن الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- وني.. حكيم الحروب (رواية) 2011م روايات الهلال.
- إبور.. ناصح الفرعون (رواية) 2013م روايات الهلال.
- القحط (رواية) 2013م عن دار الأدهم للنشر.// ط 2 عن دار كيان للنشر والتوزيع. 2019م [حازت هذه الرواية على جائزة الدولة التشجيعية 2016م].
- بنتاور.. الساقي الأمين (رواية) 2014م روايات الهلال.
- حم إيونو.. عظيم الهرم (رواية) 2016م روايات الهلال.

- تل العقارب (رواية) 2017م عن دار الأدهم للنشر. [حازت هذه الرواية على جائزة بهاء طاهر لأدباء الصعيد المقدمة من اتحاد كتاب مصر 2021م].
- بني عدي (رواية) 2017م عن دار العماد للنشر.
- ليل زوارة (رواية) 2017م عن دار كيان للنشر والتوزيع.
- نوڤيلا (رواية) 2018م عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- أنوبيس.. يرقص على حافة الحياة (رواية) 2019م عن دار بردية للنشر والتوزيع.
- مرفأ الأربعين (رواية) 2020م عن دار غراب للنشر والتوزيع.
- الهجانة (رواية) 2020م عن دار كيان للنشر والتوزيع. [حازت هذه الرواية على جائزة كتارا للرواية العربية 2021م].
- أنسباي.. حكاية أنس بن مصري ـ (رواية) 2021م عن دار كيان للنشر والتوزيع.
- حرمخيس وحلم الاستقلال (رواية) 2021م دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع.

نتاجات أخرى:

- التابوت (قصص) 2005م عن مركز سيتي للطباعة بأسيوط.
- مدونة الأساطير (قصص) 2007م عن مركز سيتي للطباعة بأسيوط.
- من أنتم؟ (قصص) 2013م عن المركز الأدبي للطباعة بأسيوط.

- بيت الحكمة (مسرحية) 2013م عن المركز الأدبي للطباعة بأسيوط.
- كتاب الموتى 2015م (نصوص) دار الإسلام للطباعة والنشر.
- صدى لضوء خافت (قصص) 2019م مطبوعات اتحاد كتاب مصر.
- زهور بلا أشواك (مسرحية) تم عرضها بقصر ثقافة الزعيم جمال عبد الناصر ببني مر 2019م.
- سأبوح بسري لخلاني السطور (قصص) 2021م دار ميتابوك للنشر والتوزيع.

جوائز وتكريمات:

- جائزة أحمد بهاء الدين الثقافية في أدب الطفل 2009م.
- جائزة أحمد بهاء الدين الثقافية في الرواية 2010م.
- تقييم معنوي من أمانة جائزة الشارقة (الإصدار الأول) في المسرح عن مسرحية (بيت الحكمة) 2010م.
- جائزة أخبار الأدب ومؤسسة المصري في القصة القصيرة 2011م.
- جائزة القصير للإبداع الأدبي في القصة القصيرة 2011.
- درع نادي القصة بأسيوط لعام 2012م.
- إطلاق اسم (أيمن رجب طاهر) على دورة مؤتمر نادي القصة بأسيوط 2014م.

- جائزة ثقافة بلا حدود العراقية في القصة القصيرة 2016م.
- جائزة صالون نجيب الثقافي في القصة القصيرة 2016م.
- درع هيئة قصور الثقافة للمكرمين عن أسيوط بالمؤتمر السابع عشر لإقليم وسط الصعيد الثقافي 2017م.
- درع رابطة الشعراء والأدباء العرب 2017م.
- درع التميز من فرع ثقافة أسيوط 2017م.
- درع التميز من نادي القصة بأسيوط 2017م.
- درع التميز من مدرسة السلام الحديثة المشتركة 2017م.
- شارة محافظة أسيوط بمناسبة فوز رواية (القحط) بجائزة الدولة التشجيعية 2017م.
- درع التفوق من نقابة محامي أسيوط 2017م.
- درع اتحاد كتاب مصر فرع الجنوب 2018م.
- درع نادي الأدب المركزي بأسيوط 2018م.
- شهادة تقدير من نادي القصة بأسيوط 2019م.
- شهادة تقدير ودرع نادي أدب أبنوب لفوز رواية الهجانة بجائزة كتارا للرواية العربية 2021م.
- شهادة تقدير مقدمة من ملتقى السرد العربي لفوز رواية الهجانة بجائزة كتارا العالمية في الرواية 2021م.
- شهادة تقدير وميدالية من اتحاد كتاب مصر بمناسبة فوز رواية (تل العقارب) بجائزة الأديب العالمي بهاء طاهر لأدباء الصعيد 2021م.

- جائزة الدولة التشجيعية في الآداب عن رواية القحط (رواية تاريخية) لعام 2016م.
- جائزة بهاء طاهر لكتاب الصعيد المقدمة من اتحاد كتاب مصر عن رواية (تل العقارب) 2021م.

نشرت قصصه في مجلات منها:

جريدة أخبار الأدب/ مجلة الثقافة الجديدة/ جريدة السفير/ مجلة المحيط الثقافي/ مجلة نزوى العمانية/ مجلة اللقاء/ جريدة أخبار أسيوط/ مجلة الرافد الإماراتية/ مجلة الفيصل السعودية/ جريدة الأهرام/ مجلة أمارجي العراقية/ جريدة القاهرة/ مجلة عالم الكتاب.

أبرز الدراسات والمقالات النقدية:

تناول أعمال الكاتب الكثير من النقاد بالدراسات النقدية منهم:

- (الفقراء يخسرون مرتين قراءة في رواية شرنقة الجسد) للأستاذ الناقد/ عبد الحافظ بخيت متولي نشرت بجريدة أخبار الأدب عدد 987 يوليو 2012م.
- (هندسة البناء، رؤية في قصة وجه مبتسم) للأستاذ / قاسم مسعد عليوة نشرت بمجلة الثقافة الجديدة باب القادمون عدد 261 يوليو 2012م.
- (سيمياء الرمز في مجموعة قصص من أنتم؟) للدكتور الناقد/ أحمد الصغير نشرت بكتاب المؤتمر العام لأدباء مصر الدورة 29 ديسمبر 2014م.

- (الآخر في الإبداع رواية القحط نموذجًا) للباحث د / أحمد مصطفى علي، نشرت بكتاب أبحاث المؤتمر الأدبي الخامس عشر لإقليم وسط الصعيد الثقافي بالوادي الجديد 2015م.
- (القحط يجتاح البلاد قراءة في رواية القحط) للروائي الناقد/ محمود عرفات نشرت بكتاب أبحاث مؤتمر اليوم الواحد بأسيوط 2015م.
- (الرواية وتداخل الأجناس – المشهد السينمائي في الرواية الجنوبية القحط نموذجًا) للروائي الناقد الأستاذ / محمد صالح البحر نشرت بكتاب أبحاث المؤتمر الثالث لنادي القصة بأسيوط.
- (السينما في الرواية - القحط نموذجًا) للروائي والناقد الأستاذ/ محمد صالح البحر نشرت بمجلة الرافد الإماراتية عدد 236 إبريل 2017م.
- (قراءة في أبنية السرد وظواهره لدى كتاب الصعيد - رواية تل العقارب نموذجًا) للناقد د/ سعيد حامد نشرت بكتاب أبحاث المؤتمر الأدبي الثامن عشر لإقليم وسط الصعيد الثقافي بالمنيا 2018م.
- (سرد ما بعد الحداثة، من كتابة الواقع إلى واقع الكتابة ـ فنية المخطوط في رواية نوڤيلا) للناقد د/ محمود فرغلي علي نشرت بكتاب أبحاث المؤتمر السابع لنادي القصة بأسيوط 2018م.
- (المجد للبسطاء - عن رواية تل العقارب) للناقد القاص أ/ محمد عبد المطلب نشرت بمجلة الحوار الصادرة عن إقليم وسط الصعيد الثقافي مارس 2019م.

- (مشهد كابوسي من أيام الشدة المستنصرية عن رواية القحط) للروائي الناقد د/ محمد سليم شوشة نشرت بمجلة الثقافة الجديدة عدد 343 ابريل 2019م.
- (الكتابة كنزوع للتوافق الجمالي ـ قراءة في رواية نوڤيلا) للناقد د/ محمد سمير عبد السلام نشرت بمجلة مصر المحروسة 30 مايو 2019م.
- (السعي لانتصار الموروث في أبنوب ـ قراءة في مجموعة «صدى لضوء خافت») للقاص أ/ فراج فتح الله نشرت بالملحق الأدبي لجريدة الأهرام 22 نوفمبر 2019م.
- (الهجانة وبناء التصورات الذهنية المغايرة) للباحث د/ أحمد مصطفى علي، نشرت بمجلة الحوار الصادرة عن إقليم وسط الصعيد الثقافي العدد السادس 2022م.
- (دلالة المكان في تشكيل الهوية عند أدباء الصعيد ـ مقاربة أسلوبية ـ رواية القحط بين بنية النص ودلالة المكان/ المكان في رواية أنسباي) للباحث أ / شعبان كامل المنفلوطي، نشرت بكتاب أبحاث المؤتمر الأدبي الحادي والعشرين لإقليم وسط الصعيد الثقافي بسوهاج مارس 2022م.
- (الهجانة ومآسي إجبار المصريين على الحرب لصالح الاستعمار) للأستاذة والناقدة / هبة عبد الستار نشرت بجريدة الأهرام مارس 2022م.

كيان للنشر والتوزيع

أفضل دار نشر مصرية ٢٠٢١

للتواصل معنا :

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زوروا موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01001872290/ 01000405450

وللاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتّابنا الثقافية، يمكنكم متابعتنا على حسابات التواصل الاجتماعى التالية:

KayanPublishing